رِجَالٌ حَوْلَ الحُسَيْنِ

الجزء الأول

محمَّد عَلي القطب

المكتبة العصرية
صَيدا - بيروت

شركة أبناء شريف الأنصاري
للطباعة والنشر والتوزيع
صيدا - بيروت - لبنان

• المكتبة العصرية
الخندق الغميق - ص.ب: 11/8355
تلفاكس: 655015 - 632673 - 00961 1 659875
بيروت - لبنان

• الدار النموذجية
بوليفار د. نزيه البزري - ص.ب: 221
تلفاكس: 720624 - 729259 - 00961 7 729261
صيدا - لبنان

• المطبعة العصرية
كفر جرة - طريق عام صيدا - جزين
07 230195 - 00961 7 230841
تلفاكس: 655015 - 632673 - 00961 1 659875
صيدا - لبنان

الطبعة الأولى
2020م - 1441هـ

Copyright© all rights reserved
جميع الحقوق محفوظة للناشر
لا يجوز نشر، أي جزء من هذا الكتاب، أو اختزان مادته بطريقة الاسترجاع، أو نقله على أي نحو، أو بأي طريقة، سواء كانت ألكترونية، أو بالتصوير، أو التسجيل، أو خلاف ذلك، إلا بموافقة كتابية من الناشر مقدمًا.

alassrya@terra.net.lb
E. Mail: alassrya@cyberia.net.lb
info@alassrya.com

موقعنا على الإنترنت
www.alassrya.com

المُحتَوَيَاتْ

مُقَدِّمَة ... 5

عَلِيٌّ الْأَكْبَرُ ابْنُ الْحُسَيْنِ «رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا» ... 7

الْقَاسِمُ بْنُ الْحَسَنِ «رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا» ... 19

الْعَبَّاسُ بْنُ عَلِيٍّ «رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا» ... 29

نَافِعُ بْنُ هِلَالٍ ... 41

جَوْنٌ «مَوْلَى أَبِي ذَرٍّ الْغِفَارِيِّ» ... 53

عَابِسُ بْنُ أَبِي شَبِيبٍ ... 63

مُسْلِمُ بْنُ عَقِيلٍ «طَلِيعَةُ الشُّهَدَاءِ» ... 73

مُسْلِمُ بْنُ عَوْسَجَةَ ... 97

الْإِمَامُ الْحُسَيْنُ بْنُ عَلِيٍّ «رَضِيَ اللهُ عَنْهُ» ... 111

الْحُرُّ بْنُ يَزِيدَ التَّمِيمِيُّ ... 141

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَة

الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى سَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ وَآلِهِ الطَّيِّبِينَ الطَّاهِرِينَ وَبَعْدُ، فَإِنَّ مِنْ دَوَاعِي اعْتِزَازِي بِالْحَقِّ وَالْجِهَادِ فِي سَبِيلِهِ أَنْ أُقَدِّمَ «رِجَالٌ حَوْلَ الْحُسَيْنِ» أُولَئِكَ السَّابِقُونَ الَّذِينَ كَانُوا وَقُودَ الثَّوْرَةِ عَلَى الظُّلْمِ وَالِانْحِرَافِ، الثَّوْرَةِ الَّتِي مَا يَزَالُ أُوَارُهَا يَضْطَرِبُ وَيَلْتَهِبُ فِي النُّفُوسِ الْمُتَعَطِّشَةِ إِلَى إِحْقَاقِ الْحَقِّ وَتَرْسِيخِ الْعَدْلِ وَرَفْعِ الْحَيْفِ.

إِنَّ الْبَذْلَ عَطَاءٌ، وَإِنَّ التَّضْحِيَةَ عَطَاءٌ، وَإِنَّ السَّخَاءَ عَطَاءٌ، وَلَكِنَّ الشَّهَادَةَ فِي سَبِيلِ اللهِ أَسْمَى الْعَطَاءِ.

وَمَا كَانَ مَوْكِبُ «الْحُسَيْنِ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إِلَى «كَرْبَلَاءَ» إِلَّا مَوْكِبَ الشَّهَادَةِ يَسْتَحِثُّ الْخُطَى إِلَى الْجَنَّةِ، وَيُعَبِّدُ طَرِيقَهَا بِالْجُسُومِ، وَيَرْصِفُهَا بِالْأَرْوَاحِ، وَيُبَلِّلُ ثَرَاهَا بِالدِّمَاءِ الزَّكِيَّةِ.

وَلَقَدْ كَانَ مَوْكِبُ «الْحُسَيْنِ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مِشْعَلَ الْهِدَايَةِ وَكَوْكَبَ الرُّؤْيَةِ الْوَاضِحَةِ فِي لَيْلٍ دَاجٍ مِنْ ظُلْمِ الظَّالِمِينَ وَالْمُفْتَرِينَ، وَنِدَاءَةَ حَقٍّ فِي آذَانِ الْعُتَاةِ وَالْمُتَكَبِّرِينَ.

لَقَدْ كَانُوا فِتْيَةً آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزَادَهُمُ اللهُ هُدًى، وَرَضِيَ لَهُمُ الشَّهَادَةَ خَاتِمَةً وَالْجَنَّةَ مَوْئِلًا، وبَوَأَّهُمْ مِنْ سِفْرِ التَّارِيخِ وَسِيرَتِهِ صَفْحَةً مُشْرِقَةً وَضَّاءَةً.

وَإِنِّي لَأَرْجُو اللهَ تَعَالَى أَنْ يَنْفَعَ بِهَؤُلَاءِ الْأَعْلَامِ وَالْأَبْطَالِ أَجْيَالَنَا الْمُسْلِمَةَ؛ لِتَهْتَدِيَ بِهَدْيِهِمْ وَتَنْتَهِجَ سَبِيلَهُمْ.

وَأَنْ يُثَبِّتَنَا عَلَى الْحَقِّ، وَيَهْدِيَنَا سَوَاءَ السَّبِيلِ، وَيُوَفِّقَنَا لِبُلُوغِ مَا نَصْبُو إِلَيْهِ مِنْ مَجْدٍ وَعِزَّةٍ وَكَرَامَةٍ، وَاللهُ الْمُوَفِّقُ.

٣٠ جُمَادَى الْأُولَى ١٣٩٤هـ
الْمُوَافِقُ ٢٠ حَزِيرَانَ ١٩٧٤م

السيّد مُوسَى الصَّدْر

عَلِيٌّ الْأَكْبَرُ

ابْنُ الْحُسَيْنِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا

قَالَ اللهُ تَعَالَى:

﴿ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴾.

وَقَالَ أَيْضًا جَلَّ شَأْنُهُ:

﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾.

***

وَقَالَ «الْحُسَيْنُ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ:

«قَتَلَ اللهُ قَوْمًا قَتَلُوكَ يَا بُنَيَّ، وَعَلَى الدُّنْيَا بَعْدَكَ الْعَفَاءُ».

❊❊❊

وَقَالَ «عَلِيٌّ الْأَكْبَرُ» يَرْتَجِزُ:

أَنَا عَـــلِيُّ بْـــنُ الْحُسَيْنِ بْـــنِ عَـلِي

نَحْـــنُ وَبَـيْـــتِ اللهِ أَوْلَى بِالنَّـــبِي

وَاللهِ لَا يَحْكُـــمُ فِينَـــا ابْـــنُ الدَّعِي[1]

أَطْـعَـــنُ بِالـرُّمْـــحِ حَـــتَّى يَنْثَنِي

أَضْـــرِبُ بِالسَّـــيْفِ أَحْمِي عَـــنْ أَبِي

ضَـــرْبَ غُـــلَامٍ هَـــاشِمِيٍّ عَـلَوِي

❊❊❊

(١) ابْنُ الدَّعِيِّ: هُوَ عُبَيْدُ اللهِ بْنُ زِيَادِ بْنِ أَبِيهِ؛ الَّذِي أُنْكِرَ نَسَـبُهُ حتَّى أَلْحَقَهُ مُعَاوِيَةُ بِأَبِيهِ «أبي سُفْيَانَ».

تَوْطِئَةٌ

كَثُرَ الْقَتْلُ وَاسْتَشْرَى الذَّبْحُ، وَابْتَلَّتْ ثَرَى كَرْبَلَاءَ بِالدِّمَاءِ، وَضَجَّتْ أَرْجَاؤُهَا بِالدُّعَاءِ، وَزُهِقَتْ فِيهَا الْأَرْوَاحُ الزَّكِيَّةُ، وَتَقَطَّعَتْ وَانْتَثَرَتْ فِيهَا الْجَوَارِحُ الطَّاهِرَةُ النَّقِيَّةُ، وَحَوَّمَتْ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَنِ فِي أَجْوَائِهَا بَاكِيَةً؛ تَنْدُبُ الْحَقَّ وَأَهْلَهُ، يُصْرَعُونَ وَيُفْتَكُ بِهِمْ.

وَ«الْحُسَيْنُ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فِي كُلِّ هَذَا ثَابِتُ الْجَنَانِ، قَوِيُّ الْإِيمَانِ، كَبِدُهُ تَنْفِرِي أَلَمًا وَحُزْنًا، فَلَا يُطَأْطِئُ الرَّأْسَ إِلَّا لِلْمَلِكِ الدَّيَّانِ.

يَرَى أَصْحَابَهُ وَإِخْوَانَهُ وَأَهْلَهُ عُرْضَةً لِلْمَوْتِ يَنْتَهِبُهُمْ مِنْ جَوْفِ قَلْبِهِ وَبَيْنَ جَوَانِحِهِ، فَلَا يَسْتَطِيعُ لَهُ دَفْعًا وَلَا رَدًّا.

ثُمَّ يَرَى أَكْبَرَ أَوْلَادِهِ «عَلِيًّا» تَنْتَاشُهُ السُّيُوفُ وَالرِّمَاحُ، وَتُمَزِّقُ جَسَدَهُ الطَّاهِرَ، وَيَنْتَفِضُ انْتِفَاضَةَ الطَّائِرِ الْمَذْبُوحِ يَجُودُ بِالْأَنْفَاسِ.

يَرَى ذَلِكَ فَتَصْغُرُ الدُّنْيَا فِي عَيْنَيْهِ، وَهُوَ الَّذِي لَمْ تَكُنْ عِنْدَهُ تُسَاوِي شَيْئًا أَمَامَ طَاعَةِ اللهِ، وَالْفَنَاءِ فِي ذَاتِهِ تَعَالَى، فَيَقُولُ:

«قَتَلَ اللهُ قَوْمًا قَتَلُوكَ يَا بُنَيَّ، وَعَلَى الدُّنْيَا بَعْدَكَ الْعَفَاءُ».

❋❋❋

وَدَاعًا أَيَّتُهَا الدُّنْيَا الْفَانِيَةُ، وَلِقَاءً بَيْنَ يَدَيِ اللهِ تَعَالَى.

نَسَبُهُ وَنَشْأَتُهُ

هُوَ عَلِيٌّ «الْأَكْبَرُ» بْنُ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ الْقُرَشِيُّ الْهَاشِمِيُّ، وَأُمُّهُ لَيْلَى بِنْتُ أَبِي مُرَّةَ بْنِ عُرْوَةَ بْنِ مَسْعُودٍ الثَّقَفِيِّ.

وَيُمَيَّزُ بِلَقَبِ «الْأَكْبَرِ» عَنْ أَخِيهِ «زَيْنِ الْعَابِدِينَ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

وُلِدَ وَتَرَبَّى فِي حِجْرِ «الْحُسَيْنِ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، فَغَرَفَ مِنْ فَيْضِ إِيمَانِهِ، وَنَهَلَ مِنْ نَمِيرِ عِلْمِهِ، وَارْتَوَى مِنْ فَضْلِهِ وَكَرَمِهِ.

وَشَبَّ فَارِسًا شُجَاعًا مِقْدَامًا، فَعَدَّهُ الْمُؤَرِّخُونَ مِنْ أَبْطَالِ بَنِي هَاشِمٍ بِحَقٍّ وَصِدْقٍ، وَاعْتَرَفَ الْعَدُوُّ قَبْلَ الصَّدِيقِ بِجُرْأَتِهِ وَمُرُوءَتِهِ رَغْمَ سِنِّهِ الْمُتَوَاضِعَةِ وَعُمْرِهِ الْقَصِيرِ.

وَلَئِنْ شَهِدَتْ أَرْضُ كَرْبَلَاءَ بُطُولَاتٍ خَارِقَةً وَتَضْحِيَاتٍ بَاهِرَةً، فَجَدِيرٌ بِهَا أَنْ تُسَجِّلَ لِوَلَدِ «الْحُسَيْنِ» «عَلِيِّ الْأَكْبَرِ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أَصْدَقَ الثَّبَاتِ، وَأَكْرَمَ الْوَفَاءِ، وَأَغْلَى الشَّهَادَةِ.

***

خَرَجَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مَعَ أَبِيهِ وَإِخْوَتِهِ جُنْدِيًّا فِي مَوْكِبِ الْحَقِّ، وَنَفَرًا فِي رَكْبِ الْإِيمَانِ، يَحْتَمِلُ فِي اللهِ كُلَّ بَلَاءٍ، وَيَنْصِبُ فِي سَبِيلِهِ دُونَ تَلَكُّؤٍ أَوْ تَهَاوُنٍ أَوْ تَرَاجُعٍ، وَهَلْ يُعْقَلُ أَنْ يَكُونَ «عَلِيٌّ الْأَكْبَرُ» غَيْرَ ذَلِكَ؟!

إِنَّهُ ابْنُ السِّبْطِ «الْحُسَيْنِ»، بَلْ يَحْمِلُ اسْمَ بَطَلِ الْإِسْلَامِ وَفَارِسِهِ الْمِقْدَامِ «عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وَجَدَّتُهُ «الزَّهْرَاءُ» بِنْتُ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ.

وَحِينَ بَلَغَتِ «الْحُسَيْنَ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنْبَاءُ مَقْتَلِ «مُسْلِمِ بْنِ عَقِيلٍ» وَ«هَانِئِ بْنِ عُرْوَةَ» وَتَخَاذُلِ النَّاسِ فِي الْكُوفَةِ عَنْ نُصْرَةِ الْحَقِّ وَانْصِرَافِهِمْ عَنْ حِمَايَةِ أَصْحَابِ «الْحُسَيْنِ»، أَنْذَرَ النَّاسَ الَّذِينَ كَانُوا مَعَهُ بِمَا وَقَعَ، وَأَعْلَمَهُمْ بِحَقِيقَةِ الْأَمْرِ، فَتَرَكَهُ أَكْثَرُهُمْ وَمَا بَقِيَ مَعَهُ إِلَّا الْقَلِيلُ مِنْهُمْ!

وَكَانَ «عَلِيٌّ الْأَكْبَرُ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يَرَى ذَلِكَ فَيَتَأَلَّمُ، وَيَسْمَعُ قَوْلَ أَوْلَادِ «مُسْلِمِ بْنِ عَقِيلٍ» وَرَدِّ «الْحُسَيْنِ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، فَيُسَرَّى عَنْهُ بَعْضُ مَا كَانَ يَنْتَابُهُ مِنْ حُزْنٍ وَأَسَى.

ثُمَّ يَمْضِي مَعَ الْمَوْكِبِ بِعَزْمٍ ثَابِتٍ وَيَقِينٍ مَكِينٍ، حَتَّى بَلَغُوا «ذِي حُسُمٍ»، وَهُنَاكَ الْتَقَوْا بِطَلِيعَةِ جَيْشِ «ابْنِ زِيَادٍ» عَلَى رَأْسِهَا «الْحُرُّ بْنُ يَزِيدَ التَّمِيمِيُّ»، وَعَايَشَ «عَلِيٌّ الْأَكْبَرُ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فَتْرَةَ الْحِوَارِ بَيْنَ وَالِدِهِ وَبَيْنَ «الْحُرِّ»، عَايَشَهَا بِكُلِّ جَوَارِحِهِ وَصِدْقِ عَاطِفَتِهِ، وَكَانَتْ نَفْسُهُ تَجِيشُ بِحُبِّ الْقِتَالِ وَلِقَاءِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَلَوْ قُيِّضَ لَهُ أَنْ يُبَارِزَ الْفُرْسَانَ مِنْ أَوَّلِ الْأَمْرِ لَمَا تَوَانَى وَلَمَا تَأَخَّرَ، وَلَكِنَّهُ كَانَ يَنْتَظِرُ الْقَضَاءَ.

﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾.

❋❋❋

وَحِينَ أَحَاطَتْ بِالْفِئَةِ الْمُؤْمِنَةِ الْقَلِيلَةِ الْعَدَدِ الزَّاخِرَةِ بِالْإِيمَانِ جُيُوشُ «ابْنِ زِيَـادٍ» كَانَ «عَلِيٌّ الْأَكْبَرُ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مِـنَ الَّذِينَ لَمْ يَرْهَبُوا وَلَمْ يَتَزَلْزَلُوا.

وَلَمَّـا قُتِلَ كُلُّ أَصْحَابِ «الْحُسَـيْنِ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إِثْـرَ الْمُبَارَزَاتِ وَالْمُصَادَمَاتِ، وَلَمْ يَبْقَ مَعَهُ إِلَّا أَهْلُ بَيْتِهِ «أَوْلَادُهُ وَإِخْوَتُهُ وَبَنُو عُمُومَتِهِ»، وَكَانَتْ سَوْرَةُ الْغَضَبِ دِفَاعًا عَنِ الْحَقِّ قَدْ بَلَغَتْ عِنْدَهُمْ أَوْجَهَا، وَالشَّوْقُ إِلَى لِقَاءِ اللهِ قَدِ اشْتَدَّ وَنَمَا، وَكَانَ «عَلِيٌّ الْأَكْبَرُ» أَكْثَرَهُمْ حَمَاسًا وَانْدِفَاعًا، بَرَزَ إِلَى الْمَيْدَانِ وَقَدِ اعْتَلَى صَهْوَةَ جَوَادٍ يُدْعَى «الْأَحْمَقَ»، مِكَرٍّ مِفَرٍّ، وَقَدْ تَسَرْبَلَ بِعُدَّةِ الْقِتَالِ.

وَكَانَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَكْثَرَ إِخْوَتِهِ شَبَهًا بِجَدِّهِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ أَفْضَلُ التَّحِيَّةِ وَأَزْكَى السَّلَامِ، مُقْبِلًا مُدْبِرًا.

ثُمَّ طَلَبَ الطَّعْنَ وَالْمُبَارَزَةَ، وَكَانَ وَالِدُهُ «الْحُسَيْنُ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَدْ رَآهُ حِينَ تَوَسَّـطَ الْمَيْدَانَ، فَأَرْخَى عَيْنَيْهِ بِالدُّمُوعِ وَقَدْ أَيِسَ مِنْهُ، فَصَاحَ قَائِلًا:

- وَيْلَكَ يَا «ابْنَ سَعْدٍ»، قَطَعَ اللهُ رَحِمَكَ كَمَا قَطَعْتَ رَحِمِي، وَلَمْ تَحْفَظْ قَرَابَتِي مِنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآلِهِ وَسَلَّمَ.

اللَّهُمَّ كُنْ أَنْتَ الشَّهِيدَ عَلَى هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ، قَدْ بَرَزَ إِلَيْهِمْ غُلَامٌ أَشْبَهُ النَّاسِ بِرَسُولِكَ وَنَبِيِّكَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآلِهِ وَسَلَّمَ.

اللَّهُـــمَّ امْنَعْهُمْ بَـــرَكَاتِ الْأَرْضِ، وَفَرِّقْهُمْ تَفْرِيقًـــا وَمَزِّقْهُمْ تَمْزِيقًا، وَاجْعَلْهُمْ طَرَائِقَ قِدَدًا، وَلَا تُرْخِ عَنْهُمُ الْوُلَاةَ أَبَدًا؛ فَإِنَّهُمْ دَعَوْنَا لِيَنْصُرُونَا ثُمَّ عَدَوْا عَلَيْنَا لِيُقَاتِلُونَا!

❋❋❋

وَبَعْدَ أَنْ طَلَبَ «عَلِيٌّ الْأَكْبَرُ» مِنْ جُنُـــودِ «ابْنِ زِيَادٍ» الْمُبَارَزَةَ، تَهَافَتُوا عَلَيْهِ وَأَحَاطُوا بِهِ، وَرَاحُوا يُحَاوِرُونَـــهُ وَيُدَاوِرُونَهُ، وَكَانَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يُتْقِنُ فُنُونَ الْقِتَالِ، فَاسْـــتَطَاعَ أَنْ يَنَالَ مِنْهُـــمْ دُونَ أَنْ يَنَالُوا مِنْهُ، وَأَصَابَ بَعْضَهُمْ بِالْجِرَاحِ، وَاسْتَمَرَّ عَلَى ذَلِكَ وَقْتًا لَيْسَ بِالْيَسِيرِ، حَتَّى ابْتَلَّتْ ثِيَابُهُ بِالْعَرَقِ، وَجَفَّ حَلْقُهُ مِنَ الظَّمَإِ، وَكَانَ يَرْتَجِزُ مُرَدِّدًا:

أَنَا عَـــلِيُّ بْـــنُ الْحُسَـــيْنِ بْـــنِ عَـلِي

نَـحْـــنُ وَبَيْـــتِ اللهِ أَوْلَى بِالنَّـــبِي

وَاللهِ لَا يَحْكُـــمُ فِينَـــا ابْـــنُ الـــدَّعِي

أَضْـــرِبُ بِالسَّـــيْفِ أَحْمِي عَـــنْ أَبِي

فَيُرْعِدُ صَوْتُهُ فِي الْفَضَاءِ كَأَنَّهُ الْقَصْفُ الشَّدِيدُ.

وَبَيْنَمَا هُوَ فِي حَوْمَةِ الْوَغَى يَصُولُ وَيَجُولُ، وَ«الْحُسَيْنُ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يَرْقُبُهُ بِعَيْنَيْهِ وَيَحُفُّهُ بِقَلْبِهِ، تَغَيَّرَ لَوْنُ وَجْهِ «الْحُسَـــيْنِ»، وَظَهَرَ الْجَزَعُ فِي عَيْنَيْهِ، فَسَـــأَلَتْهُ زَوْجَتُهُ «لَيْلَى» أُمُّ عَلِيٍّ الْأَكْبَرِ عَنْ سَبَبِ ذَلِكَ وَهِيَ تَظُنُّ أَنَّ ابْنَهَا قَدْ أَصَابَهُ مَكْرُوهٌ. فَقَالَ «الْحُسَيْنُ»:

- لَا، وَلَكِنْ بَرَزَ إِلَيْهِ الْآنَ مَنْ يُخْشَى عَلَيْهِ مِنْهُ، فَادْعِي اللهَ تَعَالَى أَنْ يَنْصُرَهُ عَلَى عَدُوِّهِ؛ فَقَدْ سَمِعْتُ جَدِّي رَسُولَ اللهِ يَقُولُ: «إِنَّ دُعَاءَ الْوَالِدَةِ بِحَقِّ وَلَدِهَا مُسْتَجَابٌ».

فَرَفَعَتِ الْأُمُّ الْحَنُونُ يَدَيْهَا نَحْوَ السَّمَاءِ وَدَعَتْ قَائِلَةً:

- يَا رَادَّ يُوسُفَ إِلَى يَعْقُوبَ ارْدُدْ عَلَيَّ وَلَدِي سَالِمًا...

فَاسْتَجَابَ اللهُ دُعَاءَهَا، وَانْتَصَرَ «عَلِيٌّ الْأَكْبَرُ» عَلَى عَدُوِّهِ «بَكْرِ بْنِ مَالِكٍ» الَّذِي كَانَ رَهِيبًا مُخِيفًا جَبَّارًا، يَخْشَاهُ أَشْجَعُ الْفُرْسَانِ وَيَفْرَقُونَ مِنِ اسْمِهِ. فَسَقَطَ «بَكْرٌ» فِي السَّاحَةِ صَرِيعًا، وَعَادَ «عَلِيٌّ» إِلَى مُعَسْكَرِ أَبِيهِ سَالِمًا ظَافِرًا، وَطَلَبَ إِلَى «الْحُسَيْنِ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنْ يُسْعِفَهُ بِشَرْبَةِ مَاءٍ يُبَلِّلُ بِهَا رِيقَهُ وَحَلْقَهُ الَّذِي جَفَّ، فَبَكَى «الْحُسَيْنُ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ رِفْقًا بِابْنِهِ وَحَسْرَةً عَلَيْهِ، وَقَالَ لَهُ:

- مِنْ أَيْنَ آتِي لَكَ بِالْمَاءِ يَا بُنَيَّ؟! اصْبِرْ عَلَى قَضَاءِ اللهِ وَقَدَرِهِ، وَارْجِعْ إِلَى قِتَالِ عَدُوِّكَ، فَإِنَّكَ لَا تُمْسِي حَتَّى تَلْقَى الْأَحِبَّةَ: مُحَمَّدًا وَحِزْبَهُ. تَلْقَى جَدَّكَ الْمُصْطَفَى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وَالسَّابِقِينَ الَّذِينَ مَاتُوا دِفَاعًا عَنِ الْحَقِّ، وَاسْتَعْذَبُوا طَعْمَ الشَّهَادَةِ طَمَعًا بِجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ.

نَزَلَتْ كَلِمَاتُ «الْحُسَيْنِ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مِنْ قَلْبِ «عَلِيٍّ الْأَكْبَرِ» نُزُولَ وَابِلٍ مِنَ الْمَطَرِ عَلَى الْأَرْضِ الْعَطْشَى، فَعَادَ إِلَى مُقَارَعَةِ الْفُرْسَانِ وَمُنَازَلَةِ

الْأَعْدَاءِ، وَهُوَ أَقْوَى مِنْ قَبْلُ وَأَشَدُّ.

فَقَتَلَ مِنْهُمُ الْعَـدَدَ الْكَبِيرَ، يَكِرُّ عَلَيْهِمْ فَلَا يَجْسُـرُونَ عَلَى مُجَابَهَتِهِ، وَيَفِرُّونَ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ.

وَلَقَدْ ذَكَرَ بَعْضُ الْمُؤَرِّخِينَ أَنَّ خَوْفَ الْفُرْسَـانِ مِنْهُ، وَعَدَمَ إِقْدَامِهِمْ عَلَى مُوَاجَهَتِهِ كَوْنَهُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ شَـبِيهَ جَدِّهِ رَسُـولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، فَمَا إِنْ يَقْتَرِبْ مِنْهُ أَحَدُهُمْ حَتَّى يَنْكَفِئَ عَنْهُ وَقَدْ بَدَا لَهُ وَجْهُ الْمُصْطَفَى صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ.

كَمَا أَنَّ فِيهِ شَـجَاعَةَ الْإِمَامِ «عَلِيٍّ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وَإِقْدَامَهُ وَفُرُوسِيَّتَهُ، وَلِهَذَا كُلِّهِ كَانَتْ آمَالُ «الْحُسَيْنِ» وَأَهْلِ بَيْتِهِ مَعْقُودَةً عَلَى «عَلِيٍّ الْأَكْبَرِ» فِي أَنْ يَرُدَّ عَنْهُمْ أَقْصَى مَا يَتَعَرَّضُونَ لَهُ مِنَ الْأَذَى.

وَلَكِنَّ اللهَ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ...

وَحَيْـثُ إِنَّهُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَـدْ قَتَلَ مِنَ الْقَوْمِ مَقْتَلَـةً عَظِيمَةً، حَمَلُوا عَلَيْهِ حَمْلَةً وَاحِدَةً، ثُمَّ انْحَازُوا عَنْهُ بِاتِّجَاهِ مُخَيَّمِ «الْحُسَيْنِ» وَأَهْلِ بَيْتِهِ، فَوَقَفَ دُونَهُمْ يَحْمِي عَنْ أَهْلِ بَيْتِهِ، وَيَصُدُّهُمْ عَنْ هَدَفِهِمْ، ثُمَّ غَدَرَهُ «مُرَّةُ ابْـنُ مُنْقِذِ بْنِ النُّعْمَانِ الْعَبْدِيِّ» مِنْ بَنِي «عَبْدِ الْقَيْسِ» وَطَعَنَهُ مِنَ الْخَلْفِ فِي ظَهْرِهِ! فَخَرَّ عَلَى فَرَسِـهِ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَسْـقُطْ إِلَى الْأَرْضِ، وَاعْتَنَقَ رَقَبَةَ جَوَادِهِ، فَانْهَالُوا عَلَيْهِ بِالسُّـيُوفِ يُمَزِّقُونَ بِهَا الْجَسَدَ الطَّاهِرَ، وَهُنَا نَادَى رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَبَاهُ مُوَدِّعًا وَقَالَ:

ـ عَلَيْكَ مِنِّي السَّــلَامُ يَا أَبَاهُ، هَذَا جَدِّي رَسُــولُ اللهِ قَدْ سَقَانِي شَرْبَةً لَا أَظْمَأُ بَعْدَهَا أَبَدًا.

ثُمَّ حَمَلَهُ جَوَادُهُ بِاتِّجَاهِ مُعَسْــكَرِ الْأَعْدَاءِ حَيْثُ سَقَطَ أَرْضًا، فَأَمْعَنُوا فِيهِ طَعْنًا وَضَرْبًا حَتَّى قَطَّعُوهُ إِرْبًا إِرْبًا!!

فَأَسْرَعَ «الْحُسَــيْنُ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فَحَمَلَ عَلَيْهِمْ حَتَّى فَرَّقَهُمْ عَنْهُ، ثُمَّ احْتَضَنَ رَأْسَــهُ الْمُعَفَّرَ بِالدَّمِ وَالتُّرَابِ وَوَضَعَــهُ فِي حِجْرِهِ وَذَرَفَ أَغْلَى الدُّمُوعِ وَقَالَ:

ـ عَــلَى الدُّنْيَا بَعْدَكَ الْعَفَاءُ يَا بُنَيَّ. قَاتَلَ اللهُ قَوْمًا قَتَلُوكَ، مَا أَجْرَأَهُمْ عَلَى اللهِ وَانْتِهَاكِ حُرْمَةِ نَبِيِّهِ!

وَبَيْنَمَا «الْحُســيْنُ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فِي مُنَاجَاتِــهِ وَبُكَائِهِ، إِذْ أَقْبَلَتْ أُخْتُهُ «زَيْنَبُ» رَضِيَ اللهُ عَنْهَا مُسْرِعَةً تُنَادِي:

ـ يَا حَبِيبَاهُ... يَا ابْنَ أَخَاهُ.

حَتَّــى أَتَتْ مَصْرَعَ «عَلِيٍّ الْأَكْبَرِ»، وَانْكَبَّتْ عَلَى جَسَــدِهِ الطَّاهِرِ تُقَبِّلُهُ وَتَغْسِلُ وَجْهَهُ بِدُمُوعِهَا، كَمَا رَاحَتْ تَجْمَعُ مَا تَنَاثَرَ مِنْ أَعْضَائِهِ.

ثُمَّ أَخَذَ «الْحُسَيْنُ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بِيَدِهَا، كَمَا احْتَمَلَ وَلَدَهُ الشَّهِيدَ إِلَى مُخَيَّمِهِ حَيْثُ وَضَعَهُ عِنْدَ بَابِ الْفُسْــطَاطِ، وَكَأَنِّي بِسَيِّدِ الشُّهَدَاءِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يُوَدِّعُ «عَلِيًّا الْأَكْبَرَ» فَيَقُولُ:

يَا كَـــوْكَبًا مَـا كَـانَ أَقْصَـــرَ عُمْـرِهِ

وَكَـــذَا تَكُـــونُ كَـــوَاكِبُ الْأَسْحَـارِ

لَقَدْ كَانَت أَيَّامُهُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فِي الْحَيَاةِ مَحْدُودَةً، وَكَانَ عُمْرُهُ قَصِيرًا، إِلَّا أَنَّهُ تَرَكَ فِي سِجِلِّ التَّارِيخِ صَفْحَةً وَضَّاءَةً تَفِيضُ إِشْرَاقًا وَبَهَاءً وَقُدْسِيَّةً، وَذَلِكَ بِمَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ مِنْ عَظِيمِ التَّضْحِيَةِ وَرَوْعَةِ الْفِدَاءِ.

رَحِمَ اللهُ «عَلِيًّا الْأَكْبَرَ» وَرَضِيَ عَنْهُ، وَأَنْزَلَهُ مُنْزَلًا مُبَارَكًا فِي جَنَّةِ نَعِيمٍ، وَأَلْحَقَنَـا بِهِ فِي الصَّالِحِينَ مِـنْ عِبَادِهِ، وَجَعَلَنَا جُنْـدًا لِلْحَقِّ نَقْتَبِسُ مِنْ «حُسَيْنٍ» دَرْسًـا، وَمِنْ أَصْحَابِهِ مَوْعِظَةً وَعِبْرَةً، وَمِنْ بَنِيهِ وَعَلَى رَأْسِهِمْ «عَلِيٌّ الْأَكْبَرُ» قُدْوَةً وَمَثَلًا. آمِينَ.

دِمَاءُ الطَّالِبِيِّينَ

هَذِهِ كَلِمَةٌ لَا بُدَّ مِنْهَا ...

أَتَوَجَّهُ بِهَا إِلَى كُلِّ مُسْلِمٍ وَإِلَى كُلِّ مُؤْمِنٍ.

إِنَّ دِمَاءَ «الْحُسَيْنِ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَدِمَاءَ أَصْحَابِهِ وَأَهْلِهِ الَّتِي أُهْرِيقَتْ يَوْمَ «الطَّفِّ» فَوْقَ أَرْضِ «كَرْبَلَاءَ» هِيَ مِشْعَلُ هِدَايَةٍ وَمِصْبَاحُ ضِيَاءٍ.

حِيـــنَ تَدْلَهِمُّ اللَّيَالِي وَالْحَوَالِكُ، وَتُظْلِمُ بِسَـــوَادِهَا الشَّـــدِيدِ، فَتَعْمَى عَلَيْنَا الطُّرُقُ، وَتُسَـــدُّ عَلَيْنَا الْمَسَالِكُ، وَتُغَلَّقُ عَلَيْنَا الْأَبْوَابُ، لَا نَجِدُ إِلَّا

قَبَسَ دِمَاءِ «الْحُسَيْنِ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَدِمَاءِ أَهْلِهِ وَأَصْحَابِهِ تُبَدِّدُ الظُّلْمَةَ، وَتَهْتِكُ حُجُبَ وَأَسْتَارَ الدَّيْجُورِ.

إِنَّهَا الْحَرَكَةُ التَّصْحِيحِيَّةُ الْأُولَى فِي تَارِيخِ الْإِسْلَامِ تَتَصَدَّى لِلِانْحِرَافِ، وَتَقِفُ فِي وَجْهِ الطُّغْيَانِ، لِتَقُولَ لَهُ بِالْفَمِ الْمَلْآنِ دُونَ تَلَجْلُجٍ أَوْ تَلَعْثُمٍ:

أَيُّهَا الطَّاغِيَـــةُ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ، نَحْنُ لَكَ بِالْمِرْصَادِ، لَقَدْ أَسَـــلْنَا دِمَاءَنَا حُبًّا بِالْحَقِّ وَذَوْدًا عَنْهُ، وَكُفْرًا بِالْبَاطِلِ وَدَحْضًا لَهُ، وَوَهَبْنَا أَرْوَاحَنَا مِنْ أَجْلِ الْعَدْلِ وَإِيمَانًا بِهِ، وَشَجْبًا لِلْبَاطِلِ وَدَفْعًا لَهُ.

مِشْعَلُنَا هَذَا مُضِيءٌ أَبَدًا...

يَلْتَهِبُ فِي نُفُوسِ الْأَحْرَارِ وَيَتَّقِدُ فِي أَرْوَاحِهِمْ فِي ذَرَّاتِ كِيَانِهِمْ.

نَحْنُ النُّورُ وَالنَّارُ...

نُورٌ لِلْإِنْسَانِ... وَنَارٌ عَلَى الشَّيْطَانِ.

❊❊❊

الْقَاسِمُ بْنُ الْحَسَنِ

رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا

قَالَ اللهُ تَعَالَى:

﴿ ذُرِّيَّةَۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾.

❋❋❋

وَرُوِيَ عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قَوْلُهُ عَنِ السِّبْطَيْنِ «الْحَسَنِ وَالْحُسَيْنِ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا:

«هَذَانِ ابْنَايَ، مَنْ أَحَبَّهُمَا فَقَدْ أَحَبَّنِي، وَمَنْ أَبْغَضَهُمَا فَقَدْ أَبْغَضَنِي».

❋❋❋

وَقَالَ الْإِمَامُ «عَلِيٌّ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ:

مُحَمَّدٌ النَّبِيُّ أَخِي وَصِهْرِي

وَحَمْزَةُ سَيِّدُ الشُّهَدَاءِ عَمِّي

وَجَعْفَـــرٌ الَّذِي يُمْـــسِي وَيُضْـحِي

يَطِـيرُ مَـــعَ الْمَـلَائِكَـــةِ ابْـنُ أُمِّي

وَبِنْـــتُ مُحَمَّـدٍ سَكَـــنِي وَعِـرْسِي

مَنُـــوطٌ لَحْمُـهَا بِـــدَمِي وَلَحْـمِي

وَسِـــبْطَا أَحْـمَـدَ وَلَـــدَايَ مِنْـهَا

فَـأَيُّكُـــمُ لَـهُ سَـهْـــمٌ كَسَهْـمِي؟

سَبَقْـتُـكُـــمُ إِلَى الْإِسْـــلَامِ طُـرًّا

صَغِـــيرًا مَا بَلَغْـــتُ أَوَانَ حُلْـــمِي

***

وَقَالَ «الْحَسَنُ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وَقَدْ كَانَ ذَلِكَ مَنْقُوشًا عَلَى خَاتَمِهِ:

قَدِّمْ لِنَفْسِـكَ مَا اسْـتَطَعْتَ مِنَ التُّقَى

إِنَّ الْمَـنِيَّـــةَ نَـــازِلٌ بِـــكَ يَا فَـتَى

أَصْبَحْـــتَ ذَا فَـرَحٍ كَأَنَّـــكَ لَا تَرَى

أَحْـبَابَ قَـــلْبِكَ فِي الْمَقَـــابِرِ وَالْبِلَى

***

تَوْطِئَةٌ

رُوِيَ عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الْإِمَامِ «عَلِيٍّ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَوْلُهُ:

كَانَ «الْحَسَنُ» أَشْبَهَ بِرَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ مِنْ وَجْهِهِ إِلَى سُرَّتِهِ.

وَلَقَدْ سَرَتْ تِلْكَ الْوَسَامَةُ وَذَلِكَ الْبَهَاءُ وَالْجَلَالُ مِنَ «الْحَسَنِ» إِلَى وَلَدِهِ «الْقَاسِمِ»، رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

كَمَا أَخَذَ «الْقَاسِمُ» عَنْ وَالِدِهِ رِقَّةَ الطَّبْعِ وَدَمَاثَةَ الْخُلُقِ، وَلِينَ الْجَانِبِ.

وَحِينَ حَضَرَتِ الْوَفَاةُ «الْحَسَنَ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وَقَدْ سَرَى دَبِيبُ السُّمِّ فِي جِسْمِهِ مَسْرَى النَّارِ فِي الْهَشِيمِ، وَبَيْنَمَا هُوَ يُعَالِجُ سَكَرَاتِ الْمَوْتِ، أَوْصَى أَخَاهُ «الْحُسَيْنَ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنْ يَعْقِدَ بَيْنَ «الْقَاسِمِ» وَبَيْنَ «سُكَيْنَةَ»...

فَخَطَبَهَا مِنْ أَبِيهَا «الْحُسَيْنِ» وَهُوَ عَلَى فِرَاشِ الْمَوْتِ...

فَأَجَابَ «حُسَيْنٌ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَخَاهُ بِالْإِيجَابِ، وَهُوَ يَهُزُّ رَأْسَهُ عَلَامَةَ الْمُوَافَقَةِ؛ لِأَنَّ الْعَبَرَاتِ وَالدُّمُوعَ مَنَعَتْهُ مِنَ الْكَلَامِ.

وَوُرِيَ «الْحَسَنُ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مَدْفَنَهُ بَيْنَ نَوْحِ النَّائِحَاتِ، وَنَدْبِ النَّادِبَاتِ، وَعَوِيلِ بَنِي هَاشِمٍ وَبُكَائِهِمْ.

وَتَذْكُرُ كُتُبُ التَّارِيخِ وَمَصَادِرُهُ بِأَنَّ ذَلِكَ الْيَوْمَ كَانَ مَشْهُودًا فِي الْمَدِينَةِ، وَكَانَتْ فَتْرَةُ حِدَادِ بَنِي هَاشِمٍ عَلَى «الْحَسَنِ» سَنَةً كَامِلَةً؛ وَذَلِكَ لِمَا كَانَ يَتَمَتَّعُ بِهِ مِنْ مَقَامٍ مَرْمُوقٍ وَمَرْكَزٍ مَلْحُوظٍ بَيْنَهُمْ، بَلَغَهُ بِالْحَسَبِ الرَّفِيعِ وَالْخُلُقِ الْعَظِيمِ وَالْعِلْمِ الْغَزِيرِ.

وَكَانَ الْإِمَامُ «الْحُسَيْنُ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بَعْدَ ذَلِكَ نِعْمَ الْوَصِيُّ عَلَى تُرَاثِ «الْحَسَنِ»، إِنْ مِنْ نَاحِيَةِ الْأَهْلِ أَوْ مِنْ نَاحِيَةِ الْمَعَانِي وَالْقِيَمِ.

وَلَقَدِ اتَّخَذَ مِنَ «الْقَاسِمِ بْنِ الْحَسَنِ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا وَلَدًا لَهُ، يُكْرِمُهُ غَايَةَ الْإِكْرَامِ، وَيَحْنُو عَلَيْهِ أَسْمَى الْحُنُوِّ، وَيُوَجِّهُهُ إِلَى أَقْوَمِ السُّبُلِ.

كَمَا كَانَ «الْقَاسِمُ» مِنْ نَاحِيَتِهِ مُحِبًّا لِعَمِّهِ، مُعَظِّمًا لَهُ، مُعْجَبًا بِجُرْأَتِهِ وَصَلَابَتِهِ، وَقُوَّةِ عَقِيدَتِهِ وَإِيمَانِهِ، يَتَرَسَّمُ خُطَاهُ، وَيَنْتَهِجُ نَهْجَهُ.

وَلَقَدْ كَانَتِ الْأَحْدَاثُ الْجِسَامُ الَّتِي تَلَتْ وَفَاةَ «الْحَسَنِ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وَالَّتِي كَانَتْ مَصِيرِيَّةً بِالنِّسْبَةِ إِلَى تَارِيخِ الْأُمَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ، أَشَدَّ وَأَقْوَى مِنْ كُلِّ شَأْنٍ خَاصٍّ وَأَمْرٍ شَخْصِيٍّ قَدْ يَخْطُرُ فِي بَالِ الْمَرْءِ.

لِهَذَا شُغِلَ الْإِمَامُ «أَبُو عَبْدِ اللهِ الْحُسَيْنُ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنْ وَصِيَّةِ أَخِيهِ «الْحَسَنِ» بِتَزْوِيجِ «الْقَاسِمِ» مِنْ «سُكَيْنَةَ»، مُضَافًا إِلَى ذَلِكَ صِغَرُ سِنِّ «الْقَاسِمِ» وَتَطَلُّعُهُ إِلَى مَا هُوَ أَخْطَرُ وَأَهَمُّ مِنَ الزَّوَاجِ؛ إِذْ كَانَ يَرَى وَيَسْمَعُ وَيُبَاشِرُ الْأَحَادِيثَ وَالْأَحْدَاثَ الْخَطِيرَةَ الَّتِي تَعْصِفُ بِكِيَانِ الْمُسْلِمِينَ.

❋❋❋

وَمَرَّتِ الْأَيَّامُ وَتَلَتْهَا الشُّـــهُورَ، وَمَاتَ «مُعَاوِيَةُ بْنُ أَبِي سُفْيَانَ»، وَكَانَ قَدْ أَخَـــذَ الْبَيْعَةَ لِابْنِهِ «يَزِيدَ» أَثْنَاءَ حَيَاتِهِ، وَأَكْـــرَهَ النَّاسَ عَلَيْهَا رَهْبَةً مِنْ سُلْطَانِهِ وَبَطْشِهِ، أَوْ رَغْبَةً فِي عَطَايَاهُ وَأَمْوَالِهِ.

وَلَمْ يَشَـــإِ «الْحُسَيْنُ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنْ يُبَايِعَ لِفَاسِقٍ، وَتَرَكَ الْمَدِينَةَ إِلَى مَكَّـــةَ، وَهُنَاكَ تَوَاتَرَتْ عَلَيْهِ كُتُبُ أَهْلِ الْكُوفَـــةِ تُبَايِعُهُ، وَتُؤَكِّدُ لَهُ الْوَفَاءَ وَالْقِيَامَ عَلَى الْعَهْدِ، وَتَدْعُوهُ إِلَيْهَا لِيَكُونَ فِي مَنَعَةٍ وَقُوَّةٍ.

وَلَمْ يَتَرَدَّدْ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، فَأَرْسَلَ ابْنَ عَمِّهِ «مُسْلِمَ بْنَ عَقِيلٍ» لِيَسْتَوْثِقَ لَهُ، ثُمَّ يَبْعَثَ إِلَيْهِ بِالْحُضُورِ إِنْ رَأَى الصِّدْقَ فِي أَقْوَالِ النَّاسِ وَالثَّبَاتَ عَلَى الْمَبْدَإِ.

وَصَلَ «مُسْـــلِمٌ» إِلَى الْكُوفَةِ، فَاجْتَمَعَ النَّاسُ عَلَيْهِ وَبَايَعُوا «الْحُسَيْنَ» رَضِـــيَ اللهُ عَنْهُ ، فَأَرْسَـــلَ إِلَى مَكَّةَ يَدْعُوهُ لِلْحُضُورِ، لَكِـــنَّ أَهْلَ الْكُوفَةِ نَقَضُوا الْعَهْدَ الَّذِي قَطَعُوهُ عَلَى أَنْفُسِـــهِمْ ـ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ ـ بَعْدَ حُضُورِ «ابْنِ زِيَادٍ» إِلَيْهَا، فَقُتِلَ «مُسْلِمُ بْنُ عَقِيلٍ» وَ«هَانِئُ بْنُ عُرْوَةَ» وَ«قَيْسُ بْنُ مُسْهِرٍ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ.

وَلَمْ تَصِلْ أَنْبَاءُ الْفَاجِعَةِ إِلَى «الْحُسَـــيْنِ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، إِلَّا وَكَانَ قَدْ أَصْبَحَ فِي الطَّرِيقِ إِلَى الْكُوفَةِ هُوَ وَأَهْلُـــهُ وَأَصْحَابُهُ وَأَتْبَاعُهُ، مَارًّا بِمَدِينَةِ جَدِّهِ الْمُصْطَفَى صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ، مُسْتَأْذِنًا مُوَدِّعًا.

فَاسْتَعَاذَ بِاللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَاحْتَسَبَ إِخْوَانَهُ السَّابِقِينَ عِنْدَ اللهِ الَّذِي لَا تَضِيعُ لَدَيْهِ الْحُقُوقُ، وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ، وَأَعْلَنَ عَلَى النَّاسِ النَّبَأَ، وَتَرَيَّثَ فِي أَمْرِ مُتَابَعَةِ السَّيْرِ.

فَقَالَ «بَنُو عَقِيلٍ»:

- لَا بُدَّ مِنَ الْأَخْذِ بِالثَّأْرِ، أَوْ نَلْحَقَ بِأَبِينَا كِرَامًا أَعِزَّةً.

فَلَمْ يَرَ بُدًّا مِنَ الْمُوَافَقَةِ، ثُمَّ أَعْذَرَ النَّاسَ؛ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَوْدَةَ غَانِمًا سَالِمًا فَلَا بَأْسَ عَلَيْهِ وَلَا حَرَجَ، أَمَّا نَحْنُ فَإِنَّهُ قَدَرُنَا أَنْ تَكُونَ حَيَاتُنَا جِهَادًا وَجِلَادًا وَخَاتِمَتُهَا شَهَادَةً وَ... جَنَّةً. فَرَجَعَ أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَمْ يَبْقَ مَعَهُ إِلَّا الْقَلِيلُ... أَهْلُ بَيْتِهِ وَبَعْضُ أَصْحَابِهِ وَإِخْوَانِهِ.

***

وَكَانَ «الْقَاسِمُ» فَتًى فِي مُقْتَبَلِ الْعُمْرِ، وَفِيهِ حَمَاسُ الشَّبَابِ، تَغْلِي الدِّمَاءُ فِي عُرُوقِهِ، وَتَشْرَئِبُّ الْمَبَادِئُ وَالْقِيَمُ نَظَرَاتٍ حَادَّةً تَنْطَلِقُ مِنْ عَيْنَيْهِ.

لَمْ تَرْوِ كُتُبُ التَّارِيخِ قَوْلًا مَأْثُورًا لَهُ فِي هَذَا الْمَوْقِفِ، وَلَكِنِّي لَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَمُرَّ بِالْأَمْرِ مُرُورًا دُونَ أَنْ أَقُولَ: إِنَّ مَنْ كَانَ فِي مَرْكَزِ «الْقَاسِمِ» نَسَبًا، وَمَوْقِعًا اجْتِمَاعِيًّا وَسِيَاسِيًّا، وَحَيَوِيَّةَ شَبَابٍ مُتَدَفِّقَةً، وَلُصُوقًا بِإِمَامِ الشُّهَدَاءِ، سَيِّدِ شَبَابِ أَهْلِ الْجَنَّةِ «الْحُسَيْنِ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مِنْ مَوْقِعِهِ هَذَا، لَا يُمْكِنُ وَلَا يُعْقَلُ أَنْ يَصْمُتَ وَيَسْكُتَ، لَا بُدَّ وَأَنْ يُكَونَ قَدْ قَالَ مَقَالَةً ضَاعَتْ فِي زَحْمَةِ التَّارِيخِ وَبَيْنَ أَسْفَارِهِ الْمَطْوِيَّةِ.

هَــلْ يَصْمُتُ الَّذِي تَكَلَّمَ بِسَــيْفِهِ يَوْمَ «الطَّفِّ»، ثُمَّ خَــطَّ بِدَمِهِ نِهَايَةَ حَيَاتِهِ؟! مَعَاذَ اللهِ...

وَمَضَى الرَّكْبُ فِي سَــبِيلِهِ، ثُمَّ حَطَّ رِحَالَهُ فِي كَرْبَــلَاءَ، وَأَحَاطَ بِالنَّفَرِ الْقَلِيلِ الْجُنْدُ الْكَثِيرُ، فَمَنَعُوا عَنْهُمُ الْمَاءَ، وَسَدُّوا عَلَيْهِمُ الْمَنَافِذَ وَالسُّبُلَ، وَحَالُوا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ النَّجَــاةِ، وَأَرْغَمُوهُمْ عَلَى الْقِتَالِ، وَقَدْ صَمُّوا آذَانَهُمْ عَنْ كُلِّ نِدَاءٍ وَاسْتِغَاثَةٍ، وَعَمِيَتْ عُيُونُهُمْ عَنْ رُؤْيَةِ الْحَقِّ.

وَتَكَاثَرَ الْقَتْلُ وَالْقَتْلَى فِي صُفُوفِ الْإِمَامِ «الْحُسَيْنِ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وَلَمْ يَبْقَ مَعَهُ إِلَّا أَهْلُ بَيْتِهِ وَقَدِ افْتَدَاهُ أَصْحَابُهُ فَمَاتُوا دُونَهُ وَذَوْدًا عَنْهُ...

ثُمَّ أَخَذَ الْقَتْلُ يَسْتَعِرُ فِي أَهْلِ بَيْتِهِ، فَقَضَى «عَلِيٌّ الْأَكْبَرُ»، وَ«الْعَبَّاسُ بْنُ عَلِيٍّ»، وَأَوْلَادُ «جَعْفَرَ بْنِ أَبِي طَالِبٍ»، وَأَبْنَاءُ «مُسْلِمِ بْنِ عَقِيلٍ»...

وَبَيْنَمَا كَانَ الْإِمَامُ «الْحُسَــيْنُ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فِي هَمِّهِ الْعَظِيمِ وَنِضَالِهِ الْمَجِيدِ، يُوَارِي هَذَا.. وَيُوَاسِي ذَاكَ.. وَيَأْسَى لِذَلِكَ.. وَيُعَزِّي تِلْكَ..إِذَا بِـ «الْقَاسِمِ» يَأْتِي إِلَى عَمِّهِ مُسْتَأْذِنًا بِالْمُبَارَزَةِ، فَنَظَرَ إِلَيْهِ وَحَدَّقَ، ثُمَّ دَمَعَتْ عَيْنَاهُ وَلَمْ يَأْذَنْ لَهُ، وَتَذَكَّرَ عِنْدَئِذٍ أَخَاهُ «الْحَسَنَ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَوَصِيَّتَهُ لَهُ بِتَزْوِيجِ «الْقَاسِمِ» مِنْ «سُكَيْنَةَ»، فَاشْتَدَّ حُزْنُهُ، وَتَضَاعَفَ أَلَمُهُ، ثُمَّ عَقَدَ لِـ «الْقَاسِمِ» عَلَى «سُكَيْنَةَ» سَرِيعًا، لَكِنَّ «الْقَاسِمَ» لَمْ يَجْلِسْ عِنْدَهَا، وَلَمْ يَضُمَّهُمَا فِرَاشٌ وَاحِدٌ.

وَأَصَرَّ «الْقَاسِمُ» ـ وَقَدْ نَفَّذَ رَغْبَةَ أَبِيهِ وَعَمِّهِ ـ عَلَى الْمُبَارَزَةِ وَالْقِتَالِ، فَلَمْ يَرَ

«الْحُسَيْنُ» بُدًّا مِنَ الْمُوَافَقَةِ، فَوَدَّعَهُ وَهُوَ دَامِعُ الْعَيْنِ حَزِينُ الْقَلْبِ وَالنَّفْسِ.

وَتَعَلَّقَتْ نِسَاءُ بَنِي هَاشِمٍ بِثَوْبِ «الْقَاسِمِ» تَرُدُّهُ وَتَمْنَعُهُ، فَلَمْ يَسْتَجِبْ لَهُنَّ، وَمَضَى فِي سَبِيلِهِ.. حَيْثُ عُرْسُ الدَّمِ.

تَوَسَّطَ الْمَيْدَانَ، وَأَخَذَ يَرْتَجِزُ وَيُنْشِدُ:

إِنْ تُنْكِرُونِي فَأَنَا نَجْلُ الْحَسَنْ سِبْطُ النَّبِيِّ الْمُصْطَفَى وَالْمُؤْتَمَنْ

هَذَا «حُسَيْنٌ» كَالْأَسِيرِ الْمُرْتَهَنْ بَيْنَ أُنَاسٍ لَا سُقُوا صَوْبَ الْمُزَنْ

وَلْنَدَعِ الْآنَ لِلتَّارِيخِ يَرْوِي بِلِسَانِ صِدْقٍ خَبَرَ اسْتِشْهَادِ «الْقَاسِمِ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ؛ قَالَ «حُمَيْدُ بْنُ مُسْلِمٍ» وَقَدْ حَضَرَ الْوَاقِعَةَ:

- «ثُمَّ خَرَجَ إِلَيْنَا غُلَامٌ كَانَ وَجْهُهُ شَقَّةَ قَمَرٍ، فِي يَدِهِ السَّيْفُ، عَلَيْهِ قَمِيصٌ وَإِزَارٌ وَنَعْلَانِ، وَقَدِ انْقَطَعَ شِسْعُ أَحَدِهِمَا ـ مَا أَنْسَى أَنَّهَا الْيُسْرَى ـ فَقَالَ لِي عَمْرُو بْنُ سَعْدِ بْنِ نُفَيْلٍ الْأَزْدِيِّ:

- وَاللهِ لَأَشُدَّنَّ عَلَيْهِ.

فَقُلْتُ لَهُ:

- سُبْحَانَ اللهِ!! وَمَا تُرِيدُ إِلَى ذَلِكَ؟!! يَكْفِيكَ قَتْلُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ تَرَاهُمْ قَدِ احْتَوَوْهُمْ.

فَقَالَ:

- وَاللهِ لَأَشُدَّنَّ عَلَيْهِ.

فَشَدَّ عَلَيْهِ، فَمَا وَلَّى حَتَّى ضَرَبَ رَأْسَهُ بِالسَّيْفِ، فَوَقَعَ الْغُلَامُ لِوَجْهِهِ، فَقَالَ:

ـ يَا عَمَّاهُ!!!

فَجَلَّى «الْحُسَيْنُ» كَمَا يُجَلِّي الصَّقْرُ، ثُمَّ شَدَّ شَدَّةَ لَيْثٍ غَضِبٍ، فَضَرَبَ «عَمْرًا» بِالسَّيْفِ، فَاتَّقَاهُ بِالسَّاعِدِ، فَأَطَنَّهَا مِنْ لَدُنِ الْمِرْفَقِ، فَصَاحَ، فَتَنَحَّى عَنْهُ، وَحَمَلَتْ خَيْلٌ لِأَهْلِ الْكُوفَةِ لِيَسْتَنْقِذُوا «عَمْرًا» مِنْ «حُسَيْنٍ»، فَاسْتَقْبَلَتْ «عَمْرًا» بِصُدُورِهَا، فَحَرَّكَتْ حَوَافِرَهَا، وَجَالَتِ الْخَيْلُ بِفُرْسَانِهَا عَلَيْهِ، فَوَطِئَتْهُ حَتَّى مَاتَ.

وَانْجَلَتِ الْغَبْرَةُ فَإِذَا أَنَا بِـ «الْحُسَيْنِ» قَائِمٌ عَلَى رَأْسِ الْغُلَامِ، وَالْغُلَامُ يَفْحَصُ بِرِجْلَيْهِ، وَ«حُسَيْنٌ» يَقُولُ:

ـ بُعْدًا لِقَوْمٍ قَتَلُوكَ! وَمَنْ خَصْمُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيكَ؟: جَدُّكَ.

ثُمَّ قَالَ:

ـ عَزَّ وَاللهِ عَلَى عَمِّكَ أَنْ تَدْعُوَهُ فَلَا يُجِيبُكَ، أَوْ يُجِيبُكَ ثُمَّ لَا يَنْفَعُكَ!! صَوْتٌ وَاللهِ كَثُرَ وَاتِرُهُ، وَقَلَّ نَاصِرُهُ.

ثُمَّ احْتَمَلَهُ، فَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى رِجْلَيِ الْغُلَامِ يَخُطَّانِ فِي الْأَرْضِ، وَقَدْ وَضَعَ «حُسَيْنٌ» صَدْرَهُ عَلَى صَدْرِهِ. قَالَ «حُمَيْدٌ»:

ـ فَقُلْتُ فِي نَفْسِي: مَا يَصْنَعُ بِهِ؟!

فَجَاءَ بِهِ حَتَّى أَلْقَاهُ مَعَ ابْنِهِ «عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ»، وَقَتْلَى قَدْ قُتِلَتْ حَوْلَهُ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ، فَسَأَلْتُ عَنِ الْغُلَامِ، فَقِيلَ لِي: هُوَ «الْقَاسِمُ بْنُ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ».

وَهَكَذَا اسْتُشْهِدَ الْفَتَى الْغُلَامُ، زَيْنُ الشَّبَابِ، وَعَرِيسُ كَرْبَلَاءَ «الْقَاسِمُ

ابْنُ الْحَسَنِ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

لَقَدْ آلَى عَلَى نَفْسِهِ مُنْذُ أَنْ فَارَقَ أَبُوهُ الدُّنْيَا، وَأَصْبَحَ فِي رِعَايَةِ وَكَنَفِ عَمِّهِ «الْحُسَيْنِ» أَنْ يَكُونَ لِلْحَقِّ قَوَّالًا وَلِلْعَدْلِ فَعَّالًا وَلِلْهَيْجَاءِ نَزَّالًا...

لَا يَرْهَبُ الْمَوْتَ وَلَا يَخْشَى الْأَسِنَّةَ، يَرْغَبُ الْآخِرَةَ وَلَا يَبْكِي عَلَى الدُّنْيَا...

إِنَّهَا الدُّنْيَا الَّتِي قَالَ لَهَا جَدُّهُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ الْإِمَامُ «عَلِيٌّ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ:

- يَا دُنْيَا غُرِّي غَيْرِي...

لَمْ يَكُنْ آلُ الْبَيْتِ طُلَّابَ دُنْيَا، وَمُحِبِّي سُلْطَانٍ، بَلْ كَانُوا رُوَّادَ حَقٍّ وَعَدْلٍ، مَنَحُوا وُجُودَ أُمَّةِ الْإِسْلَامِ أَصْدَقَ وَأَسْمَى الْأَمْثِلَةِ، وَمَهَرُوا اسْتِمْرَارِيَّتَهَا وَخُلُودَهَا بِدِمَائِهِمُ الزَّكِيَّةِ الطَّاهِرَةِ، وَأَضَاءُوا لَهَا بِأَرْوَاحِهِمْ سُبُلَ الرِّفْعَةِ وَالْمَجْدِ.

وَمَا «الْقَاسِمُ بْنُ الْحَسَنِ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا إِلَّا سَيْفٌ مِنْ سُيُوفِ الْحَقِّ جُرِّدَ مِنْ غِمْدِهِ، وَسُلَّ مِنْ قِرَابِهِ، فَلَمَعَ كَالشِّهَابِ الْمُضِيءِ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ الْمُظْلِمِ: يَوْمِ كَرْبَلَاءَ؛ يَوْمٍ مُظْلِمٍ عَلَى أَعْوَانِ الْبَاطِلِ، مُشِعٍّ بِالنُّورِ الْوَهَّاجِ السَّاطِعِ لِأَعْوَانِ الْحَقِّ وَأَصْحَابِهِ.

رَحِمَ اللهُ «الْقَاسِمَ بْنَ الْحَسَنِ»، وَأَسْكَنَهُ فَسِيحَ جَنَّاتِهِ؛ وَرَحِيبَ رِضْوَانِهِ، وَأَنْزَلَهُ مِنْ نَعِيمِهِ أَسْمَى الْمَنَازِلِ وَأَرْفَعَهَا.

﴿ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾.

الْعَبَّاسُ بْنُ عَلِيٍّ

«رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا»

قَالَ اللهُ تَعَالَى:

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴾.

***

وَقَالَ رَسُولُ اللهِ «صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ»:

«إِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ؛ فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ».

***

وَقَالَ الْإِمَامُ «عَلِيٌّ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ:

«مَا بَيْنَ أَحَدِكُمْ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ أَوِ النَّارِ إِلَّا الْمَوْتُ أَنْ يَنْزِلَ بِكُمْ».

نَسَبُهُ وَنَشْأَتُهُ

هُوَ: الْعَبَّاسُ بْنُ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ بْنِ هَاشِـــمٍ، وَأُمُّهُ أُمُّ الْبَنِينَ بِنْتُ الْمَحَلِّ بْنِ خَالِدِ بْنِ رَبِيعَةَ بْنِ كَعْبِ بْنِ عَامِرِ بْنِ كِلَابٍ.

❊❊❊

بَعْدَ سِتَّةِ أَشْـــهُرٍ مِنِ انْتِقَالِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ إِلَى الرَّفِيقِ الْأَعْلَى، تُوُفِّيَتِ الزَّهْرَاءُ «رَضِـــيَ اللهُ عَنْهَا» مُعَجِّلَةً اللِّقَاءَ بِأَبِيهَا فِي جِوَارِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وَلَقَدْ كَانَ حُـــزْنُ الْإِمَامِ «عَلِيٍّ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لِوَفَاتِهَا شَـــدِيدًا مُؤَثِّرًا، فَأَقَـــامَ عَلَى الْوَفَاءِ لِذِكْرَاهَا زَمَنًا طَوِيلًا، لَا تُحَرِّكُهُ رَغْبَةٌ إِلَى النِّسَـــاءِ، وَلَا تَدْفَعُهُ إِلَيْهِنَّ شَهْوَةٌ.

أَضِفْ إِلَى ذَلِكَ شَـــوَاغِلَ الدَّعْوَةِ إِلَى اللهِ وَالْجِهَادِ فِي سَبِيلِهِ، فَهَلْ كَانَ هُنَاكَ مَيْدَانٌ مِنْ مَيَادِينِ النِّضَالِ لَمْ يَشْـــهَدْ صَوْلَةً أَوْ جَوْلَةً لِبَطَلِ الْإِسْلَامِ «عَلِيٍّ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ؟!

وَهَلْ كَانَتْ هُنَاكَ سَاحَةٌ مِنْ سَاحَاتِ الْقَضَاءِ لَمْ يُسَجِّلْ فِي سِفْرِهَا الْخَالِدِ أَمِيرُ الْقُضَاةِ «عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ» أَنْصَعَ الصَّفَحَاتِ وَأَعْدَلَ الْأَحْكَامِ؟!

ثُـــمَّ كَانَ مَا لَا بُدَّ مِنْهُ بُـــدٌّ، وَتَزَوَّجَ الْإِمَامُ رَضِيَ اللهُ عَنْـــهُ مِنْ أُمِّ الْبَنِينَ بِنْـــتِ الْمَحَلِّ بْنِ خَالِـــدٍ، فَوَلَدَتْ لَهُ «الْعَبَّاسَ» وَ«جَعْفَـــرًا» وَ«عَبْدَ اللهِ» وَ«عُثْمَانَ»، فَكَانَ «الْعَبَّاسُ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَكْبَرَ إِخْوَتِهِ مِنْ «أُمِّ الْبَنِينَ».

وَنَشَـــأَ «رَضِيَ اللهُ عَنْهُ» فِي بَيْتِ «عَلِيٍّ»، بَيْتِ الشَّـــجَاعَةِ وَالْفُرُوسِيَّةِ، وَالْفَصَاحَـــةِ وَالْبَلَاغَةِ، وَالْعِلْمِ وَالْبَيَانِ، وَالْأَخْلَاقِ السَّـــامِيَةِ، وَالْفَضَائِلِ الْعَالِيَةِ، وَلَقَـــدْ تَكَامَلَتْ جَمِيعُ تِلْكَ الْخِصَالِ فِي شَـــخْصِيَّةِ «الْعَبَّاسِ»، وَبَدَتْ وَاضِحَـــةً فِي كُلِّ مَوْقِفٍ مِنْ مَوَاقِفِ حَيَاتِهِ، وَالَّتِي كَانَتْ خَاتِمَتُهَا الشَّـــهَادَةَ فِي سَـــبِيلِ الْحَقِّ، وَدَحْضِ الظُّلْمِ، وَكِفَاحِ الطُّغْيَـــانِ، وَتَقْوِيمِ الِانْحِرَافِ.. فَكَانَتْ أَشْرَفَ خَاتِمَةٍ، وَذُرْوَةَ الْوَفَاءِ، وَقِمَّةَ النُّبْلِ.

وَأَتَخَيَّلُ حَيَاتَـــهُ «رَضِيَ اللهُ عَنْهُ» طَرِيقًا طَوِيلًا إِلَى جَبَلٍ أَشَـــمَّ، وَعْرِ الْمَسَالِكِ، صَعْبِ الْمُرْتَقَى، فَمَضَى فِيهِ قَوِيَّ الْعَزِيمَةِ صُلْبَ الْإِرَادَةِ حَتَّى اعْتَلَى قِمَّتَهُ، مُرَوِّضًا كُلَّ شِدَّةٍ، وَمُذَلِّلًا كُلَّ عَقَبَةٍ كَؤُودٍ.

وَنَحْنُ لَا نَقُولُ ذَلِكَ دُونَ سَـــنَدٍ أَوْ دَلِيلٍ، وَلَا نُبَالِـــغُ فِي الْقَوْلِ، إِذْ إِنَّ تَجْرِبَتَهُ فِي كُلِّ مَيْدَانٍ مِنْ مَيَادِينِ الْحَيَاةِ، سَوَاءٌ عَلَى صَعِيدِ الْجِهَادِ بِالسَّيْفِ أَوِ الْجِهَـــادِ بِالْكَلِمَةِ وَالرَّأْيِ، إِلَى جَانِبِ وَالِدِهِ الْعَظِيمِ، أَكْسَـــبَتْهُ خِبْرَةً مَا بَعْدَهَا خِبْرَةٌ.

وَلَقَـــدْ قِيلَ فِيهِ «رَضِيَ اللهُ عَنْهُ» إِنَّهُ مِنَ الَّذِينَ أَبْلَوْا أَحْسَـــنَ الْبَلَاءِ يَوْمَ «صِفِّينَ»، فَعُرِفَ بِالْإِقْدَامِ وَالْجُرْأَةِ، وَالْفُرُوسِيَّةِ، وَإِتْقَانِ فُنُونِ الْقِتَالِ.

وَقِيلَ فِي وَصْفِ شَـــخْصِيَّتِهِ إِنَّـــهُ كَانَ مِنْ أَجْوَدِ «بَنِي هَاشِـــمٍ»، وَمِنْ أَبْرَزِهِمْ عِلْمًا وَنُبْلًا وَفَضْلًا.

وَلَيْسَ ذَلِكَ بِمُسْتَغْرَبٍ عَلَى مَنْ نَشَـــأَ فِي مَدْرَسَةِ «عَلِيٍّ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يَنْهَلُ مِنْ فَيْضِ شَخْصِيَّتِهِ، وَيَتَأَسَّى بِهِ، وَيَقْتَدِي بِفِعَالِهِ، ثُمَّ يَنْهَجُ نَهْجَهُ فِي كُلِّ أَمْرٍ وَشَأْنٍ.

❊❊❊

نَشَأَ «رَضِيَ اللهُ عَنْهُ» فِي الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ، وَرَأَى مِنَ الْأَحْدَاثِ الْجِسَامِ فِي تَارِيخِ الدَّعْوَةِ مَا صَقَلَهُ وَهَذَّبَ شَـــخْصِيَّتَهُ. وَعُرِفَ عَنْهُ تَعَلُّقُهُ الشَّدِيدُ بِأَبِيهِ، لَا يُفَارِقُهُ وَلَا يَبْتَعِدُ عَنْهُ.

شَهِدَ مَعَ الْإِمَامِ «رَضِيَ اللهُ عَنْهُ» وَقْعَتَيِ «الْجَمَلِ» وَ«صِفِّينَ» وَكَانَ لَهُ مِنَ الْعُمْرِ نَيِّفٌ وَعِشْرُونَ عَامًا، فَهُوَ فِي مُقْتَبَلِ الشَّبَابِ لَا يَكِلُّ لَهُ سَاعِدٌ، وَلَا يَرْتَاحُ لَهُ جَوَادٌ، يُحْسِنُ الرَّمْيَ بِالنَّبْلِ، وَالطَّعْنَ بِالرُّمْحِ، وَالضَّرْبَ بِالسَّيْفِ، يَخُوضُ الْغَمَرَاتِ، فَيَتَطَايَرُ الْفُرْسَانُ مِنْ أَمَامِهِ حَتَّى يَبْلُغَ أَقْصَى صُفُوفِ الْأَعْدَاءِ.

وَعَرَفَ لَهُ الْإِمَامُ «رَضِيَ اللهُ» عَنْهُ هَذَا الْفَضْلَ، فَكَانَ مُقَدَّرًا عِنْدَهُ، عَالِيَ الْمَكَانَةِ، سَامِيَ الْمَنْزِلَةِ، وَكَانَ يُوصِي إِخْوَتَهُ بِهِ خَيْرًا.

❊❊❊

وَمَرَّتِ الْأَحْدَاثُ... مِنَ التَّحْكِيمِ إِلَى حَرْبِ الْخَوَارِجِ فِي «النَّهْرَوَانِ»، إِلَى اسْتِشْـــهَادِ الْإِمَامِ «رَضِيَ اللهُ عَنْهُ»، إِلَى مُبَايَعَةِ «الْحَسَـــنِ»، إِلَى تَنَازُلِهِ

عَنِ الْخِلَافَةِ وَاسْــتِنْكَارِ «الْحُسَيْنِ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا لِذَلِكَ، ثُمَّ اسْتِشْهَادِ «الْحَسَنِ» غِيلَةً وَغَدْرًا، وَقَدْ دُسَّ لَهُ السُّمُّ.

مَرَّتْ هَذِهِ الْأَحْدَاثُ فَكَانَ لِـ «الْعَبَّاسِ» فِي كُلٍّ مِنْهَا مَوْقِفُ الشَّــهَامَةِ وَالْوَفَاءِ، وَالثَّبَاتِ عَلَى الْحَقِّ، وَالصَّرْخَةِ الْمُدَوِّيَةِ فِي وَجْهِ الظُّلْمِ.

قَاتَلَ الْخَــوَارِجَ فِي «النَّهْرَوَانِ»، وَبَكَى وَالِــدَهُ الْعَظِيمَ بِدُمُوعِ الْحُبِّ وَالْحَنَانِ، وَوَقَفَ إِلَى جَانِبِ «الْحُسَــيْنِ» فِي اسْــتِنْكَارِ تَنَازُلِ «الْحَسَنِ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا لِطُغَاةِ بَنِي أُمَيَّةَ...

مَعَ «الْحُسَيْنِ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ

وَحِينَ خَرَجَ «الْحُسَــيْنُ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مِــنَ الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ إِلَى مَكَّةَ الْمُكَرَّمَةِ، خَرَجَ «الْعَبَّاسُ» مَعَهُ جُنْدِيًّا فِي مَوْكِبِ الْحَقِّ.

ثُمَّ أَخَذَتْ كُتُبُ أَهْلِ الْكُوفَةِ وَرَسَائِلُهُمْ تَتَوَالَى عَلَى «الْحُسَيْنِ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، مُسْــتَنْكِرَةً الْبَيْعَةَ لِــ «يَزِيدَ بْنِ مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُــفْيَانَ»، مُؤَيِّدَةً إِمَارَتَهُ، يَدْعُونَهُ فِيهَا أَنْ يَحْضُرَ إِلَى الْكُوفَةِ حَيْثُ يَجِدُ النُّصْرَةَ مِنْ أَهْلِهَا، وَالْإِجْمَاعَ مِنْ قَاطِنِيهَا.

وَكَانَ مِنْ أَمْرِ «الْحُسَــيْنِ» رَضِــيَ اللهُ عَنْهُ أَنِ اسْــتَجَابَ بَعْدَ إِلْحَاحٍ وَإِصْرَارٍ، وَأَرْسَلَ ابْنَ عَمِّهِ «مُسْلِمَ بْنَ عَقِيلٍ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ طَلِيعَةً لَهُ إِلَى

الْكُوفَةِ، يَسْتَخْبِرُ حَقِيقَةَ الْأَمْرِ، وَيَسْتَجْلِي وَاقِعَهُ.

وَقَضَى «مُسْلِمٌ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ شَهِيدًا بَعْدَ أَنْ تَخَلَّى عَنْهُ النَّاسُ وَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِهِ، وَقَدْ سَبَقَ السَّيْفُ الْعَذَلَ؛ إِذْ أَرْسَلَ «مُسْلِمٌ» إِلَى «الْحُسَيْنِ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا يُخْبِرُهُ أَنَّ النَّاسَ جَمِيعًا عَلَى عَهْدِهِمْ وَوَعْدِهِمْ.

وَلِهَذَا خَرَجَ «الْحُسَيْنُ» إِلَى «الْكُوفَةِ» بِأَهْلِهِ وَأَصْحَابِهِ، وَفِي الطَّرِيقِ بَلَغَهُ مَصْرَعُ «مُسْلِمٍ» وَغَيْرِهِ مِنْ إِخْوَانِهِ الَّذِينَ ثَبَتُوا فِي وَجْهِ «ابْنِ زِيَادٍ» الطَّاغِيَةِ، فَحَزِنَ لِذَلِكَ وَتَأَثَّرَ وَبَكَى، وَدَعَا لِلشُّهَدَاءِ بِأَنْ يُثِيبَهُمُ اللهُ تَعَالَى أَحْسَنَ الثَّوَابِ، وَأَنْ يُنْزِلَهُمْ مِنْ لَدُنْهُ مَنَازِلَ الْأَبْرَارِ وَالصَّالِحِينَ، وَأَنْ يَجْمَعَهُ بِهِمْ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ.

وَبِمَا أَنَّ الْمَوْقِفَ قَدْ تَبَدَّلَ، طَلَبَ «رَضِيَ اللهُ عَنْهُ» إِلَى كُلِّ الَّذِينَ مَعَهُ أَنْ يَنْظُرُوا فِي أَمْرِهِمْ، فَمَنْ أَرَادَ مِنْهُمُ الْعَوْدَةَ وَآثَرَ السَّلَامَةَ فَلَا حَرَجَ عَلَيْهِ، وَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَمْضِيَ مَعَهُ فَلَا إِكْرَاهَ وَلَا قَسْرَ.

فَقَالَ أَهْلُ «عَقِيلٍ» إِخْوَةُ «مُسْلِمٍ» وَأَبْنَاؤُهُ:

- لَا خَيْرَ فِي الْحَيَاةِ بَعْدَ «مُسْلِمٍ»، وَلَا بُدَّ لَنَا مِنْ مُجَابَهَةِ قَاتِلِيهِ وَمُحَارَبَتِهِمْ مَهْمَا كَانَتِ النَّتَائِجُ.

وَقَالَ «الْعَبَّاسُ بْنُ عَلِيٍّ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ:

- مَاذَا يَقُولُ النَّاسُ عَنَّا إِذَا رَجَعْنَا؟ وَمَاذَا نَقُولُ لِلنَّاسِ إِذَا تَرَكْنَا شَيْخَنَا

وَسَـــيِّدَنَا وَابْنَ بِنْتِ رَسُولِ اللهِ؟ لَا وَاللهِ، لَا نُفَارِقُكَ يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ حَتَّى نَفْدِيَكَ بِالْأَرْوَاحِ وَنَقِيَكَ بِالْأَنْفُسِ.

فَقَالَ «الْحُسَيْنُ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ:

- لَا خَيْرَ فِي الْحَيَاةِ بَعْدَ هَؤُلَاءِ الْفِتْيَةِ.

وَقَدْ تَفَرَّقَ عَنْهُ «رَضِيَ اللهُ عَنْـــهُ» أَكْثَرُ مَنْ كَانُوا قَدْ خَرَجُوا مَعَهُ، وَمَا خَرَجُوا إِلَّا طَمَعًا فِي الدُّنْيَا وَطَلَبًا لَهَا.

بَقِيَ «الْعَبَّاسُ بْنُ عَلِيٍّ» مَعَ أَخِيهِ «الْحُسَـــيْنِ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا جُنَّةً لَهُ وَدِرْعًا تَحْمِيهِ، يَمْحَضُهُ خَالِصَ الرَّأْيِ، وَيَفْتَدِيهِ بِنَفْسِهِ إِذَا حُمَّ الْقَضَاءُ.

وَكَانَ فِي تِلْكَ الْأَيَّامِ الشِّدَادِ يَرَى بِأُمِّ عَيْنَيْهِ ظُلْمَ الظَّالِمِينَ مِنْ عُمَّالِ بَنِي أُمَيَّةَ وَطُغَاتِهِمْ، وَإِحَاطَةَ جَيْشِ «الْحُرِّ» بِـ«الْحُسَـــيْنِ» وَآلِ بَيْتِهِ وَأَصْحَابِهِ مُنَفِّذًا لِرَغْبَةِ «ابْنِ زِيَادٍ» فِي تَشْتِيتِ الْقَوْمِ وَصَدِّهِمْ عَنْ بُلُوغِ «الْكُوفَةِ» أَوِ الْعَوْدَةِ إِلَى «مَكَّةَ» أَوِ «الْمَدِينَةِ» ...

كَمَا كَانَ يُعَانِي مِنْ شِدَّةِ الْقَيْظِ وَالْحَرِّ اللَّاهِبِ وَالْعَطَشِ الْبَالِغِ، وَكُلُّهَا فِي نَظَرِ الْأَبْطَالِ الْمَيَامِينِ شَـــدَائِدُ تَهُونُ أَمَامَ طَلَـــبِ الْحَقِّ وَالدِّفَاعِ عَنْهُ وَالِاسْتِمَاتَةِ فِي سَبِيلِهِ.

وَحِينَ اسْـــتَعَرَ الْقِتَالُ وَالْتَحَمَ الطَّرَفَانِ؛ فِئَةُ الْحَقِّ بِقِيَادَةِ «الْحُسَـــيْنِ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وَجَيْشُ الْبَغْيِ وَالْعُدْوَانِ بِقِيَادَةِ «عُمَرَ بْنِ سَعْدٍ» وَ«الشِّمِرِ ابْنِ ذِي الْجَوْشَنِ»، خَاضَ «الْعَبَّاسُ بْنُ عَلِيٍّ» فِي صُفُوفِ الْأَعْدَاءِ، وَأَبْلَى

أَحْسَنَ الْبَلَاءِ، فَكَانَ يُفَرِّقُ الْجَحَافِلَ، وَيَقُطُّ الرِّقَابَ، وَيُجَنْدِلُ الْفُرْسَانَ، وَيَبْلُغُ فِي جَبْهَةِ الْعَدُوِّ آخِرَ مَدَاهَا، ثُمَّ يَعُودُ إِلَى مَوْقِعِهِ وَقَدْ أُجْهِدَ.

وَيَذْكُرُ الْمُؤَرِّخُونَ بِأَنَّ «ابْنَ زِيَادٍ» كَانَ قَدْ كَتَبَ أَمَانًا لِـ«الْعَبَّاسِ»، وَكَلَّفَ «الشِّمِرَ» بِنَقْلِهِ إِلَيْهِ إِنْ هُوَ تَخَلَّى عَنْ نُصْرَةِ «الْحُسَيْنِ»، وَذَلِكَ بِدَافِعِ الْخَوْفِ مِنْ شَجَاعَتِهِ وَجُرْأَتِهِ وَفُرُوسِيَّتِهِ، وَمَا عُرِفَ عَنْهُ مِنَ الْإِقْدَامِ، لَا شَفَقَةً وَلَا مَحَبَّةً؛ إِذْ لَمْ يَكُنْ فِي قَلْبِ «ابْنِ زِيَادٍ» أَيُّ تَعَاطُفٍ أَوْ مَيْلٍ لِآلِ «عَلِيٍّ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

لَكِنَّ «الْعَبَّاسَ» الْأَبِيَّ الْحُرَّ رَفَضَ هَذَا الْأَمَانَ وَرَدَّهُ، وَآثَرَ الشَّهَادَةَ فِي سَبِيلِ الْحَقِّ عَلَى الْحَيَاةِ مَعَ الذِّلَّةِ وَالصَّغَارِ.

وَحِينَ كَثُرَتِ الْمُبَارَزَةُ بَيْنَ الطَّرَفَيْنِ، وَلَقِيَ كَثِيرٌ مِنْ أَصْحَابِ «الْحُسَيْنِ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مَصْرَعَهُمْ؛ يَخْرُجُ أَحَدُهُمْ لِقِتَالِ فَارِسٍ فَإِذَا بِجَمْعٍ مِنَ الْأَعْدَاءِ يَتَكَأْكَئُونَ عَلَيْهِ وَيَغْدِرُونَ بِهِ...

وَحِينَ كَثُرَ ذَلِكَ، وَامْتَلَأَتْ سَاحَةُ الْمَيْدَانِ بِأَجْسَادِهِمُ الطَّاهِرَةِ وَقَدْ مُثِّلَ بِهَا، وَأَضْحَتْ أَشْلَاءً مُبَعْثَرَةً، وَكَأَنَّهَا الْأَضَاحِيُّ!! لَبِسَ «الْعَبَّاسُ» لَأْمَةَ الْحَرْبِ، وَتَقَلَّدَ السَّيْفَ، وَدَنَا مِنْ أَخِيهِ «الْحُسَيْنِ» مُسْتَأْذِنًا بِمُبَارَزَةِ الْأَعْدَاءِ، وَمُوَدِّعًا، فَأَذِنَ لَهُ وَقَالَ لَهُ:

- يَعِزُّ عَلَيَّ فِرَاقُكَ يَا «عَبَّاسُ».

وَاعْتَنَقَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا الْآخَرَ، وَوَدَّعَهُ «الْعَبَّاسُ» وَدَاعًا لَمْ يَكُنْ بَعْدَهُ

لِقَــاءٌ، إِلَّا عِنْدَ مَنْ لَا تَضِيعُ عِنْدَهُ الْحُقُــوقُ وَلَا تُبْخَسُ النُّفُوسُ، وَبَكَيَا بُكَاءً مُرًّا، ثُمَّ قَالَ لَهُ «الْحُسَيْنُ»:

- ادْخُلْ وَوَدِّعْ أَخَوَاتِكَ وَبَنَاتِ أَخِيكَ.

فَدَخَلَ عَلَيْهِمْ وَقَدِ اسْتَبَدَّ الْعَطَشُ بِالنِّسَاءِ وَالْأَطْفَالِ، فَقَالُوا لَهُ:

- يَا أَبَا الْفَضْلِ، إِذَا نَصَرَكَ اللهُ عَلَى الْأَعْدَاءِ، فَآتِنَا بِشَيْءٍ مِنَ الْمَاءِ نَبُلُّ بِهِ الصَّدَى، وَنُطْفِئُ بِهِ غُمَّةَ الْعَطَشِ.

حَزَّ ذَلِكَ فِي نَفْسِــهِ وَآلَمَهُ، ثُمَّ قَامَتْ إِلَيْهِ «سُــكَيْنَةُ» وَتَعَلَّقَتْ بِهِ وَهِيَ تَسْأَلُهُ جَرْعَةَ مَاءٍ.

وَهُنَا... كَانَ «الْعَبَّاسُ» قَدْ شُــحِنَ بِطَاقَةٍ مِــنَ الْأَلَمِ وَالْغَضَبِ لَا حَدَّ لَهَا، فَخَرَجَ وَقَــدْ غَامَتْ عَيْنَاهُ بِالدُّمُوعِ، وَتَنَاوَلَ قِرْبَــةً فَعَلَّقَهَا فِي كَتِفِهِ، وَرَفَعَ اللِّوَاءَ بِيَدِهِ، ثُمَّ اسْــتَوَى عَلَى ظَهْرِ جَوَادِهِ، وَانْدَفَعَ كَالسَّهْمِ مُنْطَلِقًا نَحْوَ صُفُوفِ الْأَعْدَاءِ، فَلَمَّا تَوَسَّــطَهُمْ فَرُّوا مِنْ حَوْلِهِ، وَتَطَايَرُوا تَطَايُرَ الْفَرَاشِ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ، وَلَمْ يَجْرُؤْ أَحَدٌ مِنْهُمْ عَلَى مُنَازَلَتِهِ، فَنَادَى فِيهِمْ:

- يَا «عُمَرُ بْنَ سَعْدٍ»، هَذَا «الْحُسَيْنُ» ابْنُ بِنْتِ رَسُولِ اللهِ «صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ» يَقُولُ لَكُمْ إِنَّكُمْ قَتَلْتُمْ أَصْحَابَهُ وَإِخْوَانَهُ، وَبَنِيهِ وَبَنِي أَخِيهِ، وَقَدْ بَقِــيَ وَحِيدًا فَرِيدًا مَعَ بَعْضِ أَهْلِ بَيْتِهِ! وَهَؤُلَاءِ نِسَــاؤُهُ وَأَطْفَالُهُ عِطَاشٌ يَكْتَوُونَ بِنَــارِ الظَّمَإِ! فَخَلُّوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَاءِ «الْفُرَاتِ»؛ فَإِنَّهُ قَدْ أَشْرَفَ عَلَى الْهَلَاكِ! فَإِنْ أَبَيْتُمْ، فَاتْرُكُوهُ يَمْضِي مُشَرِّقًا أَوْ مُغَرِّبًا وَكُفُّوا

أَيْدِيَكُمْ عَنْهُ...

لَكِنَّ أَعْوَانَ الشَّيْطَانِ، عُمَّالَ «ابْنِ زِيَادٍ»، رَدُّوا قَائِلِينَ:

- يَا ابْنَ أَبِي تُرَابٍ قُلْ لِأَخِيكَ «الْحُسَيْنِ» لَوْ كَانَ مَاءُ الْأَرْضِ تَحْتَ أَيْدِينَا مَا سَقَيْنَاكُمْ مِنْهُ قَطْرَةً وَاحِدَةً حَتَّى تَنْزِلُوا عَلَى حُكْمِ «ابْنِ زِيَادٍ» أَوْ تَذُوقُوا الْمَوْتَ غُصَّةً بَعْدَ غُصَّةٍ!!

فَثَارَتْ عِنْدَئِذٍ ثَائِرَةُ «الْعَبَّاسِ»، وَحَمَلَ عَلَيْهِمْ فَفَرَّقَهُمْ، وَاسْتَمَرَّ فِي ذَلِكَ حَتَّى بَلَغَ الْمَاءَ، ثُمَّ نَزَلَ عَنْ ظَهْرِ جَوَادِهِ، وَتَنَاوَلَ غَرْفَةً بِيَدِهِ لِيَبُلَّ رِيقَهُ الَّذِي جَفَّ، وَلَمَّا قَرَّبَهَا مِنْ فَمِهِ تَذَكَّرَ عَطَشَ أَخِيهِ وَأَهْلِهِ، فَرَمَى جَرْعَةَ الْمَاءِ مُنْشِدًا:

يَا نَفْسُ مِنْ بَعْدِ الْحُسَيْنِ هُونِي ... وَبَعْدَهُ لَا كُنْتِ أَنْ تَكُونِي

أَتَشْرَبِينَ بَارِدَ الْمَعِينِ! ... وَهَذَا حُسَيْنٌ شَارِبُ الْمَنُونِ

هَيْهَاتَ!! مَا هَذَا فِعَالُ دِينِي ... وَلَا فِعَالُ صَادِقِ الْيَقِينِ

ثُمَّ مَلَأَ الْقِرْبَةَ، وَارْتَدَّ عَنِ الْمَاءِ يُرِيدُ بُلُوغَ مُخَيَّمِ «الْحُسَيْنِ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، فَأَطْبَقَ عَلَيْهِ الْأَعْدَاءُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، وَسَدُّوا مَنَافِذَ الطَّرِيقِ، وَحَالُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَا يُرِيدُ، وَأَخَذُوا يَرْشُقُونَهُ بِالنِّبَالِ حَتَّى صَارَ دِرْعُهُ كَالْقُنْفُذِ! وَهُوَ يُحَاوِلُ أَنْ يَحْمِيَ قِرْبَةَ الْمَاءِ، ثُمَّ أَحَاطُوا بِهِ يُنَاجِزُونَهُ بِسُيُوفِهِمْ حَتَّى قُطِعَتْ يَمِينُهُ وَشُلَّتْ حَرَكَتُهُ، وَهُوَ فِي هَذَا كُلِّهِ لَا يَتَخَلَّى عَنِ الْمَاءِ، وَيَقْتُلُ مِنْهُمُ الْعَدَدَ الْعَدِيدَ!!

ثُمَّ قُطِعَتْ يَسَارُهُ، فَحَمَلَ الْقِرْبَةَ بَيْنَ أَسْنَانِهِ وَجَرَى بِهَا نَحْوَ مُخَيَّمِ «الْحُسَيْنِ»، وَالدِّمَاءُ الْكَرِيمَةُ تَنْزِفُ مِنْهُ بِغَزَارَةٍ، وَكَمَنَ لَهُ أَحَدُ الظَّلَمَةِ وَرَاءَ جِذْعِ شَجَرَةٍ وَبِيَدِهِ عَمُودٌ مِنْ حَدِيدٍ، فَلَمَّا حَاذَاهُ «الْعَبَّاسُ» ضَرَبَهُ عَلَى أُمِّ رَأْسِهِ، فَوَقَعَ صَرِيعًا!! وَعَلَتْ أَصْوَاتُ النِّسَاءِ وَالْأَطْفَالِ:

ـ وَاعَبَّاسَاهُ!!! وَاعَمَّاهُ!!! وَاحَسْرَتَاهُ.

وَنَادَى «الْعَبَّاسُ» أَخَاهُ «حُسَيْنًا» النِّدَاءَ الْأَخِيرَ:

ـ عَلَيْكَ مِنِّي السَّلَامُ يَا أَخِي يَا «حُسَيْنُ».

فَلَمَّا سَمِعَ «الْحُسَيْنُ» وَدَاعَ أَخِيهِ، وَشَاهَدَ سُقُوطَهُ هَبَّ «رَضِيَ اللهُ عَنْهُ» وَحَمَلَ عَلَى الْقَوْمِ وَفَرَّقَهُمْ عَنْهُ، وَأَقْبَلَ عَلَى أَخِيهِ الصَّرِيعِ، فَوَجَدَهُ يَتَخَبَّطُ بِدَمِهِ يَلْفِظُ أَنْفَاسَهُ الْأَخِيرَةَ، الْعَلَمُ إِلَى جَانِبِهِ مُمَزَّقٌ، وَالْقِرْبَةُ قَدْ شُقَّتْ وَاخْتَلَطَ مَاؤُهَا بِتُرَابِ الْأَرْضِ وَدِمَاءِ «الْعَبَّاسِ»، وَرَأْسُهُ مَشْقُوقٌ نِصْفَيْنِ، وَإِحْدَى عَيْنَيْهِ قَدْ دَاخَلَهَا سَهْمٌ فَاقْتَلَعَهَا، فَانْحَنَى عَلَيْهِ، وَرَفَعَ رَأْسَهُ عَلَى رُكْبَتِهِ، وَأَخَذَ يَمْسَحُ الدَّمَ وَالتُّرَابَ عَنِ الْجَبِينِ الطَّاهِرَةِ الَّتِي مَا ذَلَّتْ لِجَبَرُوتِ بَنِي أُمَيَّةَ، وَذَرَفَ «رَضِيَ اللهُ عَنْهُ» الدَّمْعَ السَّخِينَ، وَاتَّجَهَ بِبَصَرِهِ إِلَى السَّمَاءِ يَشْكُو ظُلْمَ الظَّالِمِينَ.

وَحِينَ حَاوَلَ حَمْلَ «الْعَبَّاسِ» إِلَى الْمُخَيَّمِ، أَشَارَ إِلَيْهِ «الْعَبَّاسُ» وَقَدْ عَجَزَ عَنِ الْكَلَامِ أَنْ يَتْرُكَهُ فِي مَصْرَعِهِ، وَكَانَتْ هَذِهِ الْحَرَكَةُ آخِرَ عَهْدِهِ بِالْحَيَاةِ، ثُمَّ رَفْرَفَتْ رُوحُهُ إِلَى عِلِّيِّينَ.

وَطَــوَى الزَّمَنُ بَيْــنَ جَنَاحَيْهِ وَاحِدًا مِــنَ الْفِتْيَةِ الَّذِيــنَ خَرَجُوا مَعَ «الْحُسَــيْنِ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يَنْشُــدُونَ الْحَقَّ وَالْعَدْلَ، وَيَشْجُبُونَ الْبَاطِلَ وَالظُّلْمَ، وَمَهَرُوا غَرَضَهُمْ وَطِلْبَتَهُمْ بِأَغْلَى مَهْرٍ، وَدَفَعُوا فِي سَــبِيلِهِ أَبْهَظَ ثَمَنٍ؛ إِذْ بَذَلُوا أَرْوَاحَهُمْ وَدِمَاءَهُمْ غَيْرَ آسِفِينَ وَلَا مُقَصِّرِينَ.

وَمَشَى «الْعَبَّاسُ بْنُ عَلِيٍّ» عَلَى دَرْبِ أَبِيهِ الَّذِي سَارَهُ مِنْ قَبْلُ.

لَقَدْ رَضَــعَ الْفِدَائِيَّةَ مُذْ كَانَ طِفْلًا صَغِيرًا يَحْتَوِيــهِ حِجْرُ أُمِّهِ، تُحَدِّثُهُ عَنْ أَبِيهِ «عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ» الَّذِي افْتَدَى الدَّعْوَةَ وَصَاحِبَهَا، وَالرِّسَــالَةَ وَحَامِلَهَا، وَأَوَى فِي فِرَاشِهِ فِي لَيْلَةٍ مِنْ أَعْظَمِ لَيَالِي الْإِسْلَامِ؛ «لَيْلَةِ الْهِجْرَةِ»، أَوَى وَهُوَ يَرَى السُّيُوفَ الْبَوَارِقَ تَلْمَعُ فِي أَيْدِي الْكُفَّارِ مِنْ زَبَانِيَةِ «هُبَلَ» وَ«اللَّاتِ» فِي حَدِّهَا الْمَوْتُ الزُّؤَامُ، فَلَمْ يَرْتَعِشْ وَلَمْ يَجْزَعْ.

ثُمَّ وَقَفَ فِي وَجْهِهِمْ وَقْفَةَ التَّحَدِّي وَقَدْ دَهَمُوهُ، وَرَدَّ دَعْوَاهُمْ وَثَوْرَتَهُمْ، ثَابِتَ الْقَلْبِ رَابِطَ الْجَأْشِ، غَيْرَ هَيَّابٍ وَلَا وَجِلٍ.

لَقَدْ تَعَلَّمَ «الْعَبَّاسُ» هَذَا، وَسَرَى فِي كِيَانِهِ، فَتَعَشَّقَ الْبُطُولَةَ وَالْإِقْدَامَ، وَنَذَرَ نَفْسَهُ مَعَ أَبِيهِ الْإِمَامِ، ثُمَّ مَعَ أَخِيهِ «الْحُسَيْنِ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا جَذْوَةً مِنَ الْبَأْسِ تَلْتَهِبُ فِي كُلِّ مَيْدَانٍ.

إِنَّهُ صَعْبٌ عَلَى النُّفُوسِ الْأَبِيَّةِ وَالضَّمَائِرِ الْحَيَّةِ أَنْ تَذِلَّ أَوْ تُرْغَمَ. وَسَوَاءٌ عِنْدَهَــا الْمَوْتُ وَالْحَيَاةُ مَا دَامَتِ الْكَرَامَةُ لَمْ تُمَــرَّغْ بِالْهَوَانِ. إِنَّ «آلَ أَبِي طَالِبٍ» مَدْرَسَةٌ إِسْلَامِيَّةٌ تَشِعُّ بِالْإِيمَانِ وَالْهُدَى، وَتَتَّقِدُ طُولَ الْمَدَى.

نَافِعُ بْنُ هِلَالٍ

قَالَ اللهُ تَعَالَى:

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾.

❊❊❊

وَقَالَ رَسُولُ اللهِ «صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ»:

«مَنْ رَأَى سُلْطَانًا جَائِرًا مُسْتَحِلًّا لِحُرُمِ اللهِ، نَاكِثًا لِعَهْدِ اللهِ، مُخَالِفًا لِسُنَّةِ رَسُولِ اللهِ، يَعْمَلُ فِي عِبَادِ اللهِ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ، فَلَمْ يُغَيِّرْ عَلَيْهِ بِفِعْلٍ وَلَا قَوْلٍ، كَانَ حَقًّا عَلَى اللهِ أَنْ يُدْخِلَهُ مُدْخَلَهُ».

❊❊❊

تَوْطِئَةٌ

لَا يَسَعُ الْمَرْءَ الْمُنْصِفَ أَمَامَ النَّمَاذِجِ الْخَارِقَةِ لِلْعَادَةِ وَالْمَأْلُوفِ، الَّتِي جَادَتْ بِأَغْلَى وَأَعْظَمِ مَا يَعْتَزُّ بِهِ الْإِنْسَانُ ـ أَلَا وَهُوَ حَيَاتُهُ ـ إِلَّا أَنْ يَحْنِيَ الْهَامَ احْتِرَامًا، وَأَنْ يُطَأْطِئَ الرَّأْسَ إِجْلَالًا.

إِنَّ أُمْثُولَةَ «كَرْبَلَاءَ» فِي التَّارِيخِ لَمْ يَسْبِقْهَا مَثِيلٌ أَوْ نَظِيرٌ، وَلَمْ تَتَكَرَّرْ بَعْدَ ذَلِكَ، إِنَّهَا حَدَثٌ فَذٌّ، وَمَا تَزَالُ تَرَانِيمُ أَبْطَالِهَا، وَأَنَاشِيدُ فِتْيَانِهَا وَفُرْسَانِهَا، تُرَدِّدُهَا صَرَخَاتُ الْأَحْرَارِ وَنِدَاءَاتُهُمْ، وَتَحْلُو بِهَا أَلْسِنَتُهُمْ، وَتَتَرَطَّبُ بِهَا حُلُوقُهُمْ، وَتَنْشَرِحُ لَهَا أَفْئِدَتُهُمْ، وَتَفُورُ بِهَا دِمَاؤُهُمْ، وَتَقْوَى بِهَا سَوَاعِدُهُمْ:

حَفِظُوا وَصِيَّةَ أَحْمَدٍ فِي آلِهِ
طُوبَى لَهُم حَفِظُوا بِهِمْ مَا اسْتُودِعُوا
وَرَدُوا عَلَى الظَّمَإِ الْفُرَاتَ وَدُونَهُ
الْبِيضُ الْقَوَاطِعُ وَالرِّمَاحُ الشُّرَّعُ
أَتُرَى يَسُوغُ بِهِ الْوُرُودُ وَدُونَهُ
آلُ الْهُدَى كَأْسَ الْمَنُونِ تَجَرَّعُوا؟!

فَجُسُـــومُهُمْ فَوْقَ الثَّرَى مَطْـــرُوحَةٌ

وَرُؤُوسُهُـــــمْ فَـوْقَ الْأَسِـــنَّةِ تُرْفَـعُ

مَا أَحْـــدَثَ الْحَدَثَانِ خَطْبًا مُفْجِـــعًا

إِلَّا وَخَطْـــبُ السِّبْـطِ مِنْـــهُ أَفْظَـعُ

أَمَّا «نَافِعُ بْنُ هِلَالٍ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فَهُوَ قَرِينُ الْخَيْرِ وَرَفِيقُ الدَّرْبِ لِلْإِمَامِ «أَبِي عَبْدِ اللهِ الْحُسَيْنِ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ؛ إِذْ سَلَكَ مَعَ السَّالِكِينَ طَرِيقَ الشَّهَادَةِ، وَرَصَفَهَا بِجَسَدِهِ، وَعَبَّدَهَا بِدِمَائِهِ، وَأَوْلَاهَا ذَوْبَ وِجْدَانِهِ وَإِيمَانِهِ.

❊❊❊

قَامَ «الْحُسَيْنُ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بِـ «ذِي حُسُمٍ» خَطِيبًا، فَحَمِدَ اللهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ:

ـ إِنَّهُ قَدْ نَزَلَ مِـــنَ الْأَمْرِ ما قَدْ تَرَوْنَ، وَإِنَّ الدُّنْيَا قَـــدْ تَغَيَّرَتْ وَتَنَكَّرَتْ، وَأَدْبَرَ مَعْرُوفُهَا وَاسْـــتَمَرَّتْ جِـــدًّا، فَلَمْ يَبْقَ مِنْهَـــا إِلَّا صُبَابَةٌ كَصُبَابَةِ الْإِنَاءِ، وَخَسِـــيسُ عَيْشِ الْمَرْعَى الْوَبِيلِ، أَلَا تَرَوْنَ أَنَّ الْحَقَّ لَا يُعْمَلُ بِهِ، وَأَنَّ الْبَاطِلَ لَا يُتَنَاهَى عَنْـــهُ؟!! لِيَرْغَبِ الْمُؤْمِنُ فِي لِقَاءِ اللهِ مُحِقًّا، فَإِنِّي لَا أَرَى الْمَوْتَ إِلَّا شَهَادَةً، وَلَا الْحَيَاةَ مَعَ الظَّالِمِينَ إِلَّا بَرَمًا.

وَكَانَتْ خُطْبَةُ «الْحُسَيْنِ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ هَذِهِ فِي الْجُمُوعِ الَّتِي تَوَاجَدَتْ فِي ذَلِـــكَ الْمَكَانِ مِنْ أَعْوَانِهِ وَإِخْوَانِهِ وَجَيْشِ «ابْنِ زِيَادٍ» بِقِيَادَةِ «الْحُرِّ بْنِ يَزِيدَ التَّمِيمِيِّ»، تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ.

فَقَامَ مِنْ أَصْحَابِهِ «رَضِيَ اللهُ عَنْهُ» «زُهَيْرُ بْنُ الْقَيْنِ الْبَجَلِيُّ» فَقَالَ لِإِخْوَانِهِ:

- تَتَكَلَّمُونَ أَمْ أَتَكَلَّمُ؟؟

فَقَالُوا:

- لَا، بَلْ تَكَلَّمْ.

وَكَانَ «زُهَيْرٌ» مُقَدَّمًا فِي قَوْمِهِ وَعَشِيرَتِهِ، مُحْتَرَمًا مِنْ عُمُومِ الْعَرَبِ، مَشْهُورًا بَيْنَهُمْ بِالْخُلُقِ وَالشَّهَامَةِ.

فَحَمِدَ اللهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ:

- قَدْ سَمِعْنَا ـ هَدَاكَ اللهُ يَا ابْنَ رَسُولِ اللهِ ـ مَقَالَتَكَ، وَاللهِ لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا لَنَا بَاقِيَةً وَكُنَّا فِيهَا مُخَلَّدِينَ، إِلَّا أَنَّ فِرَاقَهَا فِي نَصْرِكَ وَمُوَاسَاتِكَ، لَآثَرْنَا الْخُرُوجَ مَعَكَ عَلَى الْإِقَامَةِ فِيهَا.

فَدَعَا لَهُ «الْحُسَيْنُ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَقَالَ لَهُ خَيْرًا.

وَأَقْبَلَ «الْحُرُّ بْنُ يَزِيدَ» يُسَايِرُ «الْحُسَيْنَ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَيَقُولُ لَهُ:

- إِنِّي أُذَكِّرُكَ اللهَ فِي نَفْسِكَ، فَإِنِّي أَشْهَدُ لَئِنْ قَاتَلْتَ لَتُقْتَلَنَّ، وَلَئِنْ قُوتِلْتَ لَتَهْلِكَنَّ فِيمَا أَرَى...

فَقَالَ لَهُ «الْحُسَيْنُ»:

- أَفَبِالْمَوْتِ تُخَوِّفُونِي؟! وَهَلْ يَعْدُو بِكُمُ الْخَطْبُ أَنْ تَقْتُلُونِي؟! وَمَا أَدْرِي مَا أَقُولُ لَكَ؟! وَلَكِنْ أَقُولُ كَمَا قَالَ أَخُو «الْأَوْسِ» لِابْنِ عَمِّهِ إِذْ لَقِيَهُ وَهُوَ يُرِيدُ نُصْرَةَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ لَهُ:

- أَيْنَ تَذْهَبُ؟! فَإِنَّكَ مَقْتُولٌ.

فَأَجَابَهُ:

سَـأَمْضِي وَمَا بِالْمَوْتِ عَـارٌ عَلَى الْفَتَى
إِذَا مَا نَـوَى حَقًّا وَجَـاهَدَ مُسْلِمَا
وَآسَى الرِّجَـالَ الصَّالِحِـينَ بِنَفْسِهِ
وَفَـارَقَ خَـوْفًا أَنْ يَعِيشَ وَيُرْغَـمَا

فَلَمَّا سَمِعَ «الْحُرُّ» مِنْهُ ذَلِكَ تَنَحَّى عَنْهُ، وَكَانَ مِنْ قَبْلُ يَسِيرُ بِأَصْحَابِهِ فِي نَاحِيَةٍ وَ«الْحُسَـيْنُ» وَأَصْحَابُهُ فِي نَاحِيَةٍ أُخْرَى مُتَحَاذِينَ، حَتَّى انْتَهَوْا إِلَى «عُذَيْبِ الْهَجَانَاتِ»، وَكَانَ بِهَـا هَجَائِنُ النُّعْمَانِ تَرْعَى هُنَالِكَ، فَإِذَا هُمْ بِأَرْبَعَةِ نَفَرٍ قَدْ أَقْبَلُوا مِنَ الْكُوفَةِ عَلَى رَوَاحِلِهِمْ، بَيْنَهُمْ «نَافِعُ بْنُ هِلَالٍ الْبَجَـلِيُّ»، عَلَى فَرَسٍ لَهُ يُقَالُ لَهُ: الْكَامِلُ، وَبَيْنَهُـمْ دَلِيلُهُمُ «الطِّرِمَّاحُ بْنُ عَدِيٍّ» يَرْتَجِزُونَ وَيُنْشِدُونَ:

يَا نَاقَـتِي لَا تَذْعَـرِي مِنْ زَجْـرِي
وَشَـمِّي قَبْـلَ طُـلُوعِ الْفَجْـرِ
بِخَـيْرِ رُكْبَـانٍ وَخَـيْرِ سَفَـرِ
حَـتَّى تَحِـلِّي بِكَـرِيـمِ النَّجْـرِ
الْمَاجِـدِ الْحُـرِّ رَحِـيبِ الصَّـدْرِ
أَتَى بِـهِ اللهُ لِخَـيْرِ أَمْـرِ
ثَمَّةَ أَبْقَاهُ بَقَاءَ الدَّهْرِ

هَذِهِ هِيَ إِطْلَالَةُ «نَافِعِ بْنِ هِلَالٍ» الأُولَى عَلَى مَوْكِبِ «الْحُسَيْنِ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، مَوْكِبِ الْحَقِّ وَمَوْكِبِ الشَّهَادَةِ.

فَلَمَّا انْتَهَوْا إِلَيْهِ، رَحَّبَ بِهِمْ وَقَدْ سَمِعَ إِنْشَادَهُمْ، فَقَالَ:

- أَمَا وَاللهِ إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ يَكُونَ خَيْرًا مَا أَرَادَ اللهُ بِنَا، قُتِلْنَا أَمْ ظَفِرْنَا.

ثُمَّ أَقْبَلَ «الْحُرُّ بْنُ يَزِيدَ» عَلَى «الْحُسَيْنِ» قَائِلًا:

- إِنَّ هَـؤُلَاءِ النَّفَرَ الَّذِينَ مِنْ أَهْلِ الْكُوفَةِ لَيْسُوا مِمَّنْ أَقْبَلَ مَعَكَ، وَأَنَا حَابِسُهُمْ أَوْ رَادُّهُمْ.

فَقَالَ «الْحُسَيْنُ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ:

- لَأَمْنَعَنَّهُمْ مِمَّا أَمْنَعُ مِنْهُ نَفْسِي، إِنَّمَا هَـؤُلَاءِ أَنْصَارِي وَأَعْوَانِي، وَقَدْ كُنْتَ أَعْطَيْتَنِي أَلَّا تَعْرِضَ لِي بِشَيْءٍ حَتَّى يَأْتِيَكَ كِتَابٌ مِنِ «ابْنِ زِيَادٍ».

فَقَالَ «الْحُرُّ»:

- أَجَلْ، لَكِنَّهُمْ لَمْ يَأْتُوا مَعَكَ.

فَقَالَ «رَضِيَ اللهُ عَنْهُ»:

- هُمْ أَصْحَابِي، وَهُمْ بِمَنْزِلَةِ مَنْ جَاءَ مَعِي، فَإِنْ تَمَّمْتَ عَلَى مَا كَانَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ وَإِلَّا نَاجَزْتُكَ!

فَكَفَّ «الْحُرُّ» عِنْدَئِذٍ عَنِ الْمَقَالَةِ وَالطَّلَبِ.

ثُمَّ إِنَّ ثَلَاثَةً مِنْ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ كَانُوا قَدْ خَرَجُوا لِمَغْنَمِ الدُّنْيَا، فَلَمَّا رَأَوْا قِلَّةَ أَصْحَابِ «الْحُسَيْنِ» وَضَعْفَهُمْ، وَقَدَّرُوا مَا سَيَنْتَهِي إِلَيْهِ أَمْرُهُمْ مِنَ

الْمَوْتِ وَالشَّتَاتِ، آثَرُوا السَّلَامَةَ وَانْصَرَفُوا عَنْهُ.

وَلَمْ يَبْقَ مِنْ بَيْنِهِمْ إِلَّا «نَافِعُ بْنُ هِلَالٍ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ؛ لِأَنَّهُ مَا خَرَجَ مِنَ الْكُوفَةِ مِنْ أَجْلِ الدُّنْيَا، وَمَا كَابَدَ مَشَقَّةَ الْوُصُولِ إِلَى «الْحُسَيْنِ» طَمَعًا فِي عَطَاءٍ أَوْ كَسْبٍ، وَلَكِنَّهُ خَرَجَ يَبْتَغِي وَجْهَ اللهِ تَعَالَى، وَرِضْوَانَهُ وَنَعِيمَهُ.

وَكَانَ «نَافِعٌ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فَارِسًا شُجَاعًا مِقْدَامًا، مَشْهُورًا بِسَدَادِ الرَّمْيِ، فَلَا يُخْطِئُ، وَقَدْ كَتَبَ اسْمَهُ عَلَى كُلِّ سَهْمٍ مِنَ السِّهَامِ، وَهِيَ سِهَامٌ مَسْمُومَةٌ ذُؤَابَاتُهَا.

أَقَامَ «نَافِعٌ» مَعَ «الْحُسَيْنِ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، لَا يَغْفُلُ عَنْهُ، وَلَا يَتَخَلَّى.. يُلَازِمُهُ مُلَازَمَةَ الظِّلِّ لِلْأَصْلِ، وَلَقَدْ عُرِفَ عَنْهُ أَنَّهُ كَانَ مِنْ أَكْثَرِ أَصْحَابِ «الْحُسَيْنِ» اخْتِصَاصًا وَلُصُوقًا بِهِ، لَا يَفْتَرِقُ عَنْهُ بِاللَّيْلِ وَلَا بِالنَّهَارِ إِلَّا لِحَاجَةِ نَفْسِهِ.

وَلَقَدْ كَانَ هَذَا التَّعَلُّقُ مِنْ «نَافِعٍ» بِـ«الْحُسَيْنِ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مَوْضِعَ تَقْدِيرِ الْمُؤَرِّخِينَ الَّذِينَ أَرَّخُوا لِيَوْمِ «كَرْبَلَاءَ» الْعَظِيمِ... فَأَبْرَزُوا ذَلِكَ ضِمْنَ إِطَارٍ مِنَ التَّمْجِيدِ لِلْوَفَاءِ وَالْحُبِّ.

❋❋❋

خَرَجَ «الْحُسَيْنُ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لَيْلَةَ الْعَاشِرِ مِنَ الْمُحَرَّمِ صَوْبَ مُعَسْكَرِ الْأَعْدَاءِ حَتَّى أَوْغَلَ.

وَكَانَ «نَافِعٌ» يُرَاقِبُهُ، فَأَسْرَعَ وَتَقَلَّدَ سَيْفَهُ، وَجَرَى خَفِيفًا حَتَّى لَحِقَ بِـ «الْحُسَيْنِ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

فَالْتَفَتَ «الْحُسَيْنُ» خَلْفَهُ، وَقَالَ:

- مَنِ الرَّجُلُ؟ «ابْنُ هِلَالٍ» هَذَا؟

قَالَ «نَافِعٌ»:

- نَعَمْ، يَا ابْنَ رَسُولِ اللهِ.

فَقَالَ «الْحُسَيْنُ»:

- مَا الَّذِي أَخْرَجَكَ فِي هَذَا اللَّيْلِ؟

فَقَالَ:

- أَزْعَجَنِي خُرُوجُكَ لَيْلًا إِلَى مُعَسْكَرِ هَذَا الطَّاغِي.

فَقَالَ «الْحُسَيْنُ»:

- خَرَجْتُ أَتَفَقَّدُ هَذِهِ الثَّنَايَا وَالْأَكَمَاتِ الْمُشْرِفَةَ عَلَيْنَا؛ مَخَافَةَ أَنْ تَكُونَ مَكْمَنًا لِهُجُومِ الْخَيْلِ عَلَى خِيَامِنَا يَوْمَ تَحْمِلُونَ وَيَحْمِلُونَ.

قَالَ «نَافِعٌ» يَرْوِي مَا حَدَثَ بَعْدَ ذَلِكَ:

- ثُمَّ رَجَعَ «الْحُسَيْنُ» وَهُوَ قَابِضٌ عَلَى يَسَارِي، وَهُوَ يَقُولُ:

- هِيَ وَاللهِ وَعْدٌ لَا خُلْفَ فِيهِ، يَا «نَافِعٌ» أَلَا تَسْـــلُكُ هَذَيْنِ الْجَبَلَيْنِ مِنْ وَقْتِكَ هَذَا وَتَنْجُو بِنَفْسِكَ؟!

فَقَالَ «نَافِعٌ»:

ـ إِذَنْ ثَكِلَتْ «نَافِعًا» أُمُّهُ، يَا سَـيِّدِي أَنَا بِأَلْفٍ، وَسَيْفِي بِأَلْفٍ، وَفَرَسِي بِمِثْلِهِ، فَوَاللهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، لَا أُفَارِقُكَ حَتَّى يَكِلَّ سَيْفِي، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ مَعِي سَيْفٌ لَقَاتَلْتُهُمْ بِالْحِجَارَةِ.

فَدَعَا لَهُ «الْحُسَيْنُ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بِخَيْرٍ، وَمَضَيَا حَتَّى دَخَلَا خِيَامَهُمَا.

هَكَذَا كَانَتِ الْأَيَّامُ وَاللَّيَـالِي الْمَعْدُودَةُ الَّتِي أَقَامَ فِيهَا «نَافِعُ بْنُ هِلَالٍ» مَعَ «الْحُسَيْنِ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، يُلَازِمُهُ وَلَا يُفَارِقُهُ، وَكَأَنَّـهُ قِطْعَةٌ مِنْهُ.

لَيْسَ الْأَمْرُ أَمْرَ صُحْبَـةٍ زَمَنِيَّةٍ تَزْدَادُ رَوَابِطُهَا وَعُرَاهَا مَعَ الْأَيَّامِ وُثُوقًا، وَلَكِنَّهَا صُحْبَةُ الرُّوحِ، وَتَلَازُمُ الْفِكْرَةِ، وَتَعَانُقُ الْمَبْدَإِ.

وَصَدَقَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ إِذْ يَقُولُ:

«الْأَرْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ مَا تَعَارَفَ مِنْهَا ائْتَلَفَ، وَمَا تَنَاكَرَ مِنْهَا اخْتَلَفَ».

❊❊❊

وَفِي الْيَوْمِ الْعَاشِرِ مِنَ الْمُحَرَّمِ، وَلَمْ يَبْقَ فِي قَوْسِ النُّصْحِ وَالصَّبْرِ مِنْزَعٌ، عَبَّأَ «الْحُسَـيْنُ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَصْحَابَهُ، وَصَلَّى بِهِمْ صَلَاةَ الْغَدَاةِ، وَكَانَ مَعَهُ اثْنَانِ وَثَلَاثُونَ فَارِسًـا وَأَرْبَعُونَ رَاجِلًا، فَجَعَلَ «زُهَيْرَ بْنَ الْقَيْنِ» فِي مَيْمَنَةِ أَصْحَابِهِ، وَ«حَبِيبَ بْنَ مُظَاهِرٍ» فِي الْمَيْسَـرَةِ، وَأَعْطَى رَايَتَهُ لِأَخِيهِ «الْعَبَّاسِ بْنِ عَـلِيٍّ»، وَجَعَلُوا الْخِيَامَ فِي ظُهُورِهِمْ، وَأَمَرَ بِحَطَبٍ وَقَصَبٍ كَانَ مِنْ وَرَاءِ الْبُيُوتِ يُحْرَقُ بِالنَّارِ؛ مَخَافَةَ أَنْ يَأْتُوهُمْ مِنْ وَرَائِهِمْ.

ثُمَّ دَعَا «رَضِيَ اللهُ» عَنْهُ رَبَّهُ قَائِلًا:

- اللَّهُمَّ أَنْتَ ثِقَتِي فِي كُلِّ كَرْبٍ، وَرَجَائِي فِي كُلِّ شِـدَّةٍ، وَأَنْتَ لِي فِي كُلِّ أَمْرٍ نَزَلَ بِي ثِقَةً وَعُدَّةً، كَمْ مِنْ هَمٍّ يَضْعُفُ فِيهِ الْفُؤَادُ، وَتَقِلُّ فِيهِ الْحِيلَةُ، وَيَخْذِلُ فِيهِ الصَّدِيقُ، وَيَشْمَتُ فِيهِ الْعَدُوُّ، أَنْزَلْتُهُ بِكَ، وَشَكَوْتُهُ إِلَيْكَ، رَغْبَةً مِنِّي إِلَيْكَ عَمَّنْ سِـوَاكَ، فَفَرَّجْتَهُ وَكَشَفْتَهُ، فَأَنْتَ وَلِيُّ كُلِّ نِعْمَةٍ، وَصَاحِبُ كُلِّ حَسَنَةٍ، وَمُنْتَهَى كُلِّ رَغْبَةٍ.

ثُمَّ نَادَى فِي النَّاسِ مِنْ جَيْشِ «ابْنِ سَعْدٍ» يُذَكِّرُهُمْ وَيَعِظُهُمْ وَيُنَبِّهُهُمْ، قَبْلَ أَنْ يَشْتَبِكُوا وَتَسِيلَ الدِّمَاءُ، وَلَكِنْ لَمْ يُجِبْهُ أَحَدٌ، وَلَئِنْ أَجَابَهُ بَعْضُهُمْ فَإِنَّمَا أَجَابُوهُ بِغِلْظَةٍ وَقَسْـوَةٍ، وَلَمْ يَبْدَأْهُمْ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بِقِتَالٍ أَوْ مُنَاجَزَةٍ، وَكَمْ سَـنَحَتِ الْفُرْصَةُ لِبَعْضِ أَصْحَابِهِ أَنْ يَنَالُوا مِنْ خُصُومِهِمْ، فَلَمْ يَسْمَحْ لَهُمْ بِذَلِكَ.

وَبِهَذَا أَبْرَأَ ذِمَّتَهُ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ.

وَتَنَادَى الْفُرْسَانُ لِلْمُبَارَزَةِ وَالْمُنَاجَزَةِ، وَجَرَتْ بَيْنَ الطَّرَفَيْنِ اشْتِبَاكَاتٌ فَرْدِيَّةٌ تَسَـاقَطَ فِيهَا الْعَدَدُ الْكَبِيرُ مِنْ جَيْشِ «ابْنِ سَعْدٍ»؛ وَذَلِكَ يَعُودُ إِلَى أَنَّ أَصْحَابَ «الْحُسَـيْنِ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ كَانُوا كَمَا هُوَ مَعْرُوفٌ وَمَشْهُورٌ فُرْسَانًا شُجْعَانًا، تَمَرَّسُوا بِأَنْوَاعِ الْقِتَالِ وَفُنُونِهِ، وَلِأَسْمَائِهِمْ دَوِيٌّ شَدِيدٌ، يَخْشَاهُمُ النَّاسُ وَيَفِرُّونَ مِنْ مُوَاجَهَتِهِمْ.

فَلَمَّـا رَأَى أَصْحَابُ «ابْنِ سَـعْدٍ» مَا حَلَّ بِإِخْوَانِهِمْ، اسْـتَنْكَفُوا عَنِ الْمُبَارَزَاتِ الْفَرْدِيَّةِ، وَعَبَّأَ الطَّاغِيَةُ جَيْشَهُ، وَأَطْلَقَ هُوَ أَوَّلَ سَهْمٍ، وَأَشْهَدَ النَّاسَ عَلَى ذَلِكَ، وَزَحَفَ بِقُوَّاتِهِ نَحْوَ مُعَسْكَرِ «الْحُسَيْنِ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ!

وَبَدَأَتِ الْمُوَاجَهَةُ الْعَنِيفَةُ، بَيْنَ فِئَةٍ قَلِيلَةِ الْعَدَدِ وَالْعُدَدِ، وَفِئَةٍ تَفُوقُهَا... فَلَا مَجَالَ لِلْمُقَارَنَةِ أَوِ الْمُوَازَنَةِ.

وَاسْتَعَرَ الْقِتَالُ فِي صُفُوفِ أَصْحَابِ «الْحُسَيْنِ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وَتَرَنَّحَ الْفُرْسَانُ، وَعَجَّ الْمَكَانُ بِالْغُبَارِ وَالْقُتَارِ، وَاصْطَبَغَتِ الْأَرْضُ بِالدِّمَاءِ، وَانْتَشَرَتْ فَوْقَ ثَرَاهَا الْأَشْلَاءُ، فَمَا تَرَى إِلَّا رُؤُوسًا مَجْذُوذَةً، وَأَطْرَافًا مَبْثُوثَةً، وَجُثَثًا قَدْ شَبِعَتْ مِنْهَا السُّيُوفُ وَالرِّمَاحُ!!

أَمَّا «نَافِعُ بْنُ هِلَالٍ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فَكَانَ إِلَى جَانِبِ «الْحُسَيْنِ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لَا يَرِيمُ عَنْهُ وَلَا يُفَارِقُهُ، يَحْمِيهِ مِنْ كُلِّ هَجْمَةٍ غَادِرَةٍ، أَوْ ضَرْبَةٍ مَاكِرَةٍ؛ يَخُوضُ صُفُوفَ الْأَعْدَاءِ حَتَّى يَبْلُغَ آخِرَهَا، يَضْرِبُ يَمْنَةً وَيَسْرَةً، فَلَا يَكِلُّ وَلَا يَهْدَأُ، يُنَادِي بِأَعْلَى صَوْتِهِ:

- أَنَا الْجَمَلِيُّ، أَنَا عَلَى دِينِ عَلِيٍّ.

بَيْنَمَا نَرَاهُ فِي قَلْبِ الْعَدُوِّ يَطْعَنُ وَيَضْرِبُ، فَإِذَا هُوَ بِإِزَاءِ أَبِي عَبْدِ اللهِ «الْحُسَيْنِ»، يَرْمِي بِالنَّبْلِ الْمَسْمُومِ فَلَا يُخْطِئُ، وَلَقَدْ صَرَعَ مِنَ الْقَوْمِ يَوْمَئِذٍ اثْنَيْ عَشَرَ نَفَرًا، غَيْرَ الَّذِي جَرَحَ وَأَدْمَى.

وَمَا زَالَ «رَضِيَ اللهُ عَنْهُ» فِي جِهَادِهِ وَجِلَادِهِ، بَيْنَ كَرٍّ وَفَرٍّ حَتَّى آلَمَ الْأَعْدَاءَ ذَلِكَ، فَتَكَأْكَأَ عَلَيْهِ جَمْعٌ مِنْهُمْ، وَمَا زَالُوا يُنَاوِئُونَهُ وَيُحَاوِرُونَهُ وَهُوَ يَطْعَنُ فِيهِمْ، حَتَّى كُسِرَتْ عَضُدَاهُ، فَلَمْ يَسْتَطِعْ بَعْدَ ذَلِكَ قِتَالًا، فَأَحَاطُوا بِهِ، وَأَمْسَكُوهُ، ثُمَّ حَمَلُوهُ، فَأَخَذَهُ «شِمِرُ بْنُ ذِي الْجَوْشَنِ» إِلَى

«عُمَرَ بْنِ سَعْدٍ»، فَقَالَ لَهُ «عُمَرُ»:

- وَيْحَكَ يَا «نَافِعُ».. مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا صَنَعْتَ بِنَفْسِكَ؟

قَالَ «نَافِعٌ»:

- إِنَّ رَبِّي يَعْلَمُ مَا أَرَدْتُ «وَكَانَتْ دِمَاؤُهُ تَسِيلُ عَلَى لِحْيَتِهِ وَثَوْبِهِ» وَاللهِ لَقَدْ قَتَلْتُ مِنْكُمُ اثْنَيْ عَشَرَ سِوَى مَنْ جَرَحْتُ، وَمَا أَلُومُ نَفْسِي عَلَى الْجَهْدِ، وَلَوْ بَقِيَتْ لِي عَضُدٌ وَسَاعِدٌ مَا أَسَرْتُمُونِي.

فَقَالَ «شَمِرٌ» لِـ «عُمَرَ بْنِ سَعْدٍ»:

- اقْتُلْهُ أَصْلَحَكَ اللهُ.

فَقَالَ «عُمَرُ»:

- أَنْتَ جِئْتَ بِهِ، فَإِنْ شِئْتَ فَاقْتُلْهُ.

فَانْتَضَى «شَمِرٌ» سَيْفَهُ، فَقَالَ لَهُ «نَافِعٌ»:

- أَمَا وَاللهِ أَنْ لَوْ كُنْتَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ لَعَظُمَ عَلَيْكَ أَنْ تَلْقَى اللهَ بِدِمَائِنَا، فَالْحَمْدُ للهِ الَّذِي جَعَلَ مَنَايَانَا عَلَى يَدَيْ شِرَارِ خَلْقِهِ.

ثُمَّ ضَرَبَهُ «شَمِرٌ» بِالسَّيْفِ، فَقَتَلَهُ.

وَصَعِدَتِ الرُّوحُ الطَّاهِرَةُ الْبَرِيئَةُ إِلَى رَبِّهَا، تَشْكُو لَهُ ظُلْمَ الظَّالِمِينَ، وَطُغْيَانَ الطُّغَاةِ الْآثِمِينَ.

وَمَضَى «نَافِعُ بْنُ هِلَالٍ» فِي قَافِلَةِ «كَرْبَلَاءَ» شَهِيدًا يَضُوعُ دَمُهُ مِسْكًا وَطِيبًا، وَذِكْرَاهُ نَفْحًا عَطِرًا كَرِيمًا.

جَوْنٌ «مَوْلَى أَبِي ذَرٍّ الْغِفَارِيِّ»

قَالَ اللهُ تَعَالَى:

﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْۚ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًاۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِۗ ﴾.

***

وَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ:

«أَفْضَلُ الْجِهَادِ كَلِمَةُ حَقٍّ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ».

تَوْطِئَةٌ

وَكَأَنِّي بِالْعَبْدِ الْأَسْـوَدِ جَوْنٍ[1] «مَوْلَى أَبِي ذَرٍّ الْغِفَارِيِّ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يُرَدِّدُ:

أَقْسَمْـــتُ لَا أُقْـتَـــلُ إِلَّا حُـــرًّا
وَإِنْ رَأَيْـــتُ الْمَـوْتَ شَيْـــئًا نُكْـرَا
كُـلُّ امْـــرِئٍ يَـوْمًـا مُـــلَاقٍ شَـــرًّا
وَيُخْلَـــطُ الْبَـارِدُ سُخْـــنًا مُـــرًّا
رُدَّ شُعَـــاعُ الشَّـــمْسِ فَاسْتَقَـــرَّا
أَخَـــافُ أَنْ أُكْـــذَبَ أَوْ أُغَـــرَّا

أَوْ كَأَنِّي بِهِ قَدْ سَـرَتْ مِنْ رُوحِ «أَبِي ذَرٍّ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إِلَيْهِ أُمْثُولَاتِ الْجِهَادِ بِالْكَلِمَةِ الْحَقَّةِ فِي وَجْهِ الْحَاكِمِ الظَّالِمِ، وَالطَّاغِيَةِ الْمُسْتَبِدِّ، الَّتِي حَفِظَهَا وَوَعَاهَا عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ حِينَ قَالَ:

«أَفْضَلُ الْجِهَادِ كَلِمَةُ حَقٍّ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ».

وَلَقَدْ جَابَهَ بِهَا «أَبُو ذَرٍّ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ «مُعَاوِيَةَ بْنَ أَبِي سُفْيَانَ».

---

(١) جَاءَ اسْمُهُ فِي تَارِيخِ الطَّبَرِيِّ (حُوَيّ).

وَهَا هُوَ «جَــوْنٌ» يُتَرْجِمُ الْكَلِمَــةَ النَّابِضَةَ بِالْحَيَاةِ عَلَى جِهَادٍ بِالسَّــيْفِ، وَاسْتِشْهَادٍ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَإِيمَانٍ بِالْحَقِّ، وَتَعَلُّقٍ بِالْعَدْلِ، وَاسْتِيفَاءِ مَحَبَّةٍ لِرَيْحَانَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَسِبْطِهِ الْإِمَامِ «الْحُسَيْنِ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

وَلَقَدْ كَانَ جَوْنٌ «مَوْلَى أَبِي ذَرٍّ الْغِفَارِيِّ» بِاسْتِشْــهَادِهِ بَيْنَ يَدَيِ الْإِمَامِ «أَبِي عَبْدِ اللهِ» نَغَمًا فِي أُنْشُــودَةٍ، وَبَيْتًا فِي قَصِيدَةٍ، وَجَوْهَرَةً كَرِيمَةً تَشِــعُّ سَنَاءً وَبَهَاءً فِي قِلَادَةٍ طَوَّقَتْ جِيدَ الْفِدَاءِ يَوْمَ كَرْبَلَاءَ.

❊❊❊

مُنْذُ أَنْ وَعَى «جَــوْنٌ» الْحَيَاةَ وَهُوَ يُلَازِمُ الصَّحَابِــيَّ الْجَلِيلَ «أَبَا ذَرٍّ الْغِفَارِيَّ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يُشَــرِّقُ مَعَهُ وَيُغَرِّبُ، يَسْــمَعُ مِنْهُ وَيَعِي، يَعِيشُ فُصُولَ جِهَادِهِ، وَبَلِيغَ نُصْحِهِ، وَحِكَمَ أَقْوَالِهِ، وَنَظِيفَ أَفْعَالِهِ.

رَآهُ بِعَيْنَيْهِ الثَّاقِبَةِ وَرُوحِهِ الْوَاعِيَةِ كَيْفَ يُؤْثِرُ خِلَّهُ وَحَبِيبَهُ وَصَفِيَّهُ الْإِمَامَ «عَلِيًّا» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَلَى الدُّنْيَا وَزُخْرُفِهَا وَمَتَاعِهَا، وَبَهْرَجِهَا وَمَنَاصِبِهَا وَزِينَتِهَا... رَغْمَ الْمُغْرِيَاتِ وَالتَّهْدِيدَاتِ، ثُمَّ يَلْتَزِمُ طَرِيقَ الْإِمَامِ، وَمَبَادِئَ الْإِمَامِ.

وَرَآهُ كَيْفَ يُجَابِهُ اسْــتِبْدَادَ «مُعَاوِيَةَ» وَإِسْرَافَهُ وَإِغْرَاقَهُ، يَجْبَهُه بِكَلَامِ اللهِ تَعَالَى وَآيِهِ الْكَرِيمِ، فَيُفْحِمُهُ وَيُلْجِمُهُ.

ثُــمَّ رَآهُ كَيْفَ يَقْضِي آخِرَ أَيَّامِهِ بِـ «الرَّبَذَةِ» وَحِيدًا فَرِيدًا، قَلِيلَ الْقُوتِ قَلِيلَ الْمَتَاعِ.

وَرَآهُ كَيْـفَ مَاتَ فِي تِلْكَ الْفَلَاةِ وَقَدْ أُسْـقِطَ فِي يَدِ امْرَأَتِهِ؛ فَقَدْ كَانَتْ وَحْدَهَا وَلَا مُؤْنِـسَ مَعَهَا، وَهُوَ يُطَمْئِنُهَا بِأَنَّ اللهَ ـ سُـبْحَانَهُ وَتَعَالَى ـ لَا يَتَخَلَّى عَنْ عَبْدِهِ الْمُؤْمِنِ، وَأَعَادَ عَلَى مَسَـامِعِهَا حَدِيثًا سَمِعَهُ مِنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ إِذْ قَالَ:

ـ «سَمِعْتُ رَسُـولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَـلَّمَ يَقُولُ لِنَفَرٍ أَنَا فِيهِمْ: لَيَمُوتَنَّ رَجُلٌ مِنْكُمْ بِفَلَاةٍ مِنَ الْأَرْضِ يَشْهَدُهُ عِصَابَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ».

وَلَيْـسَ مِنْ أُولَئِكَ النَّفَرِ أَحَدٌ إِلَّا وَقَدْ هَلَكَ فِي قَرْيَةٍ أَوْ جَمَاعَةٍ، وَاللهِ مَا كَذَبْتُ وَلَا كُذِّبْتُ.

وَقَدْ سَـاقَ إِلَيْهِ اللهُ تَعَالَى أُولَئِكَ النَّفَرَ، فَقَالَ لَهُمْ ـ وَهُوَ يَلْفِظُ الْأَنْفَاسَ الْأَخِيرَةَ ـ:

ـ لَوْ كَانَ عِنْدِي ثَوْبٌ يَسَـعُنِي كَفَنًا لِي وَلِامْرَأَتِي، لَمْ أُكَفَّنْ إِلَّا فِي ثَوْبٍ هُوَ لِي أَوْ لَهَا، وَإِنِّي أَنْشُـدُكُمُ اللهَ أَنْ يُكَفِّنَنِي رَجُلٌ مِنْكُمْ كَانَ أَمِيرًا أَوْ عَرِيفًا أَوْ بَرِيدًا أَوْ نَقِيبًا.

وَلَيْـسَ مِنْ أُولَئِكَ النَّفَرِ أَحَدٌ إِلَّا وَقَدْ فَـارَقَ بَعْضَ مَا قَالَ إِلَّا فَتًى مِنَ الْأَنْصَارِ، فَقَالَ:

ـ أَنَا أُكَفِّنُكَ يَا عَمُّ فِي رِدَائِي هَذَا، وَفِي ثَوْبَيْنِ فِي عَيْبَتِي مِنْ غَزْلِ أُمِّي.

أَدْرَكَ «جَوْنٌ» ذَلِكَ وَفَهِمَهُ عَلَى حَقِيقَتِهِ، وَعَرَفَ مِنْهُ حِرْصَ «أَبِي ذَرٍّ» عَلَى الزُّهْدِ فِي مُتَعِ الْحَيَاةِ، وَحِرْصَهُ عَلَى رِضَا اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَتَجَنُّبَهُ لِكُلِّ شُبْهَةٍ.

كَمَا سَمِعَ «جَوْنٌ» وَوَعَى أَقْوَالَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ:

«مَا أَقَلَّتِ الْغَبْرَاءُ وَلَا أَظَلَّتِ الْخَضْرَاءُ أَصْدَقَ لَهْجَةً مِنْ أَبِي ذَرٍّ».

«أَبُو ذَرٍّ وِعَاءٌ مُلِئَ عِلْمًا، وَلَكِنْ أُوكِيَ عَلَيْهِ».

«رَحِمَ اللهُ أَبَا ذَرٍّ.. يَمْشِي وَحْدَهُ، وَيَمُوتُ وَحْدَهُ، وَيُبْعَثُ وَحْدَهُ».

❋❋❋

بَعْدَ كُلِّ هَذَا... فَلَا غَرَابَةَ، وَلَا عَجَبَ أَنْ نَرَى «جَوْنًا» مَثَلًا يُحْتَذَى بِهِ فِي الْوَفَاءِ لِآلِ الْبَيْتِ، وَحُبِّهِمْ وَنُصْرَتِهِمْ، وَالتَّضْحِيَةِ فِي سَبِيلِهِمْ، حَتَّى لَيَصِلَ بِهِ الْأَمْرُ إِلَى افْتِدَائِهِمْ بِجِسْمِهِ وَرُوحِهِ.

فَقَدْ آلَى عَلَى نَفْسِهِ أَنْ يَكُونَ وَفِيًّا لِمُعَلِّمِهِ الْأَوَّلِ وَمُرْشِدِهِ الْأَوَّلِ، الَّذِي بَصَّرَهُ بِأَقْوَمِ السُّبُلِ، وَأَصْدَقِ الْمُثُلِ، فَيُتِمَّ رِسَالَتَهُ، وَيُحَقِّقَ أَهْدَافَهُ.

فَلَازَمَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ «عَلِيًّا» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وَخَاضَ إِلَى جَانِبِهِ جَمِيعَ مَعَارِكِهِ الْقِتَالِيَّةِ وَالسِّيَاسِيَّةِ، فَكَانَ صَادِقَ اللَّهْجَةِ، قَوِيَّ الْحَزْمِ وَالْعَزْمِ، لَا يُبَالِي بِالْمَوْتِ؛ لِأَنَّهُ يَطْلُبُ آخِرَةً كَرِيمَةً فِي جِوَارِ اللهِ تَعَالَى، وَسَيُقْبِلُ عَلَى رَبِّهِ رَاضِيًا مَرْضِيًّا.

❋❋❋

فَلَمَّا كَانَتْ لَيْلَةُ السَّابِعَ عَشَرَ مِنْ رَمَضَانَ عَامَ أَرْبَعِينَ لِلْهِجْرَةِ، وَقَدْ فُجِعَ الْمُسْلِمُونَ بِاسْتِشْهَادِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ «عَلِيٍّ» عَلَى يَدِ الْخَارِجِيِّ «ابْنِ مُلْجَمٍ» غِيلَةً وَغَدْرًا، أَخَذَ الْأَسَى وَالْحُزْنُ مِنْ قَلْبِ «جَوْنٍ» كُلَّ مَأْخَذٍ،

وَتَفَطَّرَ فُؤَادُهُ هَمًّا وَغَمًّا... وَلَكِنَّهُ شَـأْنُ الْأَوْفِيَـاءِ الْمُخْلِصِينَ الَّذِينَ لَا يَسْتَسْـلِمُونَ أَوْ يَتَقَهْقَرُونَ، وَقَفَ وَقْفَتَهُ الْحَقَّةَ فَبَايَعَ «الْحَسَـنَ بْنَ عَلِيٍّ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، وَنَصَرَهُ وَأَيَّدَهُ.

وَحِينَ تَنَازَلَ «الْحَسَـنُ» رَضِـيَ اللهُ عَنْهُ عَنِ الْإِمَامَـةِ حَقْنًا لِلدِّمَاءِ، وَإِصْلَاحًا بَيْنَ النَّاسِ، كَانَ «جَوْنٌ» مِنْ رَأْيِ الْإِمَامِ أَبِي عَبْدِ اللهِ «الْحُسَيْنِ» رَضِـيَ اللهُ عَنْهُ، فَـآزَرَهُ وَعَضَّدَهُ، مُسْـتَنْكِرًا عَلَى بَنِي أُمَيَّـةَ انْحِرَافَهُمْ وَاسْتِبْدَادَهُمْ، وَمِنْ ثَمَّ لَازَمَ «الْحُسَيْنَ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مُلَازَمَةً لَمْ يُفَرِّقْهُمَا بَعْدَهَا إِلَّا الْمَوْتُ.

وَالْأَصَحُّ أَنْ نَقُولَ: لَقَدْ جَمَعَ بَيْنَهُمَا الْمَوْتُ أَيْضًا، وَفِي يَوْمٍ وَاحِدٍ هُوَ يَوْمُ عَاشُورَاءَ، وَفِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، هُوَ صَعِيدُ كَرْبَلَاءَ، وَفِي أَجْرٍ وَاحِدٍ، هُوَ رِضْوَانُ اللهِ تَعَالَى، فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ.

وَمِنْ هُنَا تَبْدَأُ الْمَرْحَلَةُ الثَّانِيَةُ مِنْ رِحْلَةِ الْعُمْرِ النِّضَالِيِّ عِنْدَ «جَوْنٍ».

فَقَدْ رَافَقَ «الْحُسَـيْنَ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مُنْذُ رَحِيلِهِ عَنِ الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ إِلَى مَكَّةَ الْمُكَرَّمَةِ، وَعَايَشَهُ كُلَّ فُصُولِ الْمَأْسَاةِ الْفَاجِعَةِ مُنْذُ أَخَذَتْ كُتُبُ أَهْلِ الْكُوفَةِ تَرِدُ إِلَيْهِ مُبَايِعَةً دَاعِيَةً، وَحِينَ أَرْسَـلَ ابْنَ عَمِّهِ «مُسْـلِمَ بْنَ عَقِيلٍ» إِلَى أَصْحَابِ تِلْكَ الرَّسَائِلِ يَسْتَوْثِقُهُمْ وَيَتَأَكَّدُ مِنْ مَوَاقِفِهِمْ.

وَعِنْدَمَا خَرَجَ إِلَى الْكُوفَةِ سَـالِكًا طَرِيقَ الْمَدِينَةِ وَمُعَرِّجًا عَلَى مَسْجِدِ جَدِّهِ الْمُصْطَفَى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ مُسْتَأْذِنًا وَمُوَدِّعًا.

... وَكَذَلِكَ لَمَّا جَاءَهُ نَعْيُ «مُسْلِمِ بْنِ عَقِيلٍ» وَ«هَانِئِ بْنِ عُرْوَةَ»، وَانْتِكَاصُ أَهْلِ الْكُوفَةِ عَنْ وُعُودِهِمْ وَعُهُودِهِمْ وَمَوَاثِيقِهِمُ الَّتِي أَوْدَعُوهَا كُتُبَهُمْ وَرَسَائِلَهُمْ، وَالَّتِي قُدِّرَتْ بِحِمْلِ جَمَلَيْنِ!!

وَأَيْضًا حِينَ قَالَ «الْحُسَيْنُ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لِمَنْ مَعَهُ:

- قَدْ خَذَلَتْنَا شِيعَتُنَا، فَمَنْ أَحَبَّ مِنْكُمْ أَنْ يَنْصَرِفَ فَلَيْسَ عَلَيْهِ مِنَّا ذِمَامٌ.

فَانْصَرَفَ أَكْثَرُ النَّاسِ عَنْهُ يَمِينًا وَشِمَالًا، وَلَمْ يَبْقَ مَعَهُ إِلَّا أَهْلُ بَيْتِهِ وَنَفَرٌ يَسِيرٌ مِمَّنْ صَحِبَهُ أَوِ انْضَمَّ إِلَيْهِ فِي الطَّرِيقِ مِثْلَ «زُهَيْرِ بْنِ الْقَيْنِ» وَغَيْرِهِ.

ذَلِكَ لِأَنَّ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ كَانُوا يَظُنُّونَ أَنَّهُ يَأْتِي بَلَدًا قَدِ اسْتَقَامَتْ طَاعَةُ أَهْلِهِ لَهُ، فَأَرَادَ «رَضِيَ اللهُ عَنْهُ» أَنْ يُعْلِمَهُمْ مَا هُمْ مُقْدِمُونَ عَلَيْهِ؛ حَتَّى لَا يَصْحَبَهُ إِلَّا الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْمَوْتَ مَعَهُ جِهَادًا فِي سَبِيلِ اللهِ.

وَلَيْسَ لَنَا أَنْ نَتَسَاءَلَ مِنْ أَيِّ الْفَرِيقَيْنِ كَانَ «جَوْنٌ»: فَرِيقِ الْمُنْصَرِفِينَ أَمْ فَرِيقِ الثَّابِتِينَ عَلَى الْعَهْدِ، الْقَائِمِينَ عَلَى الْوَعْدِ، الَّذِينَ يُتَوِّجُ الْوَفَاءُ أَخْلَاقَهُمْ وَصِفَاتِهِمْ؟

فَهُوَ - قَطْعًا - مِنَ الْفَرِيقِ الثَّانِي، هَكَذَا نَشَأَ... وَهَكَذَا تَرَبَّى... وَهَكَذَا تَعَلَّمَ... وَهَكَذَا عَاشَ...

ثَابِتَ الْعَقِيدَةِ غَيْرَ مُزَعْزَعِ الْإِيمَانِ، حَفِظَ عَنْ «أَبِي ذَرٍّ» قَوْلَهُ:

- عَلَّمَنِي خَلِيلِي رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أَنْ أَقُولَ الْحَقَّ وَلَوْ كَانَ مُرًّا.

فَتَرْجَمَ هَذَا الْقَوْلَ إِلَى مُمَارَسَةٍ فِعْلِيَّةٍ، وَنِضَالِيَّةٍ شَامِخَةٍ، وَإِبَاءٍ وَتَرَفُّعٍ صَاغَ مِنْهُمَا الدَّمُ الْمَسْفُوحُ نَشِيدًا مَا يَزَالُ الْأَحْرَارُ ـ دُعَاةُ الْحَقِّ ـ يُرَدِّدُونَهُ.

وَرَأَى «جَوْنٌ» الْأَبْطَالَ وَالْفُرْسَانَ يَرِدُونَ مَوَارِدَ الْمَوْتِ وَالشَّهَادَةِ، وَاحِدًا بَعْدَ الْآخَرِ، وَكُلُّهُمْ فَخُورٌ بِمَا يَفْعَلُ، مُعْتَزٌّ بِمَا يُقْدِمُ عَلَيْهِ، فَهَانَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ وَهُوَ يَرَى آلَ الْبَيْتَ وَقَدْ أَحْدَقَ بِهِمُ الْهَلَاكُ، وَغُلِّقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَبْوَابُ، وَسُدَّتْ عَلَيْهِمُ الْمَنَافِذُ وَالطُّرُقُ.

فَتَقَدَّمَ مِنَ الْإِمَامِ «الْحُسَيْنِ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وَقَالَ لَهُ:

ـ ائْذَنْ لِي يَا سَيِّدِي.

فَقَالَ لَهُ «الْحُسَيْنُ»:

ـ أَنْتَ يَا «جَوْنُ» فِي إِذْنٍ مِنِّي، لِتَنْصَرِفْ بِأَمَانٍ وَسَلَامٍ، فَإِنَّمَا تَبِعْتَنَا لِلْعَافِيَةِ، فَلَا تُبْتَلَى بِطَرِيقَتِنَا.

فَقَالَ «جَوْنٌ»:

ـ يَا ابْنَ رَسُولِ اللهِ... وَاللهِ إِنَّ رِيحِي لَنَتِنٌ، وَإِنَّ لَوْنِي لَأَسْوَدُ، وَإِنَّ حَسَبِي لَلَئِيمٌ، فَلَا وَاللهِ لَا أُفَارِقُكُمْ حَتَّى يَطِيبَ رِيحِي، وَيَبْيَضَّ وَجْهِي، وَيَشْرُفَ حَسَبِي وَنَسَبِي.

فَلَمْ يَجِدِ «الْحُسَيْنُ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بُدًّا مِنَ الْإِذْنِ لِـ «جَوْنٍ» بِالْمُبَارَزَةِ وَالْقِتَالِ، وَذَلِكَ إِزَاءَ إِصْرَارِهِ عَلَى طَلَبِ الشَّهَادَةِ فِي سَبِيلِ اللهِ وَدِفَاعًا عَنْ آلِ بَيْتِهِ، كَمَا دَعَا لَهُ بِخَيْرٍ وَحُسْنِ مَآبٍ.

فَبَرَزَ «جَوْنٌ» نَحْوَ الْقَوْمِ وَهُوَ يَرْتَجِزُ وَيَقُولُ:

سَــوْفَ تَرَى الْكُفَّارُ ضَرْبَ الْأَسْــوَدِ

بِالسَّيْــــفِ ضَـرْبًا عَــــنْ بَنِي مُحَمَّدِ

أَذُبُّ عَنْـهُــــمْ بِاللِّسَــــانِ وَبِالْـيَـدِ

أَرْجُــــو بِـهِ الْجَـنَّةَ يَــوْمَ الْمَـوْعِـدِ

وَمَا زَالَ يُقَاتِلُ وَيُطَاعِنُ حَتَّى خَرَّ صَرِيعًا، وَحِينَ رَآهُ «الْحُسَيْنُ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يَسْقُطُ، أَسْرَعَ إِلَيْهِ، فَمَسَحَ الدَّمَ وَالتُّرَابَ عَنْ وَجْهِهِ، وَوَضَعَ خَدَّهُ عَلَى خَدِّ «جَوْنٍ» وَجَعَلَ يَقُولُ:

- اللَّهُمَّ بَيِّضْ وَجْهَهُ، وَاحْشُــرْهُ مَعَ الْأَبْــرَارِ؛ الْمُصْطَفَى «مُحَمَّدٍ» وَآلِهِ الْأَطْهَارِ.

وَكَانَ قَدْ بَقِيَ فِي «جَوْنٍ» رَمَقٌ مِنَ الْحَيَاةِ. فَالْتَفَتَ إِلَى الْإِمَامِ «الْحُسَيْنِ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وَقَالَ:

- مَنْ مِثْلِي وَابْنُ رَسُــولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَاضِعًا خَدَّهُ عَلَى خَدِّي؟!

وَمَا أَتَمَّ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ حَتَّى فَاضَــتْ رُوحُهُ إِلَى عِلِّيِّينَ، وَدَمِعَتْ عَيْنَا الْإِمَامِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

❊❊❊

وَلَقَــدْ رَوَتْ بَعْضُ الْمَصَــادِرِ التَّارِيخِيَّةِ أَنَّ «بَنِي أَسَــدٍ» حِينَ دَفَنُوا قَتْلَاهُمْ نَسُوا «جَوْنًا» بِلَا دَفْنٍ، ثُمَّ جَاؤُوا إِلَى ذَلِكَ الْمَكَانِ بَعْدَ عَشَرَةِ أَيَّامٍ، فَوَجَدُوا جُثَّةَ «جَوْنٍ» تَفُوحُ مِنْهَا رَائِحَةُ الْمِسْــكِ وَالْعَنْبَرِ، وَلَمْ يَتَغَيَّرْ فِيهَا شَيْءٌ، وَهِيَ لَا تَزَالُ نَدِيَّةً!!

***

وَهَكَذَا وَدَّعَ «جَوْنٌ» الْحَيَاةَ وَهُوَ مُطْمَئِنُّ الْبَالِ، مُرْتَاحُ الضَّمِيرِ، رَضِيُّ النَّفْسِ وَالْقَلْبِ.

وَلَقَدْ سَــاهَمَ مَعَ السَّابِقِينَ مِنْ أَصْحَابِ «الْحُسَــيْنِ» وَإِخْوَانِهِ فِي دَقِّ إِسْفِينٍ عَمِيقٍ فِي صَرْحِ حُكْمِ بَنِي أُمَيَّةَ، لَمْ يَلْبَثْ أَنْ زَلْزَلَهُ وَقَوَّضَهُ.

وَكَانَ دَمُهُ الطَّاهِرُ وَدَمُ إِخْوَانِهِ الْأَبْرَارِ شَــهَادَةَ حَــقٍّ وَصِدْقٍ عِنْدَ اللهِ تَعَالَى، وَلَطْخَةَ عَارٍ وَشَــنَارٍ فِي جَبِينِ «يَزِيدَ» وَ«ابْنِ زِيَادٍ» وَ«ابْنِ سَــعْدٍ» وَمَنْ نَسَجَ عَلَى مِنْوَالِهِمْ مِنَ الطُّغَاةِ وَالظَّلَمَةِ.

***

رَحِمَ اللهُ «جَوْنًا» مَوْلَى «أَبِــي ذَرٍّ الْغِفَارِيِّ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، كِفَاءَ مَا صَدَقَ فِي الْعَطَاءِ وَالْبَذْلِ وَالتَّضْحِيَةِ، وَأَنْزَلَهُ مَنَازِلَ الْأَبْرَارِ الصَّالِحِينَ.

عَابِسُ بْنُ أَبِي شَبِيبٍ

قَالَ اللهُ تَعَالَى:

﴿ يَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ ٣٠ مِثۡلَ دَأۡبِ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ ٣١ وَيَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ ٣٢ يَوۡمَ تُوَلُّونَ مُدۡبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۗ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ ﴾.

***

وَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ:

«لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ، وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَلَتَأْخُذُنَّ عَلَى يَدِ الظَّالِمِ أَخْذًا، وَلَتَأْطُرُنَّهُ عَلَى الْحَقِّ أَطْرًا، أَوْ لَيُسَلِّطَنَّ اللهُ عَلَيْكُمْ شِرَارَكُمْ، حَتَّى يَدْعُوَ خِيَارُكُم فَلَا يُسْتَجَابُ لَهُمْ».

تَوْطِئَةٌ

إِنَّ شَخْصِيَّةَ «الْحُسَيْنِ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وَمَا سَرَى إِلَيْهِ مِنْ صِفَاتِ جَدِّهِ الْمُصْطَفَى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ الْخُلُقِيَّةِ وَالْخِلْقِيَّةِ، كَانَتْ نِبْرَاسًا مُضِيئًا يَسْرِي شُعَاعُهُ النَّفَّاذُ الْقَوِيُّ فِي صَمِيمِ وِجْدَانِ إِخْوَانِهِ وَأَصْحَابِهِ الَّذِينَ آلُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنْ يَفْتَدُوهُ بِأَرْوَاحِهِمْ وَبِكُلِّ غَالٍ وَنَفِيسٍ لَدَيْهِمْ.

فَمَا لَبِثُوا أَنْ تَسَاقَطُوا وَاحِدًا إِثْرَ الْآخَرِ، وَكُلٌّ مِنْهُمْ يُرَدِّدُ مَأْثُورَ الْحِكْمَةِ وَبَلِيغَ الْكَلِمِ:

جَادُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِ سَيِّدِهِمْ
وَقَدْ رَأَوْا لُبْثَهُمْ مِنْ بَعْدِهِ عَارَا

سَبْعِينَ مَوْلًى كَرِيمًا مَا بَكَى لَهُمُ
بَاكٍ، وَلَا أَحَدٌ يَوْمًا لَهُم وَارَى

نَائِينَ رَهْنَ الْفَيَافِي مَا تَرَى لَهُمُ
غَيْرَ الظِّبَاءِ وَوَحْشِ الْأَرْضِ زُوَّارَا

يَا أَقْبُرًا بِعِرَاصِ الطَّفِّ هِجْتَ لَنَا
حُزْنًا يُؤَجِّجُ فِي أَحْشَائِنَا نَارَا

***

وَالْحُزْنُ وَحْدَهُ لَا يُؤَدِّي حَقَّ «الْحُسَيْنِ» عَلَيْنَا؛ لِأَنَّ إِيمَانَهُ بِالْحَقِّ وَشَجْبَهُ لِلظُّلْمِ، وَثَوْرَتَهُ فِي وَجْهِ الطُّغْيَانِ وَالِاسْتِبْدَادِ، وَدِفَاعَهُ عَنِ الْمَبْدَإِ، وَخُرُوجَهُ لِتَقْوِيمِ الِانْحِرَافِ... كُلُّ ذَلِكَ مَدْعَاةٌ لِرَفْعِ رَايَةِ الْجِهَادِ وَالنِّضَالِ، وَالِاسْتِمْرَارِيَّةِ فِي ذَلِكَ.

قَالَ الْمُصْطَفَى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ:

«الْجِهَادُ مَاضٍ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ».

وَنَادَى «الْحُسَيْنُ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فِي النَّاسِ مِنْ جَيْشِ «ابْنِ سَعْدٍ» قَائِلًا:

- أَمَّا بَعْدُ، فَانْسُبُونِي مَنْ أَنَا، ثُمَّ ارْجِعُوا إِلَى أَنْفُسِكُمْ وَعَاتِبُوهَا، فَانْظُرُوا هَلْ يَحِلُّ لَكُمْ قَتْلِي وَانْتِهَاكُ حُرْمَتِي؟! أَلَسْتُ ابْنَ بِنْتِ نَبِيِّكُمْ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَابْنَ وَصِيِّهِ وابْنَ ابْنِ عَمِّهِ، وَأَوَّلِ الْمُؤْمِنِينَ بِهِ وَالْمُصَدِّقِ لِرَسُولِهِ بِمَا جَاءَ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِ؟!

أَوَلَيْسَ حَمْزَةُ سَيِّدُ الشُّهَدَاءِ عَمَّ أَبِي؟! أَوَلَيْسَ جَعْفَرٌ الشَّهِيدُ الطَّيَّارُ ذُو الْجَنَاحَيْنِ عَمِّي؟! أَوَلَمْ يَبْلُغْكُمْ قَوْلٌ مُسْتَفِيضٌ فِيكُمْ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ لِي وَلِأَخِي:

«هَذَانِ سَيِّدَا شَبَابِ أَهْلِ الْجَنَّةِ».

فَإِنْ صَدَّقْتُمُونِي بِمَا أَقُولُ ـ وَهُوَ الْحَقُّ ـ فَوَاللهِ مَا تَعَمَّدْتُ كَذِبًا مُذْ عَلِمْتُ أَنَّ اللهَ يَمْقُتُ عَلَيْهِ أَهْلَهُ، وَيَضُرُّ بِهِ مَنِ اخْتَلَقَهُ، وَإِنْ كَذَّبْتُمُونِي فَإِنَّ فِيكُمْ مَنْ إِنْ سَأَلْتُمُوهُ عَنْ ذَلِكَ أَخْبَرَكُمْ، سَلُوا «جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللهِ الْأَنْصَارِيَّ»

أَوْ «أَبَا سَعِيدٍ الْخُدْرِيَّ» أَوْ «سَهْلَ بْنَ سَعْدٍ السَّاعِدِيَّ» أَوْ «زَيْدَ بْنَ أَرْقَمَ» أَوْ «أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ» يُخْبِرُوكُمْ أَنَّهُمْ سَمِعُوا هَذِهِ الْمَقَالَةَ مِنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، لِي وَلِأَخِي. أَفَمَا هَذَا حَاجِزٌ لَكُمْ عَنْ سَفْكِ دَمِي؟!

فَإِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ هَذَا الْقَوْلِ، أَفَتَشُكُّونَ أَيْضًا أَنِّي ابْنُ بِنْتِ نَبِيِّكُمْ؟! فَوَاللهِ مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ ابْنُ بِنْتِ نَبِيٍّ غَيْرِي مِنْكُمْ وَلَا مِنْ غَيْرِكُمْ!!

أَخْبِرُونِي: أَتَطْلُبُونِي بِقَتِيلٍ مِنْكُمْ قَتَلْتُهُ؟! أَوْ مَالٍ لَكُمُ اسْتَهْلَكْتُهُ؟! أَوْ بِقِصَاصٍ مِنْ جِرَاحَةٍ؟!

وَذَهَبَتْ أَقْوَالُ «الْحُسَيْنِ» وَنَدَاءَاتُهُ وَحُجَجُهُ فِي سَمَاءِ كَرْبَلَاءَ هَبَاءً مَنْثُورًا، وَتَاهَتْ فِي أَجْوَازِ الْفَضَاءِ كَالْهَشِيمِ تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ!!

فَلَوْ أَنَّ قُلُوبًا قُدَّتْ مِنَ الصُّخُورِ لَأَصَاخَتْ وَاسْتَمَعَتْ، لَكِنَّ «ابْنَ سَعْدٍ» وَ«شِمِرًا» وَأَعْوَانَهُمَا عَلَى الْبَاطِلِ أَشَدُّ نُكْرَانًا لِلْحَقِّ مِنْ إِبْلِيسَ! قَدْ صُمَّتْ آذَانُهُمْ، وَتَحَجَّرَتْ عَوَاطِفُهُمْ، وَجَمُدَتْ أَفْئِدَتُهُمْ، وَعَدِمُوا الْإِحْسَاسَ، فَأَضَاعُوا الْإِيمَانَ!

❊❊❊

وَكَانَ «عَابِسُ بْنُ أَبِي شَبِيبٍ» يَقِفُ بِإِزَاءِ «الْحُسَيْنِ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ كَالْأَسَدِ الْمُتَحَفِّزِ لِلْوُثُوبِ، يُرْسِلُ نَظَرَاتِهِ إِلَى الْأُفُقِ الْبَعِيدِ، ثُمَّ يَصْعَدُ بِهَا إِلَى السَّمَاءِ فِي حَيْرَةٍ وَأَمَلٍ.

ثُمَّ رَبَّتَ عَلَى كَتِفِ «الْحُسَيْنِ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وَلَوَى عِنَانَ فَرَسِهِ، وَعَادَا جَمِيعًا إِلَى الْمُعَسْكَرِ، وَقَدْ أَدْرَكَا بِأَنَّ الْقَوْمَ لَنْ يَسْتَجِيبُوا فَيُخَلُّوا بَيْنَ «الْحُسَيْنِ» وَمَقْصِدِهِ، أَوْ يَتْرُكُوهُ يَعُودُ مِنْ حَيْثُ أَتَى، وَأَنَّهُمْ إِنَّمَا أَحَاطُوا بِهِ لِيَقْتُلُوهُ، وَيَبُوءُوا بِإِثْمِ مَا تَقْتَرِفُهُ أَيْدِيهِمْ!

وَحَاوَلَ «زُهَيْرُ بْنُ الْقَيْنِ» نَفْسَ الْمُحَاوَلَةِ، وَلَكِنْ عَلَى غَيْرِ جَدْوَى، وَمِنْ دُونِ أَدْنَى فَائِدَةٍ، بَلْ أَقْذَعُوا فِي سَبِّهِ وَشَتْمِهِ، وَرَمَاهُ «شَمِرُ بْنُ ذِي الْجَوْشَنِ» بِسَهْمٍ، وَقَالَ لَهُ:

ـ اسْكُتْ... أَسْكَتَ اللهُ نَأْمَتَكَ، أَبَرَمْتَنَا بِكَثْرَةِ كَلَامِكَ!

فَرَدَّ عَلَيْهِ «زُهَيْرٌ»:

ـ يَا ابْنَ الْبَوَّالِ عَلَى عَقِبَيْهِ! مَا إِيَّاكَ أُخَاطِبُ، إِنَّمَا أَنْتَ بَهِيمَةٌ! وَاللهِ مَا أَظُنُّكَ تُحْكِمُ مِنْ كِتَابِ اللهِ آيَتَيْنِ، فَأَبْشِرْ بِالْخِزْيِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالْعَذَابِ الْأَلِيمِ.

وَبَيْنَمَا هُوَ فِي حِوَارِهِ مَعَ الْقَوْمِ وَمُخَاطَبَتِهِ لَهُمْ، أَرْسَلَ إِلَيْهِ «الْحُسَيْنُ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مَنْ يَقُولُ لَهُ:

ـ إِنَّ «أَبَا عَبْدِ اللهِ» يَقُولُ لَكَ: أَقْبِلْ، فَلَعَمْرِي لَئِنْ كَانَ مُؤْمِنُ آلِ فِرْعَوْنَ نَصَحَ لِقَوْمِهِ وَأَبْلَغَ فِي الدُّعَاءِ، فَقَدْ نَصَحْتَ ـ أَنْتَ ـ لِهَؤُلَاءِ وَأَبْلَغْتَ، لَوْ نَفَعَ النُّصْحُ وَالْإِبْلَاغُ!

فَعَادَ «زُهَيْرٌ» إِلَى صُفُوفِ الْإِمَامِ «الْحُسَيْنِ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ الَّذِي دَعَا لَهُ بِخَيْرٍ، سَائِلًا اللهَ تَعَالَى أَنْ يُثِيبَ أَصْحَابَهُ مِنْ أَهْلِ الْجِهَادِ وَالْجِلَادِ وَالتَّضْحِيَةِ وَالثَّبَاتِ عَلَى الْحَقِّ، أَجْزَلَ الثَّوَابِ وَأَعْظَمَهُ، وَأَنْ يُنْزِلَهُمْ مِنْ لَدُنْهُ مَنْزِلًا مُبَارَكًا.

وَحِينَ أَزِفَتِ الْآزِفَةُ، وَحَمَلَ «ابْنُ سَعْدٍ» عَلَى مُعَسْكَرِ «الْحُسَيْنِ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وَتَلَاقَتِ الرِّمَاحُ فَتَقَصَّفَتْ، وَاشْتَبَكَتِ السُّيُوفُ فَتَثَلَّمَتْ، وَتَسَاقَطَ الْأَبْطَالُ مِنْ أَصْحَابِ «الْحُسَيْنِ» وَإِخْوَانِهِ بَيْنَ مَحْزُوزِ الرَّأْسِ مُعَفَّرٍ بِالدَّمِ وَالتُّرَابِ، أَوْ مَطْرُوحٍ بِالْبَيْدَاءِ قَدْ تَبَعْثَرَتْ أَطْرَافُهُ وَتَقَطَّعَتْ أَوْصَالُهُ، أَوْ مُلْقًى عَلَى بَابِ خَيْمَةٍ تَنْزِفُ مِنْهُ الدِّمَاءُ!!

فَهَا هُوَ «عَبْدُ اللهِ بْنُ عُمَيْرٍ» وَامْرَأَتُهُ «أُمُّ وَهْبٍ» قَدْ تَعَانَقَا الْعِنَاقَ الْأَخِيرَ، مُضَرَّجَيْنِ بِالدِّمَاءِ، يُزَفَّانِ مِنْ جَدِيدٍ إِلَى رِضْوَانِ اللهِ...

وَهَا هُوَ الْقَارِئُ الْعَابِدُ الْمُعَلِّمُ «بُرَيْرُ بْنُ حُضَيْرٍ» يُسْلِمُ الرُّوحَ وَقَدْ نَفَذَ سِنَانُ الرُّمْحِ فِي ظَهْرِهِ!

وَهَا هُوَ «مُسْلِمُ بْنُ عَوْسَجَةَ» يَلْفِظُ النَّفَسَ الْأَخِيرَ، وَقَدْ وَقَفَ الْإِمَامُ «الْحُسَيْنُ» فَوْقَ رَأْسِهِ يَقُولُ لَهُ:

- رَحِمَكَ رَبُّكَ يَا «مُسْلِمُ بْنَ عَوْسَجَةَ».

﴿ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴾.

وَهَا هُوَ «عَمْرُو بْنُ عَبْدِ اللهِ الصَّائِدِيُّ» وَ«حَبِيبُ بْنُ مُظَاهِرٍ» وَ«زُهَيْرُ

ابْنُ الْقَيْنِ» وَ«الْحُرُّ بْـنُ يَزِيدَ التَّمِيمِيُّ» وَ«نَافِعُ بْنُ هِلَالٍ» يَرِدُونَ الْمَوْتَ أَشْهَى مَطْعَمًا، وَأَصْفَى شَرَابًا، وَيَسْتَعْذِبُونَ الشَّهَادَةَ فِي سَبِيلِ اللهِ؛ دِفَاعًا عَنِ الْحَقِّ وَأَهْلِهِ، وَيُشْهِدُونَ الدُّنْيَا عَلَى ظُلْمِ الظَّالِمِينَ، وَغَدْرِ الْجَبَّارِينَ!

❋❋❋

وَأَيْنَ يَكُونُ «عَابِسُ بْنُ أَبِي شَبِيبٍ» فِي كُلِّ هَذَا؟!

لَقَدْ عُرِفَ عَنْ «عَابِسِ بْنِ أَبِي شَـبِيبٍ الشَّـاكِرِيِّ» أَنَّهُ مِنَ الْفُرْسَـانِ الْمَعْدُودِينَ.. بَطَلُ مَيْدَانٍ، وَمُقَارِعُ شُـجْعَانٍ، فَكَمْ مِنْ حَرْبٍ خَاضَهَا، وَكَمْ مِنْ مَعْرَكَةٍ بَرَّزَ فِيهَا أَثْنَاءَ الْفُتُوحِ الْإِسْلَامِيَّةِ، وَقَدْ حَمَلَ مِنْهَا وِسَامًا فِي جَبِينِهِ جُرْحًا بَلِيغًا بَقِيَ أَثَرُهُ لَا يُفَارِقُهُ.

وَلَقَدْ لَقَّبَهُ الْقَاصِي وَالدَّانِي بِـ «الْأَسَـدِ الْأَسْوَدِ»، وَاشْتُهِرَ بِهَذَا اللَّقَبِ الَّذِي يَنْضَحُ شَجَاعَةً، وَيَفِيضُ إِقْدَامًا، وَاعْتَزَّ بِهِ صَاحِبُهُ أَيَّمَا اعْتِزَازٍ.

وَمَنْ كَانَتْ هَـذِهِ خِلَالُهُ وَصِفَاتُهُ، فَـالْأَوْلَى أَنْ لَا يُسْـأَلَ عَنْ مَكَانِهِ وَمَوْقِعِهِ؛ إِذْ كَانَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فِي قَلْبِ الْأَتُونِ اللَّاهِبِ يُفَرِّقُ الصُّفُوفَ، وَيُجَابِهُ الْجُمُوعَ، وَيَضْرِبُ الْهَامَاتِ وَالـرُّءُوسَ، فَتَتَهَاوَى الْقُلُوبُ مِنْ أَمَاكِنِهَا جَزَعًا وَرُعْبًا.

إِذَا مَا بَدَا، فَرَّ مِنْ أَمَامِهِ الْعِدَا، وَإِذَا مَا ضَرَبَ، طَلَبَ الشُّجْعَانُ وَالْفُرْسَانُ الْهَرَبَ، وَإِذَا مَا زَأَرَ تَلَجْلَجَ الْقَوْسُ بِالْوَتَرِ!

❋❋❋

وَكَثُرَ الشُّـــهَدَاءُ وَالصَّرْعَى فِي صُفُوفِ الْإِمَامِ «أَبِي عَبْدِ اللهِ الْحُسَيْنِ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، يُوَدِّعُهُـــمْ وَاحِدًا إِثْرَ آخَرَ، حَتَّى كَانَ دَوْرُ «عَابِسٍ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

فَجَاءَ إِلَى «الْحُسَيْنِ» مُسَلِّمًا وَمُوَدِّعًا وَمُسْتَأْذِنًا، وَمَعَهُ «شَوْذَبٌ» مَوْلَى «شَاكِرٍ»، أَحَدُ أَتْبَاعِهِ، وَرَاحَ «شَوْذَبٌ» يُزَاحِمُ «عَابِسًا» وَيَتَقَدَّمُهُ، فَقَالَ لَهُ «عَابِسٌ» مُتَسَائِلًا:

- يَا «شَوْذَبُ»... مَا فِي نَفْسِكَ أَنْ تَصْنَعُ؟

فَقَالَ «شَوْذَبٌ»:

- أُقَاتِلُ مَعَكَ دُونَ ابْنِ بِنْتِ رَسُـــولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ حَتَّى أُقْتَلَ!

فَابْتَسَمَ «عَابِسٌ» وَقَالَ:

- ذَلِكَ الظَّـــنُّ بِكَ، وَلِمَ لَا؟! فَتَقَـــدَّمْ بَيْنَ يَدَيْ «أَبِي عَبْـــدِ اللهِ»؛ حَتَّى يَحْتَسِـــبَكَ كَمَا احْتَسَبَ غَيْرَكَ مِنْ أَصْحَابِهِ، وَحَتَّى أَحْتَسِبَكَ أَنَا، فَإِنَّهُ لَوْ كَانَ مَعِي السَّـــاعَةَ أَحَدٌ أَنَا أَوْلَى بِهِ مِنِّي لَسَـــرَّنِي أَنْ يَتَقَدَّمَ بَيْنَ يَدَيَّ حَتَّى أَحْتَسِبَهُ، فَإِنَّ هَذَا يَوْمٌ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَطْلُبَ الْأَجْرَ فِيهِ بِكُلِّ مَا قَدَرْنَا عَلَيْهِ، فَإِنَّهُ لَا عَمَلَ بَعْدَ الْيَوْمِ، وَإِنَّمَا هُوَ الْحِسَابُ!

فَتَقَدَّمَ «شَـــوْذَبٌ» مِنَ «الْحُسَيْنِ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فَسَلَّمَ عَلَيْهِ وَاسْتَوْدَعَهُ إِيمَانَهُ وَجِهَادَهُ، فَدَعَا لَهُ «الْحُسَـــيْنُ» ، وَاحْتَسَبَهُ عِنْدَ اللهِ تَعَالَى شَهِيدًا فِي

الصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِهِ، الذَّائِدِينَ عَنْ حِمَى الْحَقِّ، الْبَاذِلِينَ الرُّوحَ رَخِيصَةً دِفَاعًا عَنْ أَهْلِ بَيْتِ نَبِيِّهِ.

وَمَا هِيَ إِلَّا جَوْلَةٌ حَتَّى كَانَ «شَوْذَبٌ» يُسْلِمُ الرُّوحَ، وَيَسْلُكُ مَعَ السَّابِقِينَ مِنْ إِخْوَانِهِ الشُّهَدَاءِ صِرَاطَ السَّمَاءِ.

ثُمَّ تَقَدَّمَ «عَابِسُ بْنُ أَبِي شَبِيبٍ» مِنَ «الْحُسَيْنِ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وَقَالَ:

ـ يَا «أَبَا عَبْدِ اللهِ»، أَمَا وَاللهِ مَا أَمْسَى عَلَى ظَهْرِ الْأَرْضِ قَرِيبٌ وَلَا بَعِيدٌ أَعَزَّ عَلَيَّ وَلَا أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْكَ، وَلَوْ قَدَرْتُ أَنْ أَدْفَعَ عَنْكَ الضَّيْمَ وَالْقَتْلَ بِشَيْءٍ أَعَزَّ عَلَيَّ مِنْ نَفْسِي وَدَمِي لَفَعَلْتُهُ... السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا «أَبَا عَبْدِ اللهِ».. أُشْهِدُ اللهَ عَلَى أَنِّي عَلَى هَدْيِكَ وَهَدْيِ أَبِيكَ.

ثُمَّ مَشَى بِالسَّيْفِ مُصْلَتًا نَحْوَهُمْ، وَجُرْحُهُ فِي جَبِينِهِ يَتَلَأْلَأُ نُورًا، وَوَجْهُهُ وَهُوَ يَسْتَقْبِلُ الْمَوْتَ يَشِعُّ إِشْرَاقًا وَحُبُورًا.

وَدَمِعَتْ عَيْنَا «أَبِي عَبْدِ اللهِ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَهُوَ يُوَدِّعُ «عَابِسًا»، ثُمَّ يَسْتَوْدِعُهُ أَمَانَةً غَالِيَةً بَيْنَ يَدَيِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، الْعَدْلِ الَّذِي لَا تَضِيعُ عِنْدَهُ الْأَمَانَاتُ، وَالْحَقِّ الَّذِي يُؤْتِي وَيُوَفِّي الصَّابِرِينَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ.

يَقُولُ «رَبِيعُ بْنُ تَمِيمٍ» وَقَدْ شَهِدَ ذَلِكَ الْيَوْمَ؛ إِذْ كَانَ فِي صُفُوفِ جَيْشِ «ابْنِ سَعْدٍ».

ـ لَمَّا رَأَيْتُهُ ـ أَيْ «عَابِسَ بْنَ أَبِي شَبِيبٍ الشَّاكِرِيَّ» ـ مُقْبِلًا، عَرَفْتُهُ، وَقَدْ شَاهَدْتُهُ فِي الْمَغَازِي، وَكَانَ أَشْجَعَ النَّاسِ، فَقُلْتُ:

- أَيُّهَا النَّاسُ هَذَا «الْأَسَدُ الْأَسْوَدُ».. هَذَا «ابْنُ شَبِيبٍ».. لَا يَخْرُجَنَّ إِلَيْهِ أَحَدٌ مِنْكُمْ.

فَأَخَذَ يُنَادِي: أَلَا رَجُلٌ لِرَجُلٍ؟!!

فَقَالَ «عُمَرُ بْنُ سَعْدٍ»: ارْضَخُوهُ بِالْحِجَارَةِ.

قَالَ «رَبِيعُ بْنُ تَمِيمٍ»:

- فَرُمِيَ بِالْحِجَارَةِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ أَلْقَى دِرْعَهُ وَمِغْفَرَهُ، ثُمَّ شَدَّ عَلَى النَّاسِ، فَوَاللهِ لَرَأَيْتُهُ يَكْرُدُ - أَيْ يَطْرُدُ - أَكْثَرَ مِنْ مِئَتَيْنِ مِنَ النَّاسِ، ثُمَّ إِنَّهُمْ تَعَطَّفُوا عَلَيْهِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، فَقُتِلَ، ثُمَّ رَأَيْتُ رَأْسَهُ فِي أَيْدِي رِجَالٍ ذَوِي عُدَّةٍ، هَذَا يَقُولُ: أَنَا قَتَلْتُهُ، وَهَذَا يَقُولُ: أَنَا قَتَلْتُهُ، فَأَتَوْا «عُمَرَ بْنَ سَعْدٍ»، فَقَالَ:

- لَا تَخْتَصِمُوا، هَذَا لَمْ يَقْتُلْهُ سِنَانٌ وَاحِدٌ.

فَفَرَّقَ بَيْنَهُمْ بِهَذَا الْقَوْلِ.

***

﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴾.

وَسَمَتِ النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ إِلَى بَارِئِهَا طَائِعَةً لِأَمْرِ رَبِّهَا، وَلَحِقَتْ بِالَّذِينَ أَنْعَمَ عَلَيْهِمْ مِنَ الصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا.

مُسْلِمُ بْنُ عَقِيلٍ

طَلِيعَةُ الشُّهَدَاءِ

نَسَبُهُ وَنَشْأَتُهُ

هُوَ «مُسْلِمُ بْنُ عَقِيلِ بْنِ أَبِي طَالِبِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ بْنِ هَاشِمٍ»، مِنْ دَوْحَةٍ كَرِيمَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ، وُلِدَ أَبُوهُ فِي «مَكَّةَ الْمُكَرَّمَةِ»، وَتَأَخَّرَ إِسْلَامُهُ إِلَى عَامِ الْفَتْحِ، وَشَهِدَ مَعَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غَزْوَةَ «حُنَيْنٍ»، وَأَبْلَى فِيهَا بَلَاءً حَسَنًا، وَقَدْ ثَبَتَ عِنْدَمَا فَرَّ النَّاسُ، وَاشْتُهِرَ عَنْهُ عِلْمُهُ وَفَضْلُهُ وَشَرَفُهُ، وَقَدْ كَانَ مِنَ الْمُتَضَلِّعِينَ فِي عِلْمِ الْأَنْسَابِ، مُقَدَّمَ الرَّأْيِ، وَصَاحِبَ مَشُورَةٍ.

وَلَقَدْ رَبَّى «عَقِيلٌ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَبْنَاءَهُ عَلَى الْإِيمَانِ الْعَمِيقِ، وَالْخُلُقِ الرَّقِيقِ، وَالْفَهْمِ الدَّقِيقِ، فَكَانَ «مُسْلِمٌ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عُنْوَانًا طَيِّبًا لِهَذَا الْفَضْلِ وَلِهَذَا السَّبْقِ، وَكَانَ دَلِيلًا عَمَلِيًّا وَحِسِّيًّا عَلَى التَّفَانِي فِي سَبِيلِ الْحَقِّ، حَتَّى بَذَلَ الرُّوحَ وَاسْتَرْخَصَهَا فِي مَيْدَانِ مَعْرَكَةِ الْإِيمَانِ وَالثَّبَاتِ عَلَيْهِ.

تَزَوَّجَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فِي رَحْبَةِ الْإِسْلَامِ، وَشَبَّ فِي رِيَاضِ الْإِيمَانِ، وَأَيْنَعَ فِي جَنَّةِ الرَّحْمَنِ، وَأَسْلَمَ الرُّوحَ بِطُمَأْنِينَةِ الْوَاثِقِ مِنْ رِضَا الدَّيَّانِ.

كَانَ إِيمَانًا مُتَجَسِّدًا، وَفَهْمًا مُتَأَصِّلًا، وَلِسَانًا فَصِيحًا، وَرَأْيًا مُسَدَّدًا، وَلِهَذَا كُلِّهِ كَانَ فِي مَوْضِعِ ثِقَةِ الْإِمَامِ السِّبْطِ «الْحُسَيْنِ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فِي أَمْرٍ مَصِيرِيٍّ وَغَايَةٍ كُبْرَى.

لَقَدْ رَافَقَ «مُسْلِمٌ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ تَطَوُّرَاتِ الْأَحْدَاثِ كُلِّهَا وَهُوَ فِي الْمَدِينَةِ، مُنْذُ ذَرَّ الْخِلَافُ قَرْنَهُ، وَاسْتَبَدَّ «بَنُو أُمَيَّةَ» بِالسُّلْطَانِ، وَانْحَرَفُوا عَنْ جَادَّةِ الْحَقِّ، وَأَمْعَنُوا فِي جَعْلِهَا كِسْرَوِيَّةً.

كَانَ يُرَاقِبُهَا، ثُمَّ يُشَارِكُ حِينَ يَدْعُو دَاعِي الْمُشَارَكَةِ، أَوْ يُخُوضُ الْمَعْمَعَةَ غَيْرَ هَيَّابٍ وَلَا وَجِلٍ.

وَيَبْدُو أَنَّهُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ كَانَ يَقِفُ إِلَى جَانِبِ «الْحُسَيْنِ» حِينَ آلَمَتْهُ مَسْأَلَةُ «الْحَسَنِ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا ، فَلَمَّا أَخَذَ «مُعَاوِيَةُ» الْبَيْعَةَ لِـ «يَزِيدَ» فِي حَيَاتِهِ، وَامْتَنَعَ «الْحُسَيْنُ» عَنِ الْمُبَايَعَةِ وَقَصَدَ «مَكَّةَ»، خَرَجَ مَعَهُ «مُسْلِمٌ» بِأَهْلِهِ وَبَنِيهِ لَا يُفَارِقُهُ وَلَا يَخْذُلُهُ.

أَقَامَ «مُسْلِمٌ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مَعَ ابْنِ عَمِّهِ «الْحُسَيْنِ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فِي مَكَّةَ يَرْفُضَانِ بِإِبَاءٍ وَشَمَمٍ أَنْ يُبَايِعَا «يَزِيدَ»، مُسَلِّمَيْنِ إِلَيْهِ مُقَدَّرَاتِ أُمَّةٍ، وَمِيرَاثَ نُبُوَّةٍ.

فِي ذَلِكَ الْحِينِ أَخَذَتْ وُفُودُ الْعِرَاقِ تَأْتِي «الْحُسَيْنَ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ حَامِلَةً إِلَيْهِ رَسَائِلَ الدَّعْوَةِ، يَسْتَحِثُّونَهُ فِيهَا لِيَقْدُمَ عَلَيْهِمْ فَيُبَايِعُوهُ، عِوَضًا عَنْ «يَزِيدَ بْنِ مُعَاوِيَةَ»، ذَاكِرِينَ فِي تِلْكَ الْكُتُبِ وَالرَّسَائِلِ فَرَحَهُمْ بِمَوْتِ «مُعَاوِيَةَ»، وَخَلَاصَهُمْ مِنْ شُرُورِهِ وَآثَامِهِ، وَأَنَّهُمْ لَمْ يُبَايِعُوا أَحَدًا حَتَّى الْآنَ، وَهُمْ بِانْتِظَارِهِ لِيُوَسِّدُوا إِلَيْهِ أَمْرَهُمْ وَشُؤُونَهُمْ بِمُبَايَعَتِهِ.

وَكَانَ «مُسْـــلِمٌ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فِي ذَلِكَ الْحِينِ يَشْتَعِلُ حَمَاسًا، وَيَتَّقِدُ إِيمَانًا، وَلَا يُغَادِرُ «الْحُسَـــيْنَ» لَحْظَةً، فَهُوَ بَيْنَ يَدَيْهِ دَائِمًا وَأَبَدًا، إِيجَابِيَّ الرَّأْيِ وَالْكَلِمَةِ.

وَلَمَّا رَأَى «الْحُسَـــيْنُ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ هَذِهِ الضُّغُوطَ الْمُتَكَاثِرَةَ، وَهَذِهِ الْوُفُودَ الْمُتَتَابِعَةَ، وَالدَّعَوَاتِ الْمُتَوَاتِرَةَ، لَمْ يَشَـــأْ أَنْ يَذْهَبَ بِنَفْسِهِ وَأَهْلِهِ قَبْلَ أَنْ يَسْتَوْثِقَ مِنَ الْحَقِيقَةِ، فَمَنْ يَا تُرَى هَذَا الْكُفُؤُ الَّذِي يَسْتَطِيعُ بِثَاقِبِ فِكْرِهِ وَقُوَّةِ مَنْطِقِهِ، وَسَعَةِ دِرَايَتِهِ وَتَقْدِيرِهِ أَنْ يُقَيِّمَ الْأُمُورَ؟!

إِنَّهُ وَلَا شَكَّ «مُسْـــلِمُ بْنُ عَقِيلٍ».. طَلِيعَةُ مَوْكِبِ «الْحُسَيْنِ» إِلَى أَهْلِ «الْكُوفَةِ» وَأَصْحَابِ الدَّعْوَةِ. فَكَتَبَ إِلَيْهِمْ كِتَابًا قَالَ فِيهِ:

«بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ مِنَ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ إِلَى الْمَلَإِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ «هَانِئًا» وَ«سَـــعِيدًا» قَدِمَا إِلَيَّ بِكُتُبِكُمْ، وَكَانَا آخِرَ مَنْ قَدِمَ إِلَيَّ مِنْ رُسُـــلِكُمْ، وَقَدْ فَهِمْتُ مَا ذَكَرْتُمُوهُ؛ أَنَّـــهُ لَيْسَ لَكُمْ إِمَامٌ غَيْرِي، وَتَسْـــأَلُونِي الْقُدُومَ إِلَيْكُمْ؛ لَعَلَّ اللهَ يَجْمَعُكُمْ عَلَى الْحَقِّ وَالْهُدَى، وَإِنِّي بَاعِثٌ إِلَيْكُمْ أَخِي وَابْنَ عَمِّي الْمُفَضَّلَ عِنْدِي مِنْ أَهْلِ بَيْتِي «مُسْـــلِمَ بْنَ عَقِيلٍ»، وَقَدْ أَمَرْتُهُ أَنْ يَكْتُبَ لِي بِحُسْنِ رَأْيِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ، وَأَنَا أَقْدَمُ إِلَيْكُمْ إِنْ شَاءَ اللهُ».

ثُمَّ دَعَا «الْحُسَـــيْنُ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إِلَيْهِ «مُسْلِمَ بْنَ عَقِيلٍ»، وَأَمَرَهُ بِتَقْوَى اللهِ وَاللُّطْفِ بِالنَّاسِ، فَإِنْ رَأَى النَّاسَ مُجْتَمِعِينَ عَلَى رَأْيِهِ يُعَجِّلْ لَهُ بِالْخَبَرِ.

حَمَلَ «مُسْلِمٌ» الْأَمَانَةَ، وَوَدَّعَ أَهْلَهُ، وَوَصَّاهُمْ خَيْرًا، وَمَضَى فِي سَبِيلِ اللهِ، فَلَمَّا بَلَغَ «الْمَدِينَةَ» أَخَذَ مَعَهُ دَلِيلَيْنِ يَهْدِيَانِهِ الطَّرِيقَ.

كَانَتِ الرِّحْلَةُ شَاقَّةً مُضْنِيَةً، وَالطَّرِيقُ وَعْرَةً مُقْفِرَةً، وَاللَّيَالِي مُوحِشَةً، فَلَمَّا بَلَغُوا مَكَانًا يُسَمَّى «الْمَضِيقَ» هَلَكَ أَحَدُ الدَّلِيلَيْنِ، فَتَطَيَّرَ «مُسْلِمٌ» وَتَشَاءَمَ، فَكَتَبَ إِلَى «الْحُسَيْنِ» يَعْتَذِرُ، وَأَقَامَ يَنْتَظِرُ وُرُودَ بَيَانٍ، وَفِي تِلْكَ الْأَثْنَاءِ هَلَكَ الدَّلِيلُ الْآخَرُ، وَجَاءَ رَدُّ «الْحُسَيْنِ»:

«بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ مِنَ «الْحُسَيْنِ» إِلَى ابْنِ عَمِّهِ «مُسْلِمِ بْنِ عَقِيلٍ» إِذَا قَرَأْتَ كِتَابِي هَذَا فَامْضِ عَلَى مَا أَمَرْتُكَ. وَالسَّلَامُ».

عِنْدَئِذٍ لَمْ يَجِدْ «مُسْلِمٌ» مَفَرًّا مِنْ مُتَابَعَةِ أَدَاءِ الْأَمَانَةِ وَتَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ.

وَهُنَا نُحِبُّ أَنْ نَتَوَقَّفَ قَلِيلًا قَبْلَ مُتَابَعَةِ السَّرْدِ لِتَحْلِيلِ الدَّافِعِ الَّذِي حَدَا بِـ «مُسْلِمٍ» إِلَى أَنْ يَعْتَذِرَ، فَنَتَسَاءَلُ: هَلْ هُوَ الْيَأْسُ؟ أَمِ الْخَوْفُ؟ لَا هَذَا وَلَا ذَاكَ، فَلَمْ يَكُنْ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لِيَيْأَسَ أَبَدًا أَوْ يُخَالِجَهُ الْقُنُوطُ، كَمَا أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِيَخْشَى إِلَّا اللهَ تَعَالَى، إِذْ فَقَدْ كَانَتْ رَغْبَتُهُ فِي نَجَاحِ الْمُهِمَّةِ وَبُلُوغِ غَايَتِهَا هِيَ الْحَافِزَ إِلَى التَّشَاؤُمِ مِنْ مَوْتِ الدَّلِيلَيْنِ اللَّذَيْنِ اصْطَحَبَهُمَا مَعَهُ، فَاعْتَذَرَ إِلَى «الْحُسَيْنِ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

❊❊❊

بَلَغَ «مُسْلِمٌ» الْكُوفَةَ لَيْلًا، فَيَمَّمَ وَجْهَهُ شَطْرَ دَارِ «سُلَيْمَانَ بْنِ صُرَدٍ» فَاسْتَقْبَلَهُ «سُلَيْمَانُ» مُرَحِّبًا هَاشًّا بَاشًّا، وَآوَاهُ عِنْدَهُ، فَلَمَّا أَصْبَحَ الصَّبَاحُ

وَأَسْفَرَتِ الشَّمْسُ عَنْ وَجْهِهَا، تَهَامَسَ أَنْصَارُ «الْحُسَيْنِ» بِقُدُومِ «مُسْلِمٍ»، ثُمَّ هُرِعُوا إِلَيْهِ يُسَلِّمُونَ عَلَيْهِ، وَيُلْقُونَ بِمَقَالِيدِ أُمُورِهِمْ بَيْنَ يَدَيْهِ، ثُمَّ قَرَأَ عَلَيْهِمْ كِتَابَ التَّفْوِيضِ الَّذِي حَمَّلَهُ إِيَّاهُ «الْحُسَيْنُ»، فَانْهَمَرَتْ دُمُوعُهُمْ وَجَعَلُوا يَنْتَحِبُونَ، وَرَاحُوا يَتَنَاوَبُونَ عَلَى الْكَلَامِ، فَقَالَ أَحَدُهُمْ:

- إِنِّي لَسْتُ أَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِ النَّاسِ، وَلَكِنْ أُخْبِرُكَ بِمَا فِي نَفْسِي، إِذَا دَعَوْتُمُونِي أَجَبْتُكُمْ، وَأَضْرِبُ بِسَيْفِي عَدُوَّكُمْ حَتَّى أَلْقَى اللهَ عَزَّ وَجَلَّ.

ثُمَّ قَامَ رَجُلٌ آخَرُ، وَقَالَ:

- يَرْحَمُكَ اللهُ؛ فَقَدْ قَضَيْتَ مَا عَلَيْكَ، وَأَنَا وَاللهِ عَلَى مِثْلِ ذَلِكَ.

وَتَدَفَّقَ النَّاسُ عَلَى دَارِ «سُلَيْمَانَ بْنِ صُرَدٍ»، وَجَعَلُوا يُبَايِعُونَ «مُسْلِمًا» حَتَّى بَايَعَهُ ـ كَمَا قِيلَ ـ ثَمَانُونَ أَلْفَ رَجُلٍ! وَرَأَى «عَبْدُ اللهِ بْنُ الْحَضْرَمِيِّ» هَذِهِ الْكَثْرَةَ وَهَذَا التَّحَوُّلَ مِنْ أَهْلِ الْكُوفَةِ ـ وَكَانَ مِنْ أَنْصَارِ «يَزِيدَ بْنِ مُعَاوِيَةَ» ـ فَهَالَهُ الْأَمْرُ، فَأَسْرَعَ إِلَى وَالِي الْكُوفَةِ «النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ» صَاحِبِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَقَالَ لَهُ:

- إِنَّكَ ضَعِيفٌ، أَوْ مُتَضَعِّفٌ... لَقَدْ فَسَدَتِ الْبِلَادُ!

فَقَالَ لَهُ «النُّعْمَانُ»:

- أَنْ أَكُونَ ضَعِيفًا وَأَنَا فِي طَاعَةِ اللهِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَكُونَ قَوِيًّا فِي مَعْصِيَةِ اللهِ، وَمَا كُنْتُ لِأَهْتِكَ سِتْرًا سَتَرَهُ اللهُ.

ثُمَّ نَادَى «النُّعْمَانُ» بِالنَّاسِ: الصَّلَاةُ جَامِعَةٌ.

فَلَمَّا اجْتَمَعُوا فِي الْمَسْجِدِ، وَقَفَ فِيهِمْ خَطِيبًا، وَقَالَ:

- مَعَاشِـــرَ النَّاسِ، وَاللهِ إِنِّي لَا أُقَاتِلُ مَنْ لَا يُقَاتِلُنِي، وَلَا أَتَحَرَّشُ بِمَنْ لَا يَتَحَرَّشُ بِي، فَاحْذَرُوا الْفِتْنَةَ، وَشَـــقَّ الْعَصَا عَلَى السَّلَاطِينِ، فَإِنْ صَحَّ ذَلِـــكَ عِنْدِي عَلَى أَحَدٍ مِنْكُمْ لَأَضْرِبَنَّ عُنُقَهُ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ لِي نَاصِرٌ وَلَا مُعِينٌ!

لَمْ يُسَـــرَّ «عَبْدُ اللهِ بْنُ الْحَضْرَمِيِّ» مِنْ كَلَامِ «النُّعْمَانِ»، وَلَمْ يَجِدْ فِيهِ التَّحْذِيرَ الْكَافِيَ وَالرَّدْعَ الشَّـــدِيدَ، فَخَرَجَ مُغْضَبًا، وَكَتَبَ إِلَى «يَزِيدَ» كِتَابًا يَقُولُ فِيهِ:

«مِنْ «عَبْدِ اللهِ بْـــنِ الْحَضْرَمِيِّ» إِلَى «يَزِيدَ بْنِ مُعَاوِيَـــةَ»، أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ «مُسْلِمَ بْنَ عَقِيلٍ» وَرَدَ الْكُوفَةَ، وَقَدْ بَايَعَهُ شِيعَةُ «الْحُسَيْنِ»، فَإِنْ كَانَ لَـــكَ فِي الْكُوفَةِ حَاجَةٌ، فَأَنْفِذْ إِلَيْهَا رَجُلًا قَوِيًّا؛ فَإِنَّ «النُّعْمَانَ» ضَعِيفٌ وَيَتَضَاعَفُ».

فَلَمَّا وَصَلَ الْكِتَابُ إِلَى «يَزِيدَ» وَقَرَأَهُ، ارْبَدَّ وَجْهُهُ، فَدَعَا مَوْلًى لَهُ اسْمُهُ «سَرْجُونٌ»، وَقَالَ لَهُ:

- مَا تَنْظُرُ «الْحُسَيْنَ» كَيْفَ أَرْسَلَ ابْنَ عَمِّهِ إِلَى الْكُوفَةِ يُبَايِعُهُمْ؟ وَبَلَغَنِي أَنَّ «النُّعْمَانَ» ضَعِيفٌ فِيهِمْ، فَمَا عِنْدَكَ مِنَ الرَّأْيِ؟

فَقَالَ «سَرْجُونٌ»:

- أَكُنْتَ قَابِلًا مِنْ «مُعَاوِيَةَ» لَوْ كَانَ حَيًّا؟

قَالَ «يَزِيدُ»:

- نَعَمْ.

فَقَالَ «سَرْجُونُ»:

- فَاقْبَلْ مِنِّي إِذَنْ، لَيْسَ لِلْكُوفَةِ إِلَّا «عُبَيْدُ اللهِ بْنُ زِيَادٍ»، فَوَلِّهِ إِيَّاهَا.

وَرَغْمَ الْجَفْوَةِ الَّتِي كَانَتْ بَيْنَ «يَزِيدَ» وَبَيْنَ «ابْنِ زِيَادٍ»، إِلَّا أَنَّهُ لَمْ يَجِدْ أَقْدَرَ مِنْ «عُبَيْدِ اللهِ» الْحَاقِدِ عَلَى بَنِي هَاشِمٍ، لِتَنْفِيذِ هَذَا الْأَمْرِ الصَّعْبِ.

فَكَتَبَ إِلَيْهِ يَقُولُ:

«مِنْ «يَزِيدَ بْنِ مُعَاوِيَةَ» إِلَى «عُبَيْدِ اللهِ بْنِ زِيَادٍ» أَمَّا بَعْدُ، فَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّ أَهْلَ الْكُوفَةِ قَدِ اجْتَمَعُوا عَلَى الْبَيْعَةِ لِـ«الْحُسَيْنِ»، وَقَدْ كَتَبْتُ إِلَيْكَ كِتَابًا، فَإِنِّي لَا أَجِدُ سَهْمًا أَرْمِي بِهِ عَدُوِّي أَجْرَأَ مِنْكَ، فَإِذَا قَرَأْتَ كِتَابِي فَارْتَحِلْ مِنْ وَقْتِكَ وَسَاعَتِكَ، وَإِيَّاكَ وَالتَّوَانِيَ، وَاجْتَهِدْ وَلَا تُبْقِ مِنْ نَسْلِ «عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ» أَحَدًا، وَاطْلُبْ «مُسْلِمَ بْنَ عَقِيلٍ» فَاقْتُلْهُ، وَابْعَثْ لِي بِرَأْسِهِ، وَالسَّلَامُ».

فَأَخَذَ «ابْنُ زِيَادٍ» أُهْبَتَهُ لِلْمَسِيرِ إِلَى الْكُوفَةِ، وَاسْتِعْدَادَهُ لِتَنْفِيذِ الْمُهِمَّةِ.

أَمَّا «الْحُسَيْنُ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فَقَدْ كَانَ يَقْضِي أَكْثَرَ أَوْقَاتِهِ بِجِوَارِ الْكَعْبَةِ، مُحَدِّثًا أَوْ مُتَعَبِّدًا، يَنْتَظِرُ قُدُومَ خَبَرٍ مِنْ نَاحِيَةِ الْكُوفَةِ يُنْبِئُهُ بِأَمْرِهَا وَحَقِيقَةِ مَشَاعِرِ أَهْلِهَا، وَمَا أَجْمَعُوا عَلَيْهِ، وَمِنْ أَجْلِ هَذَا أَوْفَدَ «مُسْلِمَ ابْنَ عَقِيلٍ» إِلَيْهِمْ.

وَفِي يَوْمٍ جَاءَهُ « عَبْدُ اللهِ بْنُ الزُّبَيْرِ » فَسَارَّهُ، وَتَطَلَّعَ النَّاسُ إِلَيْهِمَا، فَلَمَّا انْتَهَى «ابْنُ الزُّبَيْرِ» مِنْ حَدِيثِهِ، الْتَفَتَ «الْحُسَيْنُ» إِلَى النَّاسِ وَقَالَ لَهُمْ:

- أَتَدْرُونَ مَا يَقُولُ «ابْنُ الزُّبَيْرِ»؟

فَقَالُوا:

- لَا نَدْرِي، جَعَلَنَا اللهُ فِدَاكَ.

فَقَالَ:

- لَقَدْ قَالَ لِي: أَقِمْ فِي هَذَا الْمَسْجِدِ أَجْمَعْ لَكَ النَّاسَ.

ثُمَّ سَكَتَ بُرْهَةً، وَقَالَ:

- وَاللهِ لَأَنْ أُقْتَلَ خَارِجًا مِنْهَا بِشِبْرٍ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَقْتُلَ دَاخِلًا مِنْهَا بِشِبْرٍ، وَايْمِ اللهِ لَوْ كُنْتُ فِي جُحْرِ هَامَةٍ مِنْ هَذِهِ الْهَوَامِّ لَاسْتَخْرَجُونِي حَتَّى يَقْضُوا فِيَّ حَاجَتَهُمْ، وَاللهِ لَيَعْتَدُنَّ عَلَيَّ كَمَا اعْتَدَتِ الْيَهُودُ فِي السَّبْتِ.

ثُمَّ أَقْبَلَ رَسُولُ «مُسْلِمِ بْنِ عَقِيلٍ» إِلَى مَكَّةَ يُخْبِرُ «الْحُسَيْنَ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مَا كَانَ مِنْ أَمْرِ مُبَايَعَةِ أَهْلِ الْكُوفَةِ لَهُ، وَحَمَاسِهِمْ فِي تَأْيِيدِهِ وَنُصْرَتِهِ، فَتَأَهَّبَ لِلْخُرُوجِ بِأَهْلِهِ وَمَوَالِيهِ إِلَى الْعِرَاقِ. وَلَمَّا ذَاعَ ذَلِكَ أَشْفَقَ الْمُشْفِقُونَ الْمُحِبُّونَ، وَالْغَيَارَى عَلَى عِتْرَةِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ أَنْ يُغْدَرَ بِهِمْ، أَوْ يُتَخَلَّى عَنْهُمْ.

أَقْبَلَ «عَبْدُ اللهِ بْنُ عَبَّاسٍ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا عَلَى «الْحُسَيْنِ» وَقَالَ:

- يَا ابْنَ عَمِّ، قَدْ أَرْجَفَ النَّاسُ أَنَّكَ سَائِرٌ إِلَى الْعِرَاقِ، فَبَيِّنْ لِي مَا أَنْتَ صَانِعٌ.

فَقَالَ:

- إِنِّي قَدْ أَجْمَعْتُ الْمَسِيرَ فِي أَحَدِ يَوْمَيَّ هَذَيْنِ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى.

فَقَالَ «ابْنُ عَبَّاسٍ» فِي الْتِيَاعٍ:

- فَإِنِّي أُعِيذُكَ بِاللهِ مِنْ ذَلِكَ، أَخْبِرْنِي - رَحِمَكَ اللهُ - أَتَسِيرُ إِلَى قَوْمٍ قَدْ قَتَلُوا أَمِيرَهُمْ وَضَبَطُوا بِلَادَهُمْ وَنَفَوْا عَدُوَّهُمْ؟ فَإِنْ كَانُوا قَدْ فَعَلُوا ذَلِكَ فَسِرْ إِلَيْهِمْ، وَإِنْ كَانُوا إِنَّمَا دَعَوْكَ إِلَيْهِمْ وَأَمِيرُهُمْ عَلَيْهِمْ قَاهِرٌ لَهُمْ، وَعُمَّالُهُمْ تَجْبِي بِلَادَهُمْ، فَإِنَّهُمْ إِنَّمَا دَعَوْكَ إِلَى الْحَرْبِ وَالْقِتَالِ، وَلَا آمَنُ عَلَيْكَ أَنْ يَغُرُّوكَ وَيُكَذِّبُوكَ وَيُخَالِفُوكَ وَيَخْذُلُوكَ، وَأَنْ يَسْتَنْفِرُوا إِلَيْكَ، فَيَكُونُوا أَشَدَّ النَّاسِ عَلَيْكَ!

فَقَالَ «الْحُسَيْنُ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ:

- إِنِّي أَسْتَخِيرُ اللهَ، وَأَنْظُرُ مَا يَكُونُ.

❊❊❊

ثُمَّ إِنَّهُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَزَمَ عَلَى الْخُرُوجِ رَغْمَ كَثْرَةِ النَّاصِحِينَ بِإِخْلَاصٍ أَوْ رِيَاءٍ.

وَلَقَدْ قَالَ لِبَعْضِهِمْ:

- إِنِّي رَأَيْتُ رُؤْيَا فِيهَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وَأُمِرْتُ فِيهَا بِأَمْرٍ أَنَا مَاضٍ لَهُ، عَلَيَّ كَانَ أَوْ لِي.

وَسَـــارَ حَتَّى دَخَلَ الْمَدِينَةَ، فَأَتَى قَبْرَ رَسُـــولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَـــلَّمَ يَزُورُهُ وَيَتَزَوَّدُ مِنْ نَفَحَاتِهِ الْعَطِرَةِ الزَّكِيَّةِ، فَأَحَسَّ غُصَّةً فِي حَلْقِهِ، وَجَرَى دَمْعُهُ غَزِيرًا حَتَّى اخْضَلَّتْ لِحْيَتُهُ.

فِي تِلْكَ الْأَثْنَاءِ كَانَ أَهْلُ الْكُوفَةِ يَرْقُبُونَ بِصَبْرٍ نَافِذٍ قُدُومَ «الْحُسَـــيْنِ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ الْجُمُعَةِ صَلَّوْا وَانْفَضُّوا، فَلَمَحُوا رَكْبًا قَادِمًا يَتَوَسَّـــطُهُ رَجُلٌ عَلَى بَغْلَةٍ شَـــهْبَاءَ، عَلَيْهِ ثِيَابٌ بِيضٌ، وَعِمَامَةٌ سَوْدَاءُ مُتَلَثِّمًا، وَبِيَدِهِ قَضِيبٌ مِنْ خَيْزُرَانٍ، فَهُرِعُوا إِلَيْهِ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِمْ بِقَضِيبِهِ، فَقَالُوا لَهُ:

ـ قَدِمْتَ خَيْرَ مَقْدِمٍ يَا ابْنَ بِنْتِ رَسُولِ اللهِ.

وَصَارَ الرَّجُلُ لَا يَمُرُّ بِمَلَأٍ مِنَ النَّاسِ إِلَّا وَيُسَـــلِّمُ عَلَيْهِمْ، وَهُمْ يَرُدُّونَ التَّحِيَّةَ مُسْتَبْشِـــرِينَ فَرِحِينَ، وَانْطَلَقُوا مِنْ خَلْفِـــهِ حَتَّى إِذَا مَا اقْتَرَبَ مِنْ قَصْرِ الْإِمَارَةِ، الْتَفَتَ «مُسْلِمُ بْنُ عَمْرٍو الْبَاهِلِيُّ» وَقَالَ لَهُمْ:

ـ تَأَخَّرُوا يَا وَيْلَكُمْ عَنْ وَجْهِ الْأَمِيرِ، فَلَيْسَ هُوَ ظَنَّكُمْ وَطِلْبَتَكُمْ!

سَمِعَ «النُّعْمَانُ بْنُ بَشِيرٍ» أَمِيرُ الْكُوفَةِ ضَوْضَاءَ، فَأَشْرَفَ مِنْ أَعْلَى الْقَصْرِ، وَأَسْفَرَ الرَّاكِبُ عَن وَجْهِهِ، فَإِذَا هُوَ «عُبَيْدُ اللهِ بْنُ زِيَادٍ»، فَامْتَعَضَ النَّاسُ، وَلَاحَتْ فِي وُجُوهِهِمْ خَيْبَةُ الْأَمَلِ، وَبَوَادِرُ الْجَزَعِ مِنْ شَرٍّ مُنْتَظَرٍ، وَأَخَذُوا يَتَطَايَرُونَ وَيَفِرُّونَ! عِنْدَئِذٍ رَفَعَ «عُبَيْدُ اللهِ» رَأْسَهُ، وَقَالَ لِـ «النُّعْمَانِ»:

ـ يَا «نُعْمَانُ»... حَصَّنْتَ قَصْرَكَ وَتَرَكْتَ مِصْرَكَ!

ثُمَّ دَخَلَ «عُبَيْدُ اللهِ» الْقَصْرَ، وَقَالَ لِـ «النُّعْمَانِ»:

- يَا «نُعْمَانُ» نَادِ فِي النَّاسِ: الصَّلَاةُ جَامِعَةٌ.

فَلَمَّا اجْتَمَعَ النَّاسُ، صَعِدَ « عُبَيْدُ اللهِ» الْمِنْبَرَ، وَقَالَ:

- أَيُّهَا النَّاسُ، مَنْ عَرَفَنِي فَقَدْ عَرَفَنِي، وَمَنْ لَمْ يَعْرِفْنِي فَأَنَا أُعَرِّفُهُ بِنَفْسِي، أَنَا « عُبَيْدُ اللهِ بْنُ زِيَادٍ»، وَقَدْ وَلَّانِي مِصْرَكُمْ هَذَا «يَزِيدُ»، وَأَمَرَنِي بِالْإِنْصَافِ لِلْمَظْلُومِ، وَإِعْطَاءِ الْمَحْرُومِ، وَالْإِحْسَانِ إِلَى مُسِيئِكُمْ، وَأَنَا مُتَّبِعٌ فِيكُمْ أَمْرَهُ.

ثُمَّ نَزَلَ، وَأَمَرَ أَنْ يُنَادَى فِي الْقَبَائِلِ أَنِ اثْبُتُوا عَلَى بَيْعَةِ «يَزِيدَ» مِنْ قَبْلِ أَنْ يَبْعَثَ إِلَيْكُمْ مِنَ الشَّامِ رِجَالًا يَقْتُلُونَ رِجَالَكُمْ وَيَسْبُونَ نِسَاءَكُمْ!

وَسَرَى تَحْذِيرُ «عُبَيْدِ اللهِ» مَسْرَاهُ، فَارْتَعَدَتِ الْفَرَائِصُ، وَوَجِلَتِ الْقُلُوبُ، وَاهْتَزَّتِ الْجَوَارِحُ، وَانْكَفَأَ النَّاسُ عَنْ مُوَاجَهَةِ الْبَاطِلِ وَأَعْوَانِهِ، وَاسْتَخْفُوا فِي دُورِهِمْ وَبُيُوتِهِمْ!!

اسْتَيْقَظَ «مُسْلِمُ بْنُ عَقِيلٍ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مُتَوَعِّكًا فَلَمْ يَخْرُجْ لِلصَّلَاةِ، فَلَمَّا كَانَ وَقْتُ الظُّهْرِ خَرَجَ إِلَى الْمَسْجِدِ، فَأَذَّنَ وَأَقَامَ فَلَمْ يَأْتِهِ أَحَدٌ! فَصَلَّى وَحْدَهُ، وَقَدْ كَانَ بِالْأَمْسِ يَؤُمُّ الْأُلُوفَ! فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ صَلَاتِهِ إِذَا هُوَ بِغُلَامٍ فَقَالَ لَهُ:

- يَا غُلَامُ... مَا فَعَلَ أَهْلُ هَذَا الْمِصْرِ؟

فَقَالَ الْغُلَامُ:

- إِنَّهُمْ نَقَضُوا بَيْعَةَ «الْحُسَيْنِ».

فَلَمَّا سَـــمِعَ «مُسْلِمٌ» ذَلِكَ صَفَّقَ يَدًا عَلَى يَدٍ، وَخَرَجَ يَجُوبُ الطُّرُقَاتِ حَتَّى بَلَغَ مَحِلَّةَ (بَنِي خُزَيْمَةَ)، فَوَقَفَ بِإِزَاءِ بَيْتٍ شَـــاهِقٍ، ثُمَّ قَرَعَ الْبَابَ فَخَرَجَتْ مِنْهُ جَارِيَةٌ، فَقَالَ لَهَا:

- لِمَنْ هَذِهِ الدَّارُ؟

فَقَالَتْ:

- لِـ«هَانِئِ بْنِ عُرْوَةَ».

فَقَالَ:

- ادْخُلِي عَلَيْهِ وَقُولِي لَهُ: رَجُلٌ بِالْبَابِ، فَإِنْ سَـــأَلَكِ عَنِ اسْمِي، فَقُولِي لَهُ إِنَّهُ: «مُسْلِمُ بْنُ عَقِيلٍ».

لَقَدْ وَجَدَ «مُسْلِمٌ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ الطُّمَأْنِينَةَ بَعْدَ أَنْ لَاحَتْ لِعَيْنَيْهِ أَشْبَاحُ الشَّـــرِّ؛ إِذْ كَانَ «هَانِئٌ» مِنَ الْأَشْـــخَاصِ الَّذِينَ يُؤْتَمَنُ لَهُمْ، وَيُوثَقُ بِهِمْ؛ لِدِينِهِمْ وَتَقْوَاهُمْ وَنُفُوذِهِمْ.

غَابَتِ الْجَارِيَةُ، ثُمَّ عَادَتْ، فَقَالَتْ:

- ادْخُلْ يَا سَيِّدِي.

كَانَ «هَانِئٌ» عَلِيلًا طَرِيحَ الْفِرَاشِ، فَلَمَّا رَأَى «مُسْلِمًا» حَاوَلَ النُّهُوضَ لِيُعَانِقَهُ فَلَمْ يَقْدِرْ، وَجَلَسَـــا يَتَحَدَّثَانِ حَتَّى تَطَرَّقَا إِلَى «عُبَيْدِ اللهِ بْنِ زِيَادٍ»، فَأَظْهَرَ «مُسْـــلِمٌ» كُرْهًا لَهُ وَلِمَجِيئِهِ إِلَى الْكُوفَةِ، وَكَانَ فِي نَفْسِ «هَانِئٍ» مَا

أَظْهَرَهُ «مُسْلِمٌ»، فَقَالَ لَهُ:

- سَيَبْلُغُ «ابْنَ زِيَادٍ» مَرَضِي، وَرُبَّمَا أَتَى لِعِيَادَتِي، فَإِذَا حَضَرَ فَخُذْ هَذَا السَّيْفَ وَادْخُلِ الْمِخْدَعَ، فَإِذَا جَلَسَ فَدُونَكَ فَاقْتُلْهُ، وَاحْذَرْ أَنْ يَفُوتَكَ، فَإِنْ فَاتَكَ قَتَلَكَ وَقَتَلَنِي، وَتَكُونُ الْعَلَامَةُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ إِذَا وَضَعْتُ عِمَامَتِي عَلَى رَأْسِي، فَإِذَا رَأَيْتَ ذَلِكَ فَاخْرُجْ عَلَيْهِ وَاقْتُلْهُ.

قَالَ «مُسْلِمٌ»:

- أَفْعَلُ.

قَالَ «مُسْلِمٌ» ذَلِكَ، وَلَكِنَّهُ كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ نَفْسِهِ مُتَرَدِّدًا.

ثُمَّ أَرْسَلَ «هَانِئٌ» إِلَى «ابْنِ زِيَادٍ» يُعَاتِبُهُ عَلَى تَأَخُّرِهِ فِي زِيَارَتِهِ وَهُوَ مَرِيضٌ، فَاعْتَذَرَ إِلَيْهِ قَائِلًا:

- مَا عَلِمْتُ بِعِلَّتِكَ، وَإِنِّي رَائِحٌ إِلَيْكَ الْعَشِيَّةَ.

فَلَمَّا صَلَّى «ابْنُ زِيَادٍ» الْعِشَاءَ، أَقْبَلَ يَعُودُ «هَانِئًا» وَمَعَهُ حَاجِبُهُ، فَقِيلَ لِـ «هَانِئٍ»:

- «ابْنُ زِيَادٍ» بِالْبَابِ يُرِيدُ الدُّخُولَ عَلَيْكَ.

فَقَالَ لِجَارِيَتِهِ:

- ادْفَعِي السَّيْفَ لِـ «مُسْلِمٍ».

دَخَلَ «ابْنُ زِيَادٍ» وَجَلَسَ إِلَى جَانِبِ «هَانِئٍ» وَحَاجِبُهُ قَائِمٌ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَجَعَلَ يُحَادِثُهُ وَيَسْأَلُهُ عَنْ حَالِهِ، وَ«هَانِئٌ» يَشْكُو إِلَيْهِ الَّذِي يَجِدُهُ، ثُمَّ

خَلَــعَ عِمَامَتَهُ وَوَضَعَهَا عَــلَى الْأَرْضِ، ثُمَّ أَعَادَهَا إِلَى رَأْسِــهِ ظَنًّا مِنْهُ أَنَّ «مُسْــلِمًا» لَمْ يَرَهُ فِي الْمَرَّةِ الْأُولَى، وَلَمْ يَزَلْ يَفْعَــلُ ذَلِكَ دُونَ أَنْ يَخْرُجَ «مُسْلِمٌ» وَيُنَفِّذَ مَا اتَّفَقَا عَلَيْهِ.

وَعِنْدَمَا قَامَ «ابْنُ زِيَادٍ» مُنْصَرِفًا، خَرَجَ «مُسْلِمٌ»، فَقَالَ لَهُ «هَانِئٌ»:

ـ مَا الَّذِي مَنَعَكَ مِنْ قَتْلِهِ؟

قَالَ:

ـ مَنَعَنِي خَبَرٌ سَمِعْتُهُ عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذْ قَالَ: «الْإِيمَانُ ضِدُّ الْفَتْكِ، لَا يَفْتِكُ مُؤْمِنٌ».

فَقَالَ «هَانِئٌ»:

ـ لَوْ قَتَلْتَهُ لَقَتَلْتَ كَافِرًا.

❊❊❊

عَادَ «ابْنُ زِيَادٍ» إِلَى قَصْــرِ الْإِمَارَةِ، وَأَخَذَ يُفَكِّرُ فِي تَدْبِيرِ خُطَّةٍ مُحْكَمَةٍ تَضْمَنُ لَهُ التَّخَلُّصَ مِنْ «مُسْلِمِ بْنِ عَقِيلٍ» وَرَكَائِزِ «الْحُسَيْنِ» فِي الْكُوفَةِ، وَالْقَضَاءِ عَلَى كُلِّ أَمَلٍ يُرَاوِدُهُمْ.

فَاسْتَدْعَى مَوْلًى لَهُ اسْمُهُ «مَعْقِلٌ»، فَأَعْطَاهُ ثَلَاثَةَ آلَافِ دِرْهَمٍ، وَقَالَ لَهُ:

ـ خُذْ هَذِهِ الدَّرَاهِمَ، وَاسْأَلْ عَنْ «مُسْلِمِ بْنِ عَقِيلٍ» وَأَعْطِهَا لَهُ، وَقُلْ لَهُ: اسْتَعِنْ بِهَا عَلَى عَدُوِّكَ. وَأَظْهِرْ لَهُ الْإِخْلَاصَ، وَائْتِنِي بِخَبَرِهِ.

فَأَخَــذَ «مَعْقِلٌ» الدَّرَاهِمَ وَجَعَلَ يَدُورُ فِي الْكُوفَةِ، حَتَّى أَرْشَــدُوهُ إِلَى رَجُلٍ مِنْ أَنْصَارِ «الْحُسَيْنِ»، فَأَتَاهُ وَهُوَ يُصَلِّي فَانْتَظَرَهُ حَتَّى إِذَا مَا فَرَغَ مِنْ صَلَاتِهِ قَامَ إِلَيْهِ وَاعْتَنَقَهُ وَأَظْهَرَ لَهُ الْإِخْلَاصَ، وَقَالَ لَهُ:

- يَا أَخِي اعْلَمْ أَنِّي رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الشَّــامِ، وَقَدْ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيَّ بِحُبِّ أَهْلِ الْبَيْتِ، وَمَعِي ثَلَاثَةُ آلَافِ دِرْهَمٍ وَقَدْ أَحْبَبْتُ أَنْ أَلْقَى (الرَّجُلَ) الَّذِي يُبَايِعُ النَّاسَ لِابْنِ بِنْتِ رَسُــولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَــلَّمَ، وَقَدْ أَتَيْتُكَ لِتَقْبَلَ مِنِّي هَذِهِ الدَّرَاهِمَ، وَتُدْخِلَنِي عَلَى صَاحِبِكَ فَإِنِّي ثِقَةٌ مِنْ ثِقَاتِهِ، وَعِنْدِي كِتْمَانُ أَمْرِهِ.

فَأَوْجَسَ الرَّجُلُ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مِنْ كَلَامِ الشَّامِيِّ، وَأَجَابَهُ:

- يَا أَخَا الْعَرَبِ اعْزُبْ عَنْ هَذَا الْكَلَامِ، مَا لَنَا وَلِأَهْلِ الْبَيْتِ، وَمَا أَصَابَ الَّذِي أَرْشَدَكَ إِلَيَّ.

فَقَالَ «مَعْقِلٌ»:

- إِذَا كُنْتَ لَمْ تَطْمَئِنَّ إِلَيَّ، فَخُذِ الْمَوَاثِيقَ وَالْعُهُودَ عَلَيَّ.

وَرَاحَ يَحْلِــفُ بِأَغْلَــظِ الْأَيْمَانِ بِأَنَّهُ مِنْ أَنْصَارِ «الْحُسَــيْنِ»، وَمَا زَالَ كَذَلِكَ حَتَّى اطْمَأَنَّ الرَّجُلُ إِلَيْهِ وَأَدْخَلَهُ عَلَى «مُسْلِمِ بْنِ عَقِيلٍ».

وَثِقَ «مُسْلِمٌ» بِـ «مَعْقِلٍ»، وَأَخَذَ عَلَيْهِ الْبَيْعَةَ، وَأَخَذَ الْمَالَ مِنْهُ؛ لِيَشْتَرِيَ بِهِ سِــلَاحًا، وَجَعَلَ «مَعْقِلٌ» يَتَرَدَّدُ عَلَى «مُسْلِمِ بْنِ عَقِيلٍ» يَأْخُذُ أَسْرَارَهُ، وَيَسْتَقْصِي أَخْبَارَهُ، وَيُسْــبِرُ غَوْرَهُ، فَلَمَّا اتَّضَحَتْ خُطَّةُ «مُسْلِمٍ» عِنْدَهُ،

عَكَــفَ عَلَى «ابْنِ زِيَادٍ» وَأَخْبَرَهُ بِكُلِّ التَّفَاصِيــلِ، وَأَحَاطَهُ بِأَخْبَارِ الَّذِينَ يَتَأَهَّبُونَ لِلِانْقِضَاضِ عَلَيْهِ.

عِنْدَئِذٍ دَعَا «ابْنُ زِيَادٍ» إِلَيْهِ «مُحَمَّدَ بْنَ الْأَشْعَثِ» وَ«أَسْمَاءَ بْنَ خَارِجَةَ» وَ«عُمَرَ بْنَ الْحَجَّاجِ» وَقَالَ لَهُمْ:

- انْطَلِقُوا إِلَى «هَانِئ»، وَائْتُونِي بِهِ.

فَانْطَلَقُوا إِلَى «هَانِئ»، فَوَجَدُوهُ جَالِسًا عَلَى بَابِ دَارِهِ، فَقَالُوا لَهُ:

- يَا «هَانِئُ» إِنَّ الْأَمِيرَ يَدْعُوكَ.

فَنَهَــضَ مَعَهُمْ حَتَّى دَنَا مِنْ قَصْرِ الْإِمَارَةِ، فَأَحَسَّ فِي نَفْسِــهِ انْقِبَاضًا، كَأَنَّمَا أَحَسَّ بِشَرٍّ يَنْتَظِرُهُ، فَقَالَ لِـ «أَسْمَاءَ بْنِ خَارِجَةَ»:

- يَا أَخِي إِنِّي خَائِفٌ مِنْ هَذَا الرَّجُلِ، وَنَفْسِي تُحَدِّثُنِي بِبَعْضِ الَّذِي أَجِدُهُ.

فَقَالَ لَهُ «أَسْمَاءُ»:

- وَاللهِ مَا نَخَافُ عَلَيْــكَ مِنْهُ، وَأَنْتَ بِحَمْدِ اللهِ بَــرِيءٌ، فَلَا تَجْعَلْ عَلَى نَفْسِكَ سَبِيلًا.

وَسَــارُوا حَتَّى دَخَلُوا عَلَى «ابْنِ زِيَــادٍ»، فَلَمَّــا رَأَى «هَانِئًا» أَعْرَضَ عَنْهُ وَأَشَــاحَ بِوَجْهِهِ وَلَمْ يُكْرِمْهُ، فَأَنْكَرَ «هَانِئٌ» أَمْرَهُ، وَتَعَجَّبَ مِنْ هَذَا الصُّدُودِ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِ، فَلَمْ يَرُدَّ «ابْنُ زِيَادٍ» السَّلَامَ! فَقَالَ «هَانِئٌ»:

- لِمَ كُلُّ هَذَا الْجَفَاءِ؟! أَصْلَحَ اللهُ الْأَمِيرَ.

فَقَالَ «ابْنُ زِيَادٍ»:

- يَا «هَانِئُ» خَبَّأْتَ «مُسْلِمَ بْنَ عَقِيلٍ»، وَتَجْمَعُ لَهُ الرِّجَالَ وَالسِّلَاحَ، وَظَنَنْتَ أَنَّ ذَلِكَ يَخْفَى عَلَيَّ؟!

فَأَجَابَ «هَانِئٌ»:

- مَعَاذَ اللهِ... مَا فَعَلْتُ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا.

فَقَالَ «ابْنُ زِيَادٍ»:

- الَّذِي أَخْبَرَنِي أَصْدَقُ مِنْكَ عِنْدِي. يَا «مَعْقِلُ» اخْرُجْ إِلَيْهِ وَكَذِّبْهُ.

فَخَرَجَ «مَعْقِلٌ» مِنْ مَخْبَئِهِ، وَقَالَ فِي سُخْرِيَةٍ:

- مَرْحَبًا بِكَ يَا «هَانِئُ»، أَتَعْرِفُنِي؟!

فَقَالَ «هَانِئٌ» بِجُرْأَةٍ وَشَجَاعَةٍ، وَقَدْ سُقِطَ فِي يَدِهِ:

- نَعَمْ، أَعْرِفُكَ ... فَاجِرًا كَاذِبًا.

فَقَالَ «ابْنُ زِيَادٍ»:

- إِذَنْ لَا تُفَارِقْنِي، أَوْ تَأْتِيَنِي بِـ «مُسْلِمٍ».

وَهُنَا ازْدَادَتْ جُرْأَةُ «هَانِئ»، فَقَالَ:

- وَاللهِ لَوْ كَانَ تَحْتَ قَدَمِي مَا رَفَعْتُهَا عَنْهُ!

فَقَالَ «ابْنُ زِيَادٍ» لِبَعْضِ شُرْطَتِهِ:

- أَدْنُوهُ مِنِّي.

فَلَمَّا دَنَا ضَرَبَهُ بِحَرْبَةٍ عَلَى وَجْهِهِ، فَشَجَّهُ فِي حَاجِبِهِ، وَكَسَرَ أَنْفَهُ، وَسَالَتْ دِمَاؤُهُ عَلَى وَجْهِهِ! ثُمَّ حَاوَلَ أَنْ يَتَنَاوَلَ سَيْفَ أَحَدِ الشُّرْطَةِ

لِيَسُلَّهُ، فَدُفِعَ عَنْ ذَلِكَ، فَقَالَ لَهُ «ابْنُ زِيَادٍ»:

- الْآنَ قَدْ أَحَلَّ اللهُ لِي دَمَكَ.

ثُمَّ أَمَرَ بِحَبْسِهِ فِي جَانِبٍ مِنَ الدَّارِ.

تَنَاوَلَ النَّاسُ فِي الْكُوفَةِ خَبَرَ اعْتِقَالِ «هَانِئ»، فَحَضَرَ قَوْمُهُ وَعَشِيرَتُهُ مِنْ «بَنِي مَذْحِجٍ»، وَوَقَفُوا عِنْدَ بَابِ الْقَصْرِ وَقَدْ ظَنُّوا أَنَّهُ قُتِلَ، وَأَخَذُوا يَصِيحُونَ:

- يَا «ابْنَ زِيَادٍ» تَقْتُلُ صَاحِبَنَا وَلَمْ يَخْلَعْ طَاعَةً، وَلَمْ يُفَرِّقْ جَمَاعَةً؟!

ثُمَّ قَالُوا:

- يَا «هَانِئُ» إِنْ كُنْتَ حَيًّا فَكَلِّمْنَا؛ فَقَدْ أَتَاكَ قَوْمُكَ يَقْتُلُونَ عَدُوَّكَ.

عِنْدَئِذٍ أَدْرَكَ «ابْنُ زِيَادٍ» خُطُورَةَ الْمَوْقِفِ، فَطَلَبَ إِلَى الْقَاضِي «شُرَيْحٍ» أَنْ يَخْرُجَ إِلَيْهِمْ وَيُعْلِمَهُمْ بِأَنَّ صَاحِبَهُمْ حَيٌّ، وَأَنَّ الْأَمِيرَ احْتَفَظَ بِهِ لِيَسْأَلَهُ عَنْ أَشْيَاءَ، فَاطْمَأَنَّتِ الْجُمُوعُ عَلَى مَصِيرِ «هَانِئ»، فَانْفَضُّوا وَتَفَرَّقُوا.

إِلَّا أَنَّ «مُسْلِمَ بْنَ عَقِيلٍ» الَّذِي انْتَهَى إِلَيْهِ خَبَرُ حَبْسِ «هَانِئ»، رَكِبَ دَابَّتَهُ وَصَاحَ بِشِعَارِهِ فِي أَحْيَاءِ الْكُوفَةِ:

- يَا «مَنْصُورُ» أَمِتْ.

فَاجْتَمَعَ إِلَيْهِ أَرْبَعَةُ آلَافٍ مِنْ أَهْلِهَا، وَكَانَ مَعَهُ «الْمُخْتَارُ بْنُ أَبِي عُبَيْدٍ» وَ«عَبْدُ اللهِ بْنُ نَوْفَلٍ» تَتَقَدَّمُهُمْ رَايَتَانِ خَضْرَاءُ وَحَمْرَاءُ، فَرَتَّبَهُمْ «مُسْلِمٌ» مَيْمَنَةً وَمَيْسَرَةً، وَسَارَ هُوَ فِي الْقَلْبِ مُتَّجِهِينَ إِلَى قَصْرِ الْإِمَارَةِ.

وَجَاءَ أَعْوَانُ «ابْنِ زِيَـادٍ» يُخْبِرُونَهُ بِمَا يَجْرِي وَهُمْ يَرْتَجِفُونَ، فَأَغْلَقَ أَبْوَابَ الْقَصْرِ، وَحَشَـدَ أُمَرَاءَ الْقَبَائِـلِ الَّذِينَ عِنْـدَهُ، فَأَغْرَى بَعْضَهُمْ بِالْمَالِ، وَهَدَّدَ الْبَعْضَ الْآخَرَ بِالْقَتْلِ، وَطَلَـبَ إِلَيْهِمْ أَنْ يَأْمُرُوا أَتْبَاعَهُمُ الَّذِينَ جَاءُوا مَعَ «مُسْلِمٍ» بِالِانْفِضَاضِ مِنْ حَوْلِهِ، فَنَزَلُوا وَرَاحُوا يُثَبِّطُونَ عَزَائِمَ النَّاسِ وَيَقُولُونَ:

ـ كَأَنَّـكُمْ غَدًا بِجُنُودِ الشَّامِ قَدْ أَقْبَلُوا! فَمَاذَا تَصْنَعُونَ مَعَهُمْ؟!

وَبَدَأَ النَّاسُ يَنْصَرِفُونَ عَنْ «مُسْـلِمِ بْنِ عَقِيـلٍ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وَأَخَذَ جَيْشُهُ يَتَقَلَّصُ حَتَّى لَمْ يَبْقَ إِلَّا فِي خَمْسِمِئَةِ نَفْسٍ، ثُمَّ تَقَالُّوا حَتَّى بَقِيَ فِي ثَلَاثِمِئَـةٍ، ثُمَّ تَقَالُّوا حَتَّى بَقِيَ مَعَهُ ثَلَاثُونَ رَجُلًا، فَصَلَّى بِهِمُ الْمَغْرِبَ، ثُمَّ قَصَدَ أَبْوَابَ «كِنْدَةَ» فَخَرَجَ مِنْهَا فِي عَشَرَةٍ.

وَفِي الظَّلَامِ الدَّامِسِ انْصَرَفَ الْعَشَرَةُ أَيْضًا فَبَقِيَ وَحِيدًا، لَيْسَ مَعَهُ مَنْ يَدُلُّهُ عَلَى الطَّرِيقِ، وَلَا مَنْ يُؤْنِسُهُ بِنَفْسِـهِ، وَلَا مَنْ يُؤْوِيهِ إِلَى مَنْزِلِهِ، فَهَامَ عَلَى وَجْهِهِ لَا يَدْرِي إِلَى أَيْنَ يَسِيرُ!!

وَرَاحَ يَبْحَثُ عَنْ مَلْجَإٍ يُوَارِي نَفْسَـهُ فِيهِ، فَلَمْ يَهْتَـدِ إِلَى مَكَانٍ أَبَدًا؛ فَأَعْوَانُهُ قَدْ تَخَلَّوْا عَنْهُ، وَأَنْصَارُ «الْحُسَيْنِ» قَدْ بَايَعُوا لِـ «يَزِيدَ»! وَأَحَسَّ عَطَشًـا شَـدِيدًا، فَاقْتَرَبَ مِنْ بَابِ دَارٍ، فَرَأَى امْرَأَةً قَائِمَةً بِالْبَابِ تَنْتَظِرُ عَوْدَةَ ابْنِهَا الَّذِي خَرَجَ مَعَ النَّاسِ، فَاقْتَرَبَ مِنْهَا وَقَالَ:

ـ اسْقِنِي مَاءً.

فَدَخَلَتِ الْمَرْأَةُ دَارَهَا وَأَتَتْهُ بِمَا طَلَبَ، فَشَرِبَ وَلَمْ يَنْصَرِفْ، وَقَالَتْ لَهُ:

- أَلَمْ تَشْرَبْ؟!

فَقَالَ:

- بَلَى.

فَقَالَتِ:

- اذْهَبْ إِلَى أَهْلِكَ عَافَاكَ اللهُ، فَإِنَّهُ لَا يَصْلُحُ لَكَ الْجُلُوسُ عَلَى بَابِي، وَلَا أُجَمِّلُهُ لَكَ.

فَقَالَ:

- يَا أَمَةَ اللهِ، لَيْسَ لِي فِي هَذَا الْبَلَدِ مَنْزِلٌ وَلَا عَشِيرَةٌ. فَهَلْ إِلَى أَجْرٍ وَمَعْرُوفٍ نُكَافِئُكِ بِهِ بَعْدَ الْيَوْمِ؟

فَقَالَتْ:

- وَمَا هُوَ؟

قَالَ:

- أَنَا «مُسْلِمُ بْنُ عَقِيلٍ».. كَذَّبَنِي هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ وَغَرُّونِي.

فَأَدْخَلَتْهُ الْمَرْأَةُ دَارَهَا، وَأَوَتْهُ فِي مَكَانٍ أَمِينٍ، وَأَعَدَّتْ لَهُ عَشَاءً.

فَلَمَّا حَضَرَ وَلَدُهَا، لَاحَظَ بَعْضَ الِارْتِبَاكِ عَلَى أُمِّهِ، وَكَثْرَةَ دُخُولِهَا وَخُرُوجِهَا إِلَى الْمِخْدَعِ الَّذِي اخْتَبَأَ فِيهِ «مُسْلِمٌ»، فَأَلَحَّ عَلَيْهَا أَنْ تُخْبِرَهُ، فَلَمَّا اسْتَوْثَقَتْ مِنْهُ أَخْبَرَتْهُ خَبَرَ «مُسْلِمِ بْنِ عَقِيلٍ» وَلُجُوئِهِ إِلَيْهِمْ.

إِلَّا أَنَّ هَذَا الشَّابَّ وَسْوَسَ لَهُ شَـيْطَانُهُ، وَاغْتَرَّ بِالْعَطَاءِ الْكَثِيرِ وَرِضَا الْأَمِيرِ، فَلَمَّا لَاحَ الْفَجْرُ هَبَّ مِنْ نَوْمِهِ، وَانْطَلَقَ إِلَى دَارِ «عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ الْأَشْـعَثِ»، فَأَخْبَرَهُ الْخَبَرَ، فَمَا أَسْرَعَ مَا ذَهَبَ «عَبْدُ الرَّحْمَنِ» إِلَى «ابْنِ زِيَادٍ» وَأَسَرَّ إِلَيْهِ بِالْأَمْرِ.

فَبَعَثَ «ابْنُ زِيَادٍ» صَاحِبَ شُرْطَتِهِ وَمَعَهُ سَبْعُونَ فَارِسًا إِلَى حَيْثُ يُوجَدُ «مُسْـلِمٌ»، وَأَحَاطُوا بِالدَّارِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، فَسَمِعَ «مُسْلِمٌ» صَهِيلَ الْخَيْلِ وَصِيَاحَ الرِّجَالِ، فَأَطَلَّ عَلَيْهِمْ فَوَجَدَهُمْ قَدْ سَـدُّوا عَلَيْـهِ الْمَنَافِذَ، فَقَالَ لِلْمَرْأَةِ:

- أَعْطِنِي سَيْفِي.

ثُمَّ قَامَ وَخَرَجَ إِلَى الْقَوْمِ، فَقَالَتْ لَهُ الْمَرْأَةُ:

- أَرَاكَ تَأَهَّبْتَ لِلْمَوْتِ؟

فَقَالَ:

- أَجَلْ... لَا بُدَّ مِنَ الْمَوْتِ.

ثُمَّ فَتَحَ الْبَـابَ وَكَرَّ عَلَى الْقَوْمِ، وَمَا زَالَ يُقَاتِلُهُـمْ فَيَقْتُلُ مِنْهُمُ الْعَدَدَ الْعَدِيدَ بَيْنَ كَرٍّ وَفَرٍّ، حَتَّى يَئِسُـوا مِنْ قَتْلِهِ أَوِ اعْتِقَالِهِ، فَلَجَأُوا إِلَى الْحِيلَةِ، وَصَاحَ بِهِ «عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ الْأَشْعَثِ»:

- يَا «مُسْلِمُ بْنَ عَقِيلٍ» عَلَيْكَ الْأَمَانُ.

فَصَدَّقَهُمْ؛ لِأَنَّهُ مِنْ أَهْلِ بَيْتٍ إِذَا عَاهَدُوا وَفَوْا، فَمَكَّنَهُمْ مِنْ نَفْسِهِ، فَأَتَوْا بِبَغْلَةٍ وَأَرْكَبُوهُ عَلَيْهَا وَسَلَبُوهُ سَيْفَهُ، فَأَطْرَقَ يُفَكِّرُ، وَأَدْرَكَ أَنَّ الْخَدِيعَةَ قَدْ تَمَّتْ، وَالْحِيلَةَ قَدْ نَفَذَتْ، وَأَنَّ قَضَاءَ اللهِ آتٍ. فَغَمْغَمَ:

- إِنَّا لِلهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ.

ثُمَّ بَكَى، فَظَنَّ الَّذِينَ حَوْلَهُ أَنَّمَا يَبْكِي فَرَقًا وَخَوْفًا، فَقَالُوا لَهُ:

- إِنَّ مَنْ يَطْلُبُ مِثْلَ الَّذِي تَطْلُبُ لَا يَبْكِي إِذَا نَزَلَ بِهِ هَذَا!

فَقَالَ «مُسْلِمٌ» الْمُؤْمِنُ الشُّجَاعُ:

- أَمَا وَاللهِ لَسْتُ أَبْكِي عَلَى نَفْسِي، وَلَكِنْ أَبْكِي عَلَى «الْحُسَيْنِ» وَعَلَى «آلِ الْحُسَيْنِ»؛ إِنَّهُ قَدْ خَرَجَ إِلَيْكُمُ الْيَوْمَ أَوْ أَمْسِ مِنْ مَكَّةَ!

بَلَغَ مَوْكِبُ الشَّهَادَةِ دَارَ الْإِمَارَةِ، وَ«مُسْلِمٌ» مُثْخَنٌ بِالْجِرَاحِ، تَمْلَأُ ثِيَابَهُ الدِّمَاءُ، وَهُوَ فِي غَايَةِ الْعَطَشِ، فَرَأَى عِنْدَ الْبَابِ قُلَّةَ مَاءٍ فَطَلَبَ شَرْبَةً، فَقِيلَ لَهُ:

- وَاللهِ لَا تَشْرَبُ مِنْهَا حَتَّى تَشْرَبَ مِنَ الْحَمِيمِ!

وَأُدْخِلَ عَلَى «ابْنِ زِيَادٍ»، فَقَالَ «مُسْلِمٌ»:

- السَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى، وَخَشِيَ عَوَاقِبَ الرَّدَى، وَأَطَاعَ الْمَلِكَ الْأَعْلَى.

فَقِيلَ لَهُ:

- لَوْ قُلْتَ: السَّلَامُ عَلَيْكَ أَيُّهَا الْأَمِيرُ.

فَقَالَ «مُسْلِمٌ»:

- مَا عَلِمْتُ أَنَّ لِي أَمِيرًا غَيْرَ «الْحُسَيْنِ».

وَجَرَى الْحِوَارُ بَيْنَ «ابْنِ زِيَادٍ» وَبَيْنَ «مُسْلِمٍ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، فَكَانَ عُنْوَانًا لِلثَّبَاتِ عَلَى الْحَقِّ، وَغَايَةً فِي الْجُرْأَةِ أَمَامَ الطُّغْيَانِ وَالظُّلْمِ، وَحَاوَلَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنْ يُوصِيَ بِمَنْ يُبَلِّغُ «الْحُسَيْنَ» فِي أَنْ يَتَوَقَّفَ عَنِ الْمَسِيرِ إِلَى الْكُوفَةِ، فَلَمْ يَسْتَجِبْ لَهُ أَحَدٌ مِنَ الْحَاضِرِينَ.

ثُمَّ أُصْعِدَ «مُسْلِمٌ» إِلَى أَعْلَى الْقَصْرِ وَهُوَ يُكَبِّرُ وَيُهَلِّلُ.

وَطُلِبَ أَنْ يُصَلِّيَ رَكْعَتَيْنِ، فَرُفِضَ طَلَبُهُ، ثُمَّ ضُرِبَ ضَرْبَةً أَطَاحَتْ بِرَأْسِهِ، وَأُلْقِيَ جَسَدُهُ مِنْ أَعْلَى الْقَصْرِ، فَتَحَطَّمَ وَتَهَشَّمَ!!

وَكَانَ آخِرُ مَا قَالَهُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ:

جَزَى اللهُ عَنَّا قَوْمَنَا شَرَّ مَا جَزَى ... شِرَارَ الْمَوَالِي بَلْ أَعَقَّ وَأَظْلَمَا

هُمُ مَنَعُونَا حَقَّنَا وَتَظَاهَرُوا ... عَلَيْنَا وَرَامُوا أَنْ نَذِلَّ وَنُرْغَمَا

أَغَارُوا عَلَيْنَا يَسْفِكُونَ دِمَاءَنَا ... وَلَمْ يَرْقُبُوا فِينَا ذِمَامًا وَلَا دَمَا

فَنَحْنُ بَنُو «الْمُخْتَارِ» لَا خَلْقَ مِثْلَنَا ... نَبِيٌّ أَبَتْ أَرْكَانُهُ أَنْ تُهَدَّمَا

- اللَّهُمَّ احْكُمْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمٍ غَرُّونَا وَخَذَلُونَا.

رَضِيَ اللهُ عَنْ «مُسْلِمِ بْنِ عَقِيلٍ»، وَجَزَاهُ وَأَهْلَهُ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا.

مُسْلِمُ بْنُ عَوْسَجَةَ

تَوْطِئَةٌ

إِذَا الْمَـــرْءُ لَا يَحْمِي بَنِيـــهِ وَعِرْضَهُ
وَعِـــتْرَتَهُ كَـــانَ اللَّئِيـــمَ الْمُسَبَّـــبَا
وَمِـــنْ دُونِ مَا يَبْغِي «يَزِيدُ» بِنَـــا غَدًا
نَخُـــوضُ بِحَارَ الْمَوْتِ شَـــرْقًا وَمَغْرِبَا
وَنَضْـــرِبُ ضَـــرْبًا كَالْحَرِيقِ مُقَدَّمًا
إِذَا مَـــا رَآهُ ضَيْغَـــمٌ فَـــرَّ مَهْـــرَبَا

هَكَذَا كَانَ لِسَانُ «مُسْلِمِ بْنِ عَوْسَجَةَ»، الْبَطَلِ الَّذِي أَبَى أَنْ يُذْعِنَ لِلْعَسْفِ وَالْجَوْرِ، أَوْ تُغْرِيَهُ بَهَارِجُ الدُّنْيَا فَيَنْجَذِبَ إِلَيْهَا، فَالْحَقُّ عِنْدَهُ أَسْمَى مِنْ أَنْ يُسَاوَمَ عَلَيْهِ، أَوْ يُرْهَبَ فِي سَبِيلِهِ، وَالْمُرُوءَةُ لَدَيْهِ أَغْلَى مِنَ الذَّهَبِ الْإِبْرِيزِ، «وَآلُ الْبَيْتِ» صَفْوَةُ النُّبُوَّةِ وَمَعْدِنُ الرِّسَالَةِ وَعُنْوَانُ الْإِسْلَامِ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعُوا، وَتَهُونُ التَّضْحِيَةُ مِنْ أَجْلِهِمْ.

أَمَّا الْتِزَامُ سَبِيلِهِمْ فَهُوَ عِنْدَهُ الْتِزَامٌ بِالْمَبْدَإِ، لَا الْتِزَامٌ بِأَشْخَاصٍ وَلَا أَفْرَادٍ.

كَانَ «رَضِيَ اللهُ عَنْهُ» كَالْعَوْسَجِ، يَحْمِي الذِّمَارَ بِشَوْكِهِ الْحَادِّ، وَيَعْبَقُ بِنَفْحِ أَزَاهِيرِهِ الْعَطِرَةِ، فَقَطَرَاتُ دَمِهِ الْمَسْفُوحِ عَلَى أَرْضِ كَرْبَلَاءَ أَنْبَتَتْ شَجَرَةً طَيِّبَةً أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ، تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا... تَصْطَفِقُ أَوْرَاقُهَا، فَتُغَنِّي أَطْيَارُهَا أُنْشُودَةَ الْوَفَاءِ وَالشَّهَادَةِ.

«مُسْلِمُ بْنُ عَوْسَجَةَ» حَلْقَةٌ فِي سِلْسِلَةٍ، وَنَفَرٌ فِي رَكْبٍ، وَشَهِيدٌ فِي قَافِلَةٍ، تِجَارَتُهَا مَعَ اللهِ، رِبْحُهَا مَضْمُونٌ، وَبَيْعُهَا مَأْمُونٌ.

«مُسْلِمُ بْنُ عَوْسَجَةَ» نَغَمٌ فِي لَحْنٍ، وَوَتَرٌ فِي قَوْسٍ، وَسَهْمٌ مِنْ سِهَامِ الْحَقِّ.

«مُسْلِمُ بْنُ عَوْسَجَةَ» أَوَّلُ شَهِيدٍ يَوْمَ كَرْبَلَاءَ.

***

أَصْحَابُ الدَّعْوَةِ

بَلَغَ أَهْلَ الْكُوفَةِ وَفَاةُ «مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ» وَامْتِنَاعُ «الْحُسَيْنِ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنِ الْبَيْعَةِ لِـ «يَزِيدَ»، فَامْتَنَعُوا هُمْ أَيْضًا، ثُمَّ اجْتَمَعَ رُؤَسَاؤُهُمْ فِي دَارِ «سُلَيْمَانَ بْنِ صُرَدٍ» لِيَرَوْا رَأْيَهُمْ، فَذَكَّرَهُمْ «سُلَيْمَانُ» بِمَا قَالَهُ «الْحُسَيْنُ» لَمَّا بَايَعَ «الْحَسَنُ» لِـ «مُعَاوِيَةَ».. قَالَ «الْحُسَيْنُ»:

- لِيَكُنْ كُلُّ رَجُلٍ مِنْكُمْ حِلْسًا مِنْ أَحْلَاسِ بَيْتِهِ مَا دَامَ «مُعَاوِيَةُ» حَيًّا، فَإِنَّهَا بَيْعَةٌ كُنْتُ وَاللهِ لَهَا كَارِهًا، فَإِنْ هَلَكَ «مُعَاوِيَةُ» نَظَرْنَا وَنَظَرْتُمْ وَرَأَيْنَا وَرَأَيْتُمْ.

وَهَا قَدْ هَلَكَ «مُعَاوِيَةُ»... إِذَنْ لِيَكْتُبُوا إِلَى «الْحُسَيْنِ» يَدْعُونَهُ، وَقَالُوا:

- نَكْتُبُ إِلَى «الْحُسَيْنِ».

فَقَالَ لَهُمْ «سُلَيْمَانُ»:

- يَا مَعْشَرَ النَّاسِ، إِنَّ «مُعَاوِيَةَ» قَدْ هَلَكَ، وَقَدِ امْتَنَعَ «الْحُسَيْنُ» مِنَ الْبَيْعَةِ، وَنَحْنُ شِيعَتُهُ وَأَنْصَارُهُ، فَإِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّكُمْ تَنْصُرُونَهُ وَتُجَاهِدُونَ بَيْنَ يَدَيْهِ فَافْعَلُوا، وَإِنْ خِفْتُمُ الْوَهَنَ وَالتَّخَاذُلَ فَلَا تَغُرُّوا الرَّجُلَ.

فَقَالُوا جَمِيعًا:

- بَلْ نُقَاتِلُ عَدُوَّهُ.

فَقَالَ «سُلَيْمَانُ» عِنْدَئِذٍ:

- اكْتُبُوا عَلَى اسْمِ اللهِ.

فَكَتَبُوا:

«بِسْـــمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ إِلَى الْحُسَـــيْنِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، مِنْ سُـــلَيْمَانَ بْنِ صُرَدٍ الْخُزَاعِيِّ، وَالْمُسَـــيَّبِ بْنِ نُجَيَّةَ، وَرِفَاعَةَ بْنِ شَـــدَّادٍ الْبَجَلِيِّ، وَحَبِيبِ بْنِ مُظَاهِرٍ الْأَسَدِيِّ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (مُسْلِمُ بْنُ عَوْسَجَةَ الْأَسَدِيُّ وَغَيْرُهُ) سَلَامٌ عَلَيْكَ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ، أَمَّا بَعْدُ:

فَإِنَّـــا نَحْمَدُ اللهَ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، وَنُصَلِّي عَـــلَى مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ، وَاعْلَمْ يَـــا ابْنَ مُحَمَّدٍ الْمُصْطَفَى وَابْنَ عَلِيٍّ الْمُرْتَضَـــى، أَنْ لَيْسَ لَنَا إِمَامٌ غَيْـــرُكَ، فَاقْدَمْ إِلَيْنَا، لَنَا مَا لَكَ وَعَلَيْكَ مَا عَلَيْنَا، فَلَعَلَّ اللهَ أَنْ يَجْمَعَنَا بِكَ عَلَى الْحَقِّ وَالْهُدَى.

وَاعْلَمْ أَنَّكَ تَقْدَمُ عَلَى جُنْدٍ مُجَنَّدَةٍ، وَأَنْهَارٍ مُتَدَفِّقَةٍ وَعُيُونٍ جَارِيَةٍ، فَإِنْ لَمْ تُقْـــدِمْ عَلَى ذَلِكَ، فَابْعَثْ أَحَدًا مِنْ أَهْلِ بَيْتِـــكَ يَحْكُمُ بَيْنَنَا بِحُكْمِ اللهِ تَعَالَى، وَسُنَّةِ جَدِّكَ رَسُـــولِ اللهِ صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَاعْلَمْ أَنَّ «النُّعْمَانَ ابْنَ بَشِيرٍ» فِي قَصْرِ الْإِمَارَةِ، وَلَسْنَا نَشْهَدُ مَعَهُ جُمُعَةً وَلَا جَمَاعَةً، وَلَوْ أَنَّكَ أَقْبَلْتَ إِلَيْنَا لَكُنَّا أَخْرَجْنَاهُ إِلَى الشَّامِ. وَالسَّلَامُ».

وَتَوَالَتِ الْكُتُبُ عَلَى «الْحُسَـــيْنِ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وَتَوَاتَرَتْ، وَكَثُرَتْ حَتَّى بَلَغَتْ حِمْلَ جَمَلَيْنِ، كُلُّهَا تَدْعُوهُ لِلْحُضُورِ إِلَى الْكُوفَةِ.

وَرَاحَ الْحُسَـيْنُ يُفَكِّرُ فِي أَمْرِ هَذِهِ الْكُتُبِ.. إِنَّهُ خَـرَجَ مِنْ مَكَّةَ فِرَارًا مِـنَ الظُّلْمِ وَالِاضْطِهَادِ، وَهَا هُمْ أَهْلُ الْعِـرَاقِ يَدْعُونَهُ لِنُصْرَتِهِ، فَلَوْ أَنَّهُ خَرَجَ إِلَيْهِمْ لَاشْتَدَّ سَـاعِدُهُ بِهِمْ، وَحَارَبَ الْجَوْرَ وَالظُّلْمَ، وَأَقَامَ دَعَائِمَ الْعَدْلِ وَالْإِنْصَافِ، وَلَهُ فِي جَدِّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ؛ فَمَا إِنْ دَعَاهُ أَهْلُ «الْمَدِينَةِ» حَتَّـى لَبَّى دَعْوَتَهُمْ وَخَرَجَ إِلَيْهِمْ وَانْتَصَرَ بِهِمْ عَلَى الْبَاطِلِ وَالضَّلَالِ؛ وَمَا كَانَ لِـ«الْحُسَـيْنِ» أَنْ يُحْجِمَ وَهُوَ رَجُلُ الْإِقْدَامِ؛ فَكَتَبَ إِلَى أَهْلِ الْكُوفَةِ مُسْتَجِيبًا لَهُمْ، وَبَعَثَ بِكِتَابِهِ مَعَ ابْنِ عَمِّهِ «مُسْلِمِ بْنِ عَقِيلٍ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مُفَوَّضًا مِنْهُ.

مُسْلِمُ بْنُ عَقِيلٍ فِي الْكُوفَةِ

بَلَغَ «مُسْلِمُ بْنُ عَقِيلٍ» الْكُوفَةَ بَعْدَ لَأْيٍ وَمَشَقَّةٍ، وَهُنَا تَخْتَلِفُ الرِّوَايَاتُ فِي ذِكْرِ اسْمِ صَاحِبِ الْبَيْتِ الَّذِي نَزَلَ فِيهِ، فَمِنَ الْمَرَاجِعِ التَّارِيخِيَّةِ مَا يَذْكُرُ أَنَّهُ نَزَلَ فِي دَارِ «مُسْلِمِ بْنِ عَوْسَجَةَ»، وَمِنْهَا مَا ذَكَرَ أَنَّهُ نَزَلَ فِي دَارِ «سُلَيْمَانَ ابْنِ صُرَدٍ»، وَالرَّأْيُ الْمُرَجَّحُ عِنْدِي أَنَّهُ نَزَلَ فِي دَارِ «سُـلَيْمَانَ»؛ وَسَـبَبُ ذَلِكَ أَنَّ «سُلَيْمَانَ» هُوَ رَأْسُ الْأَسَدِيِّينَ وَزَعِيمُهُمْ، وَ«مُسْلِمُ بْنُ عَوْسَجَةَ» أَحَدُهُمْ، وَلَا مَانِعَ مِنْ أَنْ يَكُونَ «مُسْـلِمُ بْنُ عَوْسَجَةَ» قَدْ حَضَرَ سَرِيعًا إِلَى دَارِ «سُلَيْمَانَ» وَالْتَقَى «ابْنَ عَقِيلٍ» هُنَاكَ، لِلتَّوْفِيقِ بَيْنَ الرِّوَايَاتِ الْمُخْتَلِفَةِ.

الْمُهِمُّ، أَنْ أَنْصَارَ «الْحُسَيْنِ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ضَاقَتْ بِهِمْ دَارُ «سُلَيْمَانَ»؛ إِذْ هُرِعُوا إِلَيْهَا مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، وَأَخَذُوا يَتَنَاوَبُونَ عَلَى الْكَلَامِ، وَيُعْلِنُونَ تَأْيِيدَهُمْ، وَقَدِ انْهَمَرَتِ الدُّمُوعُ مِنْ عُيُونِهِمْ، وَجَعَلُوا يَنْتَحِبُونَ، ثُمَّ بَايَعُوا «الْحُسَيْنَ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بِشَخْصِ «مُسْلِمِ بْنِ عَقِيلٍ»، وَمِمَّا قَالَهُ «مُسْلِمُ ابْنُ عَوْسَجَةَ»:

- إِنِّي لَسْتُ أَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِ النَّاسِ، وَلَكِنْ أُخْبِرُكَ بِمَا فِي نَفْسِي؛ إِذَا دَعَوْتُمُونِي أَجَبْتُكُمْ، وَأَضْرِبُ بِسَيْفِي عَدُوَّكُمْ، حَتَّى أَلْقَى اللهَ عَزَّ وَجَلَّ.

هَكَذَا كَانَ انْدِفَاعُ «مُسْلِمِ بْنِ عَوْسَجَةَ» فِي سَبِيلِ نُصْرَةِ «الْحُسَيْنِ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وَإِلَى هَذَا الْحَدِّ بَلَغَ حَمَاسُهُ حَدَّ التَّضْحِيَةِ بِالنَّفْسِ، وَالْجُودِ بِالرُّوحِ، وَاسْتِرْخَاصِ الْحَيَاةِ.

«ابْنُ عَوْسَجَةَ» فِي مَكَّةَ

ثُمَّ كَتَبَ «مُسْلِمُ بْنُ عَقِيلٍ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إِلَى «الْحُسَيْنِ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يُنْبِئُهُ بِمَا اجْتَمَعَ عَلَيْهِ أَهْلُ الْكُوفَةِ، وَيُخْبِرُهُ عَنْ مَدَى التَّأْيِيدِ الْوَاسِعِ الَّذِي لَقِيَهُ مِنَ النَّاسِ.

وَبَيْنَمَا نَحْنُ نَرَى «مُسْلِمَ بْنَ عَوْسَجَةَ» فِي الْكُوفَةِ مُقِيمًا، نَرَاهُ فِي صُفُوفِ «الْحُسَيْنِ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فِي (كَرْبَلَاءَ) مُقَاتِلًا؛ فَمِمَّا لَا شَكَّ فِيهِ

أَنَّ «مُسْلِمَ بْنَ عَوْسَجَةَ» قَدْ تَرَكَ الْكُوفَةَ وَالْتَحَقَ بِـ «الْحُسَيْنِ» فِي مَكَّةَ، ثُمَّ عَادَ مَعَهُ إِلَى الْكُوفَةِ. فَمَا هِيَ الظُّرُوفُ الَّتِي حَدَتْ بِهِ أَنْ يَتْرُكَ الْكُوفَةَ وَيَذْهَبَ إِلَى مَكَّةَ؟

هُنَاكَ أَسْمَاءٌ ثَلَاثَةٌ بَارِزَةٌ فِي رَكْبِ «الْحُسَيْنِ»، كُلُّهُمْ كَانَ يَسْكُنُ الْكُوفَةَ، وَكَانُوا فِيهَا عِنْدَ مَقْدِمِ «مُسْلِمِ بْنِ عَقِيلٍ» إِلَيْهَا، وَهُمْ: «زُهَيْرُ ابْنُ الْقَيْنِ»، وَ«حَبِيبُ بْنُ مُظَاهِرٍ»، وَ«مُسْلِمُ بْنُ عَوْسَجَةَ»، ثُمَّ نَرَاهُمْ فِي مُقَدِّمَةِ جَيْشِ «الْحُسَيْنِ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُم.

فَمِمَّا لَا شَكَّ فِيهِ أَنَّهُمْ جَمِيعًا قَدْ ذَهَبُوا إِلَى مَكَّةَ إِمَّا حَامِلِينَ رِسَالَةَ «مُسْلِمِ بْنِ عَقِيلٍ» إِلَى «الْحُسَيْنِ»، وَإِمَّا طَلِيعَةَ التَّأْيِيدِ الْعَمَلِيِّ لِثَوْرَتِهِ فِي وَجْهِ طُغْيَانِ «يَزِيدَ» وَانْحِرَافِهِ.

لَمْ يَكْتَفُوا «رَضِيَ اللهُ عَنْهُم» بِالْقَوْلِ دُونَ الْفِعْلِ، وَبِالْمَظْهَرِ الْأَجْوَفِ وَالْحَمَاسِ الْفَارِغِ دُونَ مَهْرِ الرَّأْيِ الْحُرِّ بِدَمِ الْأَحْرَارِ.

وَهَاكَ مَا يُشْعِرُ بِهَذَا الْمَوْقِفِ الْعَظِيمِ لِـ «مُسْلِمِ بْنِ عَوْسَجَةَ» حِينَ اسْتَشَارَهُمُ «الْحُسَيْنُ» فِي مَوْقِفِ الْمُوَاجَهَةِ مَعَ جَيْشِ «ابْنِ زِيَادٍ»، إِذْ قَالَ «مُسْلِمٌ»:

ـ أَنَحْنُ نَتَخَلَّى عَنْكَ وَلَمَّا نَعْذِرْ إِلَى اللهِ فِي أَدَاءِ حَقِّكَ؟! أَمَا وَاللهِ حَتَّى أَكْسِرَ فِي صُدُورِهِمْ رُمْحِي، وَأَضْرِبَهُمْ بِسَيْفِي مَا ثَبَتَ قَائِمُهُ فِي يَدِي،

وَلَا أُفَارِقُكَ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ مَعِي سِــلَاحٌ أُقَاتِلُهُمْ بِهِ لَقَذَفْتُهُمْ بِالْحِجَارَةِ دُونَكَ حَتَّى أَمُوتَ مَعَكَ!

الْمُوَاجَهَةُ

خَرَجَ «الْحُسَيْنُ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مِنْ مَكَّةَ وَتَوَجَّهَ إِلَى الْمَدِينَةِ، وَخَرَجَ مَعَهُ أَهْلُهُ وَمَوَالِيهِ، وَعَرَّجَ عَلَى قَبْرِ جَدِّهِ مُوَدِّعًا الْوَدَاعَ الْأَخِيرَ، ثُمَّ تَابَعَ سَيْرَهُ.

وَلَقَدْ كَانَ الْوَدَاعُ مُؤَثِّرًا؛ إِذْ وَقَفَ «الْحُسَــيْنُ» رَضِــيَ اللهُ عَنْهُ مُحَيِّيًا مُسَــلِّمًا وَالدُّمُوعُ الثَّخِينَةُ تَجْرِي فَوْقَ خَدَّيْهِ مِدْرَارًا.. كُلُّ ذَلِكَ عَلَى أَمَلِ اللِّقَاءِ الْقَرِيبِ.

لَــمْ يَكُنْ مَوْقِفُهُ «رَضِــيَ اللهُ عَنْهُ» مَوْقِــفَ الْمُــوَدِّعِ، وَلَكِنْ مَوْقِفَ الْمُسْــتَأْذِنِ الْمُعَاهِدِ، مَوْقِفَ التَّلَاقِي مَعَ صَاحِبِ الدَّعْوَةِ الْحَقِّ، وَرِسَالَةِ الْعَدْلِ، لِمُتَابَعَةِ الْمَسِيرَةِ الْعُظْمَى.

وَحَدَثَ مِنْ أَمْرِ جَيْشِ «ابْنِ زِيَادٍ» فِي الْتِقَائِهِ بِـ «الْحُســيْنِ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مَا سَــبَقَ وَعَرَفْتَ، وَمُحَاصَرَتُهُ لَهُ، وَمَنْــعُ الْمَاءِ عَنْهُ، وَفَرْضُ الْقِتَالِ عَلَيْهِ، وَانْحِيَازُ «الْحُرِّ بْنِ يَزِيدَ التَّمِيمِيِّ» إِلَى فِئَةِ «الْحُسَيْنِ».

وَكَانَ عَلَى رَأْسِ جُنْدِ «ابْنِ زِيَادٍ» رَجُلٌ اسْمُهُ «عُمَرُ بْنُ سَعْدٍ».

وَضَعَ «ابْنُ سَــعْدٍ» هَذَا سَهْمَهُ فِي كَبِدِ قَوْسِــهِ، ثُمَّ رَمَى بِاتِّجَاهِ رِجَالِ «الْحُسَيْنُ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وَقَالَ:

- أَيُّهَا النَّاسُ... اشْهَدُوا أَنِّي أَوَّلُ مَنْ رَمَى.

ثُمَّ حَمَلَتْ عَلَى «الْحُرِّ بْنِ يَزِيدَ» رَجَّالَةُ «ابْنِ سَعْدٍ» بِرَمْيِهِ بِالنَّبْلِ، فَأَقْبَلَ حَتَّى وَقَفَ أَمَامَ «الْحُسَيْنِ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، ثُمَّ سَكَنَتِ الْأَلْسِنَةُ لِتَتَكَلَّمَ السُّيُوفُ، وَلِيُحَاوِلَ الْبَاطِلُ أَنْ يُزْهِقَ الْحَقَّ، وَلَكِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا.

وَخَرَجَ «يَسَارٌ» مَوْلَى «زِيَادِ بْنِ أَبِيهِ» وَ«سَالِمٌ» مَوْلَى «عُبَيْدِ اللهِ بْنِ زِيَادٍ» فَقَالَا:

- مَنْ يُبَارِزُ؟ لِيَخْرُجْ إِلَيْنَا بَعْضُكُمْ.

فَوَثَبَ «حَبِيبُ بْنُ مُظَاهِرٍ» وَ«بُرَيْرُ بْنُ حُضَيْرٍ»، فَقَالَ لَهُمَا «الْحُسَيْنُ»:

- اجْلِسَا.

فَقَامَ «عَبْدُ اللهِ بْنُ عُمَيْرٍ» فَقَالَ:

- أَبَا عَبْدِ اللهِ - رَحِمَكَ اللهُ - ائْذَنْ لِي فَلْأَخْرُجْ إِلَيْهِمَا.

فَنَظَرَ «الْحُسَيْنُ» إِلَيْهِ، فَرَأَى رَجُلًا آدَمَ طَوِيلًا، شَدِيدَ السَّاعِدَيْنِ، بَعِيدَ مَا بَيْنَ الْمَنْكِبَيْنِ، فَقَالَ:

- إِنِّي لَأَحْسَبُهُ لِلْأَقْرَانِ قَتَّالًا، اخْرُجْ إِنْ شِئْتَ.

فَخَرَجَ «عَبْدُ اللهِ بْنُ عُمَيْرٍ»، فَقَالَا لَهُ:

- مَنْ أَنْتَ؟

فَانْتَسَبَ لَهُمَا، فَقَالَا:

- لَا نَعْرِفُكَ! لِيَخْرُجْ إِلَيْنَا «زُهَيْرُ بْـنُ الْقَيْنِ» أَوْ «حَبِيبُ بْنُ مُظَاهِرٍ» أَوْ «بُرَيْرُ بْنُ حُضَيْرٍ».

فَأَجَابَهُمَا:

- لَا يَخْرُجُ إِلَيْكُمَا أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ إِلَّا وَهُوَ خَيْرٌ مِنْكُمَا.

ثُمَّ شَـدَّ عَلَيْهِمَا بِسَـيْفِهِ، فَلَمَّا رَأَتْ زَوْجَتُهُ «أُمُّ وَهْبٍ» الَّتِي خَرَجَتْ مَعَهُ، مُبَارَزَةَ زَوْجِهَا لِرَجُلَيْنِ، أَخَذَتْ عَمُودًا ثُمَّ أَقْبَلَتْ نَحْوَهُ تَقُولُ لَهُ:

- فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي.. قَاتِلْ دُونَ الطَّيِّبِينَ: ذُرِّيَّةِ مُحَمَّدٍ.

فَأَقْبَلَ عَلَيْهَا يَرُدُّهَا نَحْوَ النِّسَاءِ، فَأَخَذَتْ تُجَاذِبُهُ ثَوْبَهُ، ثُمَّ قَالَتْ:

- إِنِّي لَنْ أَدَعَكَ دُونَ أَنْ أَمُوتَ مَعَكَ!

فَنَادَاهُ «الْحُسَيْنُ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ:

- جُزِيتُمْ مِنْ أَهْلِ بَيْتٍ خَيْرًا.. ارْجِعِي ـ رَحِمَكِ اللهُ ـ إِلَى النِّسَاءِ فَاجْلِسِي مَعَهُنَّ، فَإِنَّهُ لَيْسَ عَلَى النِّسَاءِ قِتَالٌ.

وَاسْتَمَرَّ «عَبْدُ اللهِ» يُبَارِزُ الرَّجُلَيْنِ حَتَّى أَرْدَاهُمَا، فَأَقْبَلَ يَرْتَجِزُ:

إِنِّي امْـــرُؤٌ ذُو مِـــرَّةٍ وَعَصَـــبْ

وَلَسْـــتُ بِالْخَـــوَّارِ عِنْـــدَ النَّكَبْ

إِنِّي زَعِـيـــمٌ لَـــكِ «أُمَّ وَهَـــبْ»

بِالطَّعْـــنِ فِيهِـــمْ مُقَدِّمًا وَالضَّرَبْ

ضَـرْبَ غُـــلَامٍ مُـؤْمِـنٍ بِالـــرَّبْ

وَاسْـتَمَرَّتِ الْمُبَارَزَةُ بَيْنَ الطَّرَفَيْنِ، فَمَا مِنْ رَجُـلٍ خَرَجَ لِأَصْحَابِ «الْحُسَيْنِ» إِلَّا قُتِلَ، فَصَاحَ رَجُلٌ مِنْ جَيْشِ «ابْنِ سَعْدٍ»:

- يَا حَمْقَـى... أَتَدْرُونَ مَنْ تُقَاتِلُونَ؟! إِنَّكُمْ تُقَاتِلُونَ فُرْسَـانَ الْمِصْرِ، قَوْمًا مُسْتَمِيتِينَ، لَا يَبْرُزَنَّ لَهُمْ مِنْكُمْ أَحَدٌ فَإِنَّهُمْ قَلِيلٌ، وَقَلَّ مَا يَبْقُونَ، وَاللهِ لَوْ لَمْ تَرْمُوهُمْ إِلَّا بِالْحِجَارَةِ لَقَتَلْتُمُوهُمْ.

وَأَدْرَكَ «ابْنُ سَـعْدٍ» صِحَّةَ قَوْلِ صَاحِبِهِ؛ إِذْ كَانَ رِجَالُ «الْحُسَـيْنِ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَفْذَاذًا قَلَّ نَظِيرُهُمْ، وَلَوِ اسْـتَمَرَّ الْأَمْرُ عَلَى مِنْوَالِ الْمُبَارَزَةِ الْفَرْدِيَّةِ لَقُضِيَ عَلَى الْعَدَدِ الْعَدِيدِ مِنْ جَيْشِ «ابْنِ سَـعْدٍ»، عِنْدَئِذٍ أَعْطَى أَوَامِرَهُ بِالِالْتِحَامِ وَالِاشْـتِبَاكِ، وَالْهُجُومِ الْعَامِّ، وَلَكِنْ عَلَى مَنْ؟! عَلَى فِئَةٍ قَلِيلَةٍ لَا يَتَجَاوَزُ عَدَدُ أَفْرَادِهَا الثَّمَانِينَ رَجُلًا! أَكْثَرُهُمْ رَجَّالَةٌ!!

ثُمَّ حَمَلَ «عَمْرُو بْنُ الْحَجَّاجِ» فِي مَيْمَنَةِ جَيْشِ «ابْنِ سَـعْدٍ» مِنْ نَحْوِ الْفُرَاتِ، وَاشْتَبَكَ بِفِرْقَتِهِ مَعَ أَبْطَالِ «الْحُسَيْنِ»، وَدَامَ الِاشْتِبَاكُ نَحْوًا مِنْ سَاعَةٍ عَلَا فِيهَا الْغُبَارُ مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ، وَثَارَ النَّقْعُ مِنْ كُلِّ صَوْبٍ، وَتَعَالَتِ الْأَصْوَاتُ بِالتَّكْبِيرِ، وَاشْتَدَّ الصُّرَاخُ، وَكَثُرَتْ قَعْقَعَةُ السِّلَاحِ، مِنْ سُيُوفٍ وَرِمَـاحٍ، وَاهْتَزَّتِ الْأَرْضُ تَحْتَ وَطْأَةِ الْخُيُولِ تَصُولُ وَتَجُولُ، ثُمَّ ارْتَدَّ «عَمْرُو بْنُ الْحَجَّاجِ» عَـلَى عَقِبَيْهِ مَعَ جُنْدِهِ مَذْمُومًـا مَدْحُورًا، وَانْجَلَى الْغُبَارُ، فَإِذَا «مُسْلِمُ بْنُ عَوْسَجَةَ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ صَرِيعًا تَنْزِفُ مِنْهُ الدِّمَاءُ، فَمَشَى إِلَيْهِ «الْحُسَيْنُ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، فَإِذَا بِهِ رَمَقٌ، فَقَالَ:

- رَحِمَكَ رَبُّكَ يَا «مُسْــلِمُ». ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾.

ثُمَّ دَنَا مِنْهُ «حَبِيبُ بْنُ مُظَاهِرٍ» وَقَالَ لَهُ:

- لَقَدْ عَزَّ عَلَيَّ مَصْرَعُكَ يَا «مُسْلِمُ»، أَبْشِرْ بِالْجَنَّةِ.

فَأَجَابَهُ «مُسْــلِمٌ» بِصَوْتٍ ضَعِيــفٍ وَهُوَ يُغَالِبُ حَشْــرَجَةَ الْمَوْتِ، وَأَنْفَاسُهُ ضَعِيفَةٌ مُتَهَالِكَةٌ:

- بَشَّرَكَ اللهُ بِالْخَيْرِ.

ثُمَّ قَالَ لَهُ «حَبِيبٌ»:

- لَوْلَا أَنِّي أَعْلَمُ أَنِّي فِي إِثْرِكَ لَاحِقٌ بِكَ مِنْ سَــاعَتِي هَذِهِ، لَأَحْبَبْتُ أَنْ تُوصِيَنِي بِكُلِّ مَا أَهَمَّكَ حَتَّى أَحْفَظَكَ فِي كُلِّ ذَلِكَ بِمَا أَنْتَ أَهْلٌ لَهُ فِي الْقَرَابَةِ وَالدِّينِ.

ثُمَّ كَانَتْ آخِرَ كَلِمَاتِ «مُسْلِمِ بْنِ عَوْسَجَةَ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَوْلُهُ، وَقَدْ أَشَارَ إِلَى «الْحُسَيْنِ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ:

- بَلْ أَنَا أُوصِيكَ بِهَذَا، رَحِمَكَ اللهُ ـ وَأَهْوَى بِيَدِهِ نَحْوَ «الْحُسَــيْنِ» ـ أَنْ تَمُوتَ دُونَهُ.

فَقَالَ «حَبِيبٌ»:

- أَفْعَلُ، وَرَبِّ الْكَعْبَةِ.

ثُمَّ أَطْبَقَ «مُسْلِمٌ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ جَفْنَيْهِ، وَأَغْفَى إِلَى الْأَبَدِ، وَأُسْدِلَ السِّتَارُ عَلَى فَصْلٍ مِنْ فُصُولِ مَأْسَاةِ (كَرْبَلَاءَ)!

❊❊❊

مَضَى «مُسْلِمُ بْنُ عَوْسَجَةَ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إِلَى رَبِّهِ يُرَتِّلُ تَرْنِيمَةً لِـ «الْحُسَيْنِ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ جَاءَ فِيهَا:

لَئِنْ كَانَتِ الدُّنْيَا تُعَدُّ نَفِيسَةً
فَدَارُ ثَوَابِ اللهِ أَعْلَى وَأَنْبَلُ
وَإِنْ كَانَتِ الْأَبْدَانُ لِلْمَوْتِ أُنْشِئَتْ
فَقَتْلُ امْرِئٍ بِالسَّيْفِ فِي اللهِ أَفْضَلُ
وَإِنْ كَانَتِ الْأَرْزَاقُ شَيْئًا مُقَدَّرًا
فَقِلَّةُ سَعْيِ الْمَرْءِ فِي الرِّزْقِ أَجْمَلُ
وَإِنْ كَانَتِ الْأَمْوَالُ لِلتَّرْكِ جَمْعُهَا
فَمَا بَالُ مَتْرُوكٍ بِهِ الْمَرْءُ يَبْخَلُ؟!

لَقَدْ جَادَ «رَضِيَ اللهُ عَنْهُ» ـ فِي سَبِيلِ مَا آمَنَ بِهِ ـ بِكُلِّ غَالٍ وَنَفِيسٍ. هَانَتِ الدُّنْيَا فِي عَيْنَيْهِ، وَصَغُرَ شَأْنُهَا عِنْدَهُ؛ لِأَنَّهُ تَعَلَّمَ مِنَ «الْحُسَيْنِ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ الْأَمْوَالَ مَتْرُوكَةٌ فَلَا يَبْخَلَنَّ بِهَا، وَأَنَّ هَذَا الْبَدَنَ آخِرَتُهُ جِيفَةٌ نَتِنَةٌ، وَأَنَّ الْقِيمَةَ ـ كُلَّ الْقِيمَةِ ـ لِلرُّوحِ وَالنَّفْسِ، وَالثَّبَاتِ عَلَى الْحَقِّ، وَالتَّفَانِي فِيهِ.. وَهَكَذَا يَلْقَى الْمُؤْمِنُونَ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ.

وَذَاعَ فِي النَّاسِ مَصْرَعُ «مُسْلِمِ بْنِ عَوْسَجَةَ»، فَصَاحَتْ جَارِيَةٌ تَقُولُ:

- يَا ابْنَ عَوْسَجَتَاهُ! يَا سَيِّدَاهُ!

فَتَنَادَى أَصْحَابُ «عَمْرِو بْنِ الْحَجَّاجِ»:

- قَتَلْنَا «مُسْلِمَ بْنَ عَوْسَجَةَ الْأَسَدِيَّ».

فَقِيلَ لَهُمْ:

- ثَكِلَتْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ! إِنَّمَا تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ بِأَيْدِيكُمْ، وَتُذَلِّلُونَ أَنْفُسَكُمْ لِغَيْرِكُمْ، وَتَفْرَحُونَ أَنْ يُقْتَلَ مِثْلُ «مُسْلِمِ بْنِ عَوْسَجَةَ»! أَمَا وَالَّذِي أَسْلَمْتُ لَهُ، لَرُبَّ مَوْقِفٍ لَهُ رَأَيْتُهُ فِي الْمِسْلِمِينَ كَرِيمٍ، لَقَدْ رَأَيْتُهُ يَوْمَ «سَلَقِ آذَرْبِيجَانَ» قَتَلَ سِتَّةً مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَبْلَ تَتَامِّ خُيُولِ الْمُسْلِمِينَ، أَفَيُقْتَلُ مِنْكُمْ مِثْلُهُ وَتَفْرَحُونَ؟!

***

لَقَدْ كَانَ «مُسْلِمُ بْنُ عَوْسَجَةَ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مِنَ الْمُجَاهِدِينَ الَّذِينَ حَمَلُوا سِلَاحَهُمْ، وَخَاضُوا غَمَرَاتِ مَعَارِكِ الْجِهَادِ لِإِعْلَاءِ كَلِمَةِ اللهِ، وَتَثْبِيتِ رَايَةِ الْإِسْلَامِ فِي أَقَاصِي الدُّنْيَا وَفِي كُلِّ مَكَانٍ، فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا، بَلْ كَانُوا يَشْعُرُونَ دَائِمًا وَأَبَدًا أَنَّهُمْ كُلَّمَا جُرِحُوا وَسَالَتْ دِمَاؤُهُمْ، وَتَعِبُوا وَنَصَبُوا، أَنَّهُمْ يَقْتَرِبُونَ مِنْ رَبِّهِمْ.

رَحِمَ اللهُ «مُسْلِمَ بْنَ عَوْسَجَةَ الْأَسَدِيَّ» طَلِيعَةَ الشُّهَدَاءِ يَوْمَ (كَرْبَلَاءَ)، وَرَضِيَ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ.

الْإِمَامُ الْحُسَيْنُ بْنُ عَلِيٍّ

رَضِيَ اللهُ عَنْهُ

أَبُو الشُّهَدَاءِ وَسَيِّدُ شَبَابِ أَهْلِ الْجَنَّةِ

تَوْطِئَةٌ

لَا نُرِيدُ هُنَا أَنْ نَكْتُبَ تَأْرِيخًا أَوْ تَرْجَمَةً لِحَيَاةِ الْإِمَامِ «الْحُسَيْنِ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، فَقَدْ سَبَقَنَا إِلَى ذَلِكَ الْأَمْرِ أَبْرَارُ الْأَخْيَارِ، فَوَفُّوا وَأَجَادُوا.

وَلَكِنَّا نُرِيدُ أَنْ نُسْهِمَ بِنَصِيبٍ مُتَوَاضِعٍ فِي إِلْقَاءِ الضَّوْءِ عَلَى بَعْضِ الْجَوَانِبِ التَّارِيخِيَّةِ لِلْيَوْمِ الَّذِي كُرِّسَ فِي لَوْحِ الزَّمَنِ يَوْمًا لِـ«الْحُسَيْنِ ابْنِ عَلِيٍّ»، وَالَّذِي سُجِّلَتْ أَحْدَاثُهُ الْجِسَامُ بِالدِّمَاءِ الطَّاهِرَةِ وَخُتِمَ عَهْدُهُ وَمِيثَاقُهُ بِخَاتَمِ الشَّهَادَةِ.

حَافِزُنَا إِلَى ذَلِكَ حُبُّنَا لِرَيْحَانَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وَوَفَاءً مِنَّا لِآلِ الْبَيْتِ الَّذِينَ قَالَ اللهُ تَعَالَى فِيهِمْ:

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾.

***

زَوَاجُ «عَلِيٍّ» وَ «فَاطِمَةَ»

بَعْدَ رُجُوعِ الْمُسْلِمِينَ مِنْ (بَدْرٍ)، وَقَدْ كَتَبَ اللهُ تَعَالَى لَهُمُ النَّصْرَ وَالظَّفَرَ فِي الْمَعْرَكَةِ الَّتِي خَاضَهَا بَنُو (عَبْدِ الْمُطَّلِبِ) بِصَبْرٍ وَجَلَدٍ، وَكَانُوا أَوَّلَ فُرْسَانِهَا وَطَلِيعَةَ مُقَاتِلِيهَا، وَأَبْلَى فِيهَا سَيِّدُ الْفُرْسَانِ «عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ» أَحْسَنَ الْبَلَاءِ، سَمِعَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ «فَاطِمَةَ الزَّهْرَاءَ» قَدْ خُطِبَتْ إِلى أَبِيهَا صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ، وَأَنَّهُ تَوَقَّفَ فِي ذَلِكَ قَائِلًا لِلْخَاطِبِينَ:

- إِنَّنِي أَنْتَظِرُ بِهَا الْقَضَاءَ.

وَرَأَى فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ أَوْلَى مِنْ غَيْرِهِ بِابْنَةِ عَمِّهِ، فَجَاءَ خَاطِبًا إِلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ.

وَرَغْمَ الْعُسْرَةِ الَّتِي كَانَ فِيهَا، فَقَدْ رَضِيَ بِهِ النَّبِيُّ؛ لِأَنَّ اللهَ تَعَالَى قَدْ أَرَادَ ذَلِكَ، وَتَمَّ قَضَاؤُهُ سُبْحَانَهُ فِي شَأْنِهِ.

وَجَهَّزَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ «فَاطِمَةَ»، وَأَرْسَلَهَا إِلَى بَيْتِ الزَّوْجِيَّةِ مَعَ «أُمِّ أَيْمَنَ» حَاضِنَتِهِ، ثُمَّ لَحِقَ بِهِمَا، وَرَنَا إِلَى «فَاطِمَةَ» فِي حَنَانٍ، ثُمَّ قَالَ لَهَا:

- ائْتِينِي بِمَاءٍ.

فَأَتَتْ بِهِ عَلَى اسْتِحْيَاءٍ وَخَفَرٍ، فَنَضَحَ بَيْنَ ثَدْيَيْهَا وَعَلَى رَأْسِهَا، وَقَالَ:

- اللَّهُمَّ إِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ.

ثُمَّ فَعَلَ بِـ «عَلِيٍّ» ذَلِكَ، وَقَالَ:

- اللَّهُمَّ بَارِكْ فِيهِمَا، وَبَارِكْ عَلَيْهِمَا، وَبَارِكْ لَهُمَا فِي شَمْلِهِمَا.

وَغَادَرَ الدَّارَ بَعْدَ أَنْ قَالَ لِـ «عَلِيٍّ»:

- ادْخُلْ بِأَهْلِكَ بِاسْمِ اللهِ وَعَلَى بَرَكَةِ اللهِ.

وَمَضَتِ الْأَيَّامُ...

وَاسْتَيْقَظَتْ «أُمُّ الْفَضْلِ» زَوْجَةُ «الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ» يَوْمًا مِنْ نَوْمِهَا عَلَى حُلْمٍ أَحَسَّتْ مِنْ خِلَالِهِ بِانْقِبَاضٍ فِي صَدْرِهَا، فَكَتَمَتْهُ زَمَنًا إِلَّا أَنَّهَا لَمْ تَسْتَطِعْ ذَلِكَ طَوِيلًا، فَجَاءَتْ إِلَى رَسُولِ اللهِ قَائِلَةً:

- يَا رَسُولَ اللهِ رَأَيْتُ كَأَنَّ عُضْوًا مِنْ أَعْضَائِكَ فِي بَيْتِي.

فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ:

- خَيْرًا رَأَيْتِهِ يَا أُمَّ الْفَضْلِ، تَلِدُ «فَاطِمَةُ» غُلَامًا فَتُرْضِعِينَهُ.

وَحِينَ وُلِدَ «الْحَسَنُ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ جَاءَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، فَأُخْرِجَ إِلَيْهِ الْمَوْلُودُ فِي خِرْقَةٍ صَفْرَاءَ، فَرَمَى بِهَا وَقَالَ:

- أَلَمْ أَنْهَكُمْ أَنْ تَلُفُّوا الْمَوْلُودَ فِي خِرْقَةٍ صَفْرَاءَ؟

وَأَمَرَ أَنْ يُلَفَّ فِي خِرْقَةٍ بَيْضَاءَ، فَلَفُّوهُ وَجَاءُوا بِهِ، فَقَطَعَ سُرَّتَهُ وَقَالَ:

- اللَّهُمَّ إِنِّي أُعِيذُهُ بِكَ وَوَلَدَهُ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ.

وَفِي الْيَوْمِ السَّابِعِ جَاءَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَقَالَ:

- أَرُونِي ابْنِي، مَا سَمَّيْتُمُوهُ؟

فَقَالَ «عَلِيٌّ» رَجُلُ السَّيْفِ وَالْحَرْبِ:

- حَرْبًا.

فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

- بَلْ هُوَ «حَسَنٌ».

وَنَحَرَ كَبْشًا، وَأَعْطَى الْقَابِلَةَ فَخِذًا وَدِينَارًا، وَقَالَ لِـ «الزَّهْرَاءِ»:

- يَا «فَاطِمَةُ» احْلِقِي رَأْسَهُ، وَتَصَدَّقِي بِزِنَةِ شَعْرِهِ فِضَّةً.

وَكَانَتِ «الزَّهْرَاءُ» رَضِيَ اللهُ عَنْهَا تُرْقِصُ وَلِيدَهَا وَتُهَدْهِدُهُ قَائِلَةً:

اشْبَهْ أَبَاكَ يَا «حَسَنْ» وَاخْلَعْ عَنِ الْحَقِّ الرَّسَنْ

وَاعْبُدْ إِلَهًا ذَا مِنَنْ وَلَا تُوَالِ ذَا الْإِحَنْ

وَلَمَّا انْقَضَى شَهْرٌ وَبَعْضُ شَهْرٍ، حَمَلَتْ «فَاطِمَةُ» رَضِيَ اللهُ عَنْهَا ثَانِيَةً، فَكَانَتْ «أُمُّ الْفَضْلِ» تُرْضِعُ «الْحَسَنَ»، وَتَحَقَّقَ تَأْوِيلُ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وَفِي يَوْمٍ جَاءَتْ بِهِ إِلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَوَضَعَتْهُ فِي حِجْرِهِ فَبَالَ، فَضَرَبَتْ كَتِفَهُ، فَنَظَرَ النَّبِيُّ إِلَيْهَا وَقَالَ:

- لَقَدْ أَوْجَعْتِ ابْنِي... رَحِمَكِ اللهُ.

ثُمَّ وَضَعَتِ «الزَّهْرَاءُ» مَوْلُودَهَا الثَّانِيَ، فَجَاءَ النَّبِيُّ وَقَالَ:

- أَرُونِي ابْنِي: مَا سَمَّيْتُمُوهُ؟

فَقَالَ «عَلِيٌّ»:

- حَرْبًا.

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

- بَلْ هُوَ «حُسَيْنٌ».

فَمِنَ الدَّوْحَةِ الْكَرِيمَةِ الطَّيِّبَةِ الْمُبَارَكَةِ، وَمِنْ يَنْبُوعِ النُّبُوَّةِ الصَّافِي عَبَقَ الْوُجُودُ كُلُّهُ بِهَذَيْنِ الْفَرْعَيْنِ الْمُزْهِرَيْنِ، وَمِنْ نَمِيرِ تَرَقْرُقِهِمَا فِي مَسَارِبِ الْبَشَرِيَّةِ وَالْإِنْسَانِيَّةِ اغْتَرَفَ النَّاسُ وَارْتَوَوْا.

وَشَبَّ الطِّفْلَانِ يَرْعَاهُمَا رَسُولُ اللهِ بِحَنَانِهِ وَعَطْفِهِ الْبَالِغِ، وَقَدْ غَرَسَ فِيهِمَا كُلَّ فَضِيلَةٍ وَخُلَّةٍ كَرِيمَةٍ، فَلَا عَجَبَ أَنْ يَقُولَ عَنْهُمَا:

- أَمَّا «الْحَسَنُ» فَلَهُ جُودِي وَكَرَمِي، وَأَمَّا «الْحُسَيْنُ» فَلَهُ سُؤْدُدِي وَهَيْبَتِي.

وَمَضَتِ الْأَعْوَامُ، وَلَحِقَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بِالرَّفِيقِ الْأَعْلَى، وَتَوَلَّى الْخِلَافَةَ «أَبُو بَكْرٍ» وَ«عُمَرُ» وَ«عُثْمَانُ» وَ«عَلِيٌّ»... وَأَرَادَ «بَنُو أُمَيَّةَ» أَنْ يَسْتَأْثِرُوا بِالْأَمْرِ وَيَجْعَلُوا الْخِلَافَةَ مُلْكًا عَضُودًا، عِنْدَئِذٍ تَصَدَّى الْإِمَامُ «عَلِيٌّ» لِلِانْحِرَافَاتِ يُقَوِّمُهَا، وَاشْتَعَلَتْ أَرْضُ الْإِسْلَامِ بِنِيرَانِ الْخِلَافِ، وَتَفَجَّرَتِ الْأَحْقَادُ، فَكَانَتْ مَعَارِكُ «الْجَمَلِ» وَ«صِفِّينَ» وَ«النَّهْرَوَانِ».

وَفِي لَيْلَةِ السَّابِـــعَ عَشَرَ مِنْ رَمَضَانَ سَنَةَ أَرْبَعِينَ لِلْهِجْرَةِ، وَمَعَ الْفَجْرِ، كَانَ الْإِمَامُ رَضِـــيَ اللهُ عَنْهُ مَعَ قَدَرِهِ فِي الشَّـــهَادَةِ؛ إِذْ طَعَنَهُ «ابْنُ مُلْجَمٍ» الْخَارِجِيُّ بِخِنْجَرٍ مَسْمُومٍ غَدْرًا وَغِيلَةً.

وَبَيْنَمَا كَانَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يُعَانِي مِنْ أَثَرِ السُّمِّ يَسْرِي فِي جَسَدِهِ الطَّاهِرِ، وَيَتَهَيَّأُ لِلِقَاءِ الْبَارِي عَزَّ وَجَلَّ دَعَا بِـ «الْحَسَـــنِ» وَ«الْحُسَـــيْنِ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا وَأَوْصَاهُمَا:

ـ أُوصِيكُمَا بِتَقْـــوَى اللهِ، وَأَنْ لَا تَبْغِيَا الدُّنْيَا وَإِنْ بَغَتْكُمَا، وَلَا تَبْكِيَا عَلَى شَـــيْءٍ زُوِّيَ عَنْكُمَا، وَقُولَا الْحَقَّ، وَارْحَمَا الْيَتِيمَ، وَأَغِيثَا الْمَلْهُوفَ، وَاصْنَعَا لِلْآخِرَةِ، وَكُونَا لِلظَّالِمِ خَصْمًا وَلِلْمَظْلُومِ نَاصِرًا، وَاعْمَلَا فِي كِتَابِ اللهِ، وَلَا تَأْخُذْكُمَا فِي الْحَقِّ لَوْمَةُ لَائِمٍ.

كَانَـــتْ هَذِهِ الْكَلِمَاتُ النَّيِّرَاتُ آخِرَ مَا وَصَّى بِهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بَنِيهِ، ثُمَّ بُويِعَ «الْحَسَنُ» بَعْدَ أَبِيهِ، فَخَطَبَ فِي النَّاسِ قَائِلًا:

ـ أَيُّهَا النَّاسُ، مَنْ عَرَفَنِي فَقَدْ عَرَفَنِي، وَمَنْ لَمْ يَعْرِفْنِي فَأَنَا «الْحَسَنُ بْنُ مُحَمَّدٍ رَسُـــولِ اللهِ»، أَنَا ابْنُ الْبَشِيرِ، أَنَا ابْنُ النَّذِيرِ، أَنَا ابْنُ الدَّاعِي إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَالسِّرَاجِ الْمُنِيرِ.

وَرَغْمَ الْمُرَاسَلَاتِ الْهَادِئَةِ فِي مَضْمُونِهَا الَّتِي بَعَثَ بِهَا «الْحَسَنُ» رَضِيَ اللهُ عَنْـــهُ إِلَى «مُعَاوِيَةَ» يَدْعُوهُ فِيهَا إِلَى الطَّاعَةِ وَوَحْدَةِ الْكَلِمَةِ وَحَقْنِ دِمَاءِ الْمُسْـــلِمِينَ، فَإِنَّ «مُعَاوِيَةَ» أَبَى ذَلِكَ، وَاسْتَغَلَّ دَهَاءَهُ وَمَكْرَهُ فِي اسْتِمَالَةِ

النَّاسِ تَارَةً بِالْمَالِ إِغْرَاءً، وَتَارَةً بِالْإِنْـذَارِ تَخْوِيفًا وَتَرْهِيبًا، حَتَّى وَصَلَ الْأَمْرُ إِلَى حَشْدِ الْجُيُوشِ وَالْتِحَامِ الْجُنُودِ.

وَلَقَدْ تَحَقَّقَتْ نُبُوءَةُ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَـلَّمَ فِي سِـبْطِهِ «الْحَسَنِ» حِينَ دَعَا إِلَى الصُّلْحِ وَتَنَازَلَ عَنِ الْخِلَافَةِ، وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ كُلِّ التَّهَجُّمَاتِ وَالِافْتِرَاءَاتِ الَّتِي كَانَ يَلْقَاهَا بِسَـبَبِ هَـذَا التَّصَرُّفِ، فَإِنَّهُ ظَلَّ عِنْدَ رَأْيِهِ الَّذِي اتَّخَذَهُ، وَالْقَرَارِ الَّذِي أَقَرَّهُ.

تَحَقَّقَتْ نُبُوءَةُ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ قَالَ فِي شَأْنِ «الْحَسَنِ»:

«أَمَّا ابْنِي هَذَا فَإِنَّ اللهَ يُصْلِحُ بِهِ بَيْنَ فِئَتَيْنِ مُتَقَاتِلَتَيْنِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ».

ثَارَ «الْحُسَيْنُ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وَجَاءَ إِلَى أَخِيهِ قَائِلًا:

ـ نَشَدْتُكَ اللهَ أَنْ تُصَدِّقَ أُحْدُوثَةَ «مُعَاوِيَةَ» وَتُكَذِّبَ أُحْدُوثَةَ «عَلِيٍّ».

فَقَالَ «الْحَسَنُ»:

ـ اسْكُتْ.. فَأَنَا أَعْلَمُ بِالْأَمْرِ مِنْكَ.

وَسَكَتَ «الْحُسَيْنُ» أَدَبًا؛ عَلَى مَضَضٍ وَكُرْهٍ.

وَلَمْ يَسْلَمِ «الْحَسَنُ» مِنَ الغَدْرِ؛ إِذْ دَسَّتْ لَهُ زَوْجَتُهُ «جَعْدَةُ بِنْتُ الْأَشْعَثِ ابْنِ قَيْسٍ» السُّـمَّ فِي الطَّعَامِ لِقَاءَ ثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ، وَحِينَ وَهَنَتْ قُوَاهُ وَأَحَسَّ بِدُنُوِّ الْأَجَلِ، قَالَ وَقَدْ تَخَيَّلَ صُورَةَ «مُعَاوِيَةَ»:

ـ لَقَدْ حَاقَتْ شَرْبَتُهُ، وَبَلَغَ أُمْنِيَّتَهُ، وَاللهِ مَا وَفَّى بِمَا وَعَدَ، وَلَا صَدَقَ فِيمَا قَالَ.

وَحِينَ دُفِنَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وَقَفَ أَخُوهُ «مُحَمَّدُ ابْنُ الْحَنَفِيَّةِ» يَرْثِيهِ قَائِلًا:

ـ لَقَدْ عَـزَّتْ حَيَاتُكَ، لَقَدْ هَدَّتْ وَفَاتُكَ، وَلَنِعْـمَ الرُّوحُ رُوحٌ تَضَمَّنَهَا كَفَنُكَ، وَلَنِعْمَ الْكَفَنُ كَفَنٌ تَضَمَّنَ بَدَنَكَ، وَكَيْفَ لَا تَكُونُ هَكَذَا وَأَنْتَ عَقِبَةُ الْهُدَى، وَخَلَفُ أَهْلِ التَّقْوَى، وَخَامِسُ أَصْحَابِ الْكِسَاءِ؟!

رَحِمَكَ اللهُ أَبَا مُحَمَّدٍ.

وَبَعْدَ أَنْ أَزَاحَ «مُعَاوِيَةُ» «الْحَسَـنَ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مِنْ طَرِيقِ «يَزِيدَ»، أَخَذَ يُفَكِّرُ فِي الْبَقِيَّةِ مِنْ آلِ هَاشِمٍ وَعَلَى رَأْسِهِمُ «الْحُسَيْنُ» الَّذِي لَا يَلِينُ، «الْحُسَـيْنُ» الَّذِي لَا يَقْبَلُ مُسَاوَمَةً، «الْحُسَـيْنُ» الَّذِي لَا يَرْهَبُ قِتَالًا، «الْحُسَيْنُ» الَّذِي لَا يُمْكِنُ أَنْ يَخْضَعَ لِصَوْلَةِ الْبَاطِلِ أَبَدًا.

كَيْفَ السَّبِيلُ إِلَيْهِ؟

فَكَّرَ وَقَدَّرَ، فَرَأَى أَنَّ الْمُصَاهَرَةَ مَعَ بَنِي هَاشِمٍ مَدْعَاةٌ وَسَبِيلٌ إِلَى كَسْرِ طَوْقِ الْجَفَاءِ وَالدِّمَاءِ، وَكَسْرِ حِدَّةِ الشَّحْنَاءِ.

فَأَرْسَـلَ إِلَى الْمَدِينَةِ يَخْطُبُ «أُمَّ كُلْثُومٍ بِنْتَ عَبْدِ اللهِ بْنِ جَعْفَرِ بْنِ أَبِي طَالِبٍ» وَابْنَةَ «زَيْنَبَ» الطَّاهِرَةِ بِنْتِ «الزَّهْرَاءِ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ لِابْنِهِ «يَزِيدَ».

وَفَوَّتَ «الْحُسَيْنُ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ هَذِهِ الْفُرْصَةَ عَلَى «مُعَاوِيَةَ»، وَرَفَضَ هَذِهِ الْمُصَاهَرَةَ، فَاشْـتَدَّ غَضَبُ «مُعَاوِيَةَ»، وَأَخَذَ الْبَيْعَةَ لِابْنِهِ «يَزِيدَ» مِنْ أَهْلِ الشَّـامِ، ثُمَّ وَلَّى «سَـعِيدَ بْنَ الْعَاصِ» عَلَى الْمَدِينَـةِ، وَطَلَبَ إِلَيْهِ أَنْ

يَأْخُذَ الْبَيْعَةَ لِـ «يَزِيدَ» مِنْ أَهْلِهَا، كَمَا أَرْسَـلَ عِدَّةَ رَسَائِلَ إِلَى «الْحُسَيْنِ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَلِغَيْرِهِ مِنْ بَنِي هَاشِمٍ يَتَوَعَّدُهُمْ فِيهَا وَيُهَدِّدُهُمْ، وَلَكِنْ دُونَ جَدْوَى.

وَظَلَّ «الْحُسَـيْنُ» عَلَى وَفَائِهِ لِلْحَقِّ، وَإِيمَانِهِ بِالْعَدْلِ وَالْقِسْطَاسِ، لَا يَرْهَبُ تَهْدِيدًا أَوْ يَخْشَى وَعِيدًا.

ثُمَّ سَعَى «مُعَاوِيَةُ» بِنَفْسِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ، وَلَقِيَ فِيهَا «الْحُسَيْنَ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وَحَاوَلَ بِشَتَّى الطُّرُقِ أَنْ يَأْخُذَ مِنْهُ الْبَيْعَةَ، وَلَكِنْ عَلَى غَيْرِ طَائِلٍ.

فَعَادَ إِلَى «دِمَشْـقَ» خَـالِيَ الْوِفَـاضِ، وَكَانَ أَكْثَرُ أَهْـلِ الْمَدِينَةِ عَلَى مَوْقِفِ «الْحُسَيْنِ» وَرَأْيِهِ.

❊❊❊

لَـمْ يَكُنْ «يَزِيدُ بْنُ مُعَاوِيَةَ» فَتًى غِرًّا وَمُنْحَرِفًا فَحَسْـبُ، وَلَكِنْ أَيْضًا مُدَلَّلًا لَا يُرَدُّ لَهُ عِنْدَ أَبَوَيْهِ طَلَبٌ.

وَلَقَدْ سَمِعَ بِجَمَالِ «أُرَيْنِبَ بِنْتِ إِسْحَاقَ» زَوْجَةِ «عَبْدِ اللهِ بْنِ سَلَّامٍ»، فَفُتِنَ بِهَا، وَلَقَدْ ذَكَرَ لِوَالِدِهِ مَا يُلَاقِيهِ مِنْ أَلَمِ الْهَوَى وَمُعَانَاةِ الْحُبِّ. فَفَكَّرَ الْأَبُ فِي حِيلَةٍ وَخَدِيعَةٍ يُحَقِّقُ بِهَا مَأْرِبَ ابْنِهِ الصَّبِّ، فَيَذْهَبُ عَنْهُ الْبَأْسُ وَالْأَسَى. فَأَرْسَـلَ إِلَى الْعِرَاقِ يَسْـتَدْعِي «عَبْدَ اللهِ بْنَ سَلَّامٍ»، فَلَمَّا قَدِمَ عَرَضَ عَلَيْهِ أَنْ يُزَوِّجَهُ ابْنَتَهُ، فَسُرَّ «ابْنُ سَلَّامٍ» لِذَلِكَ.

فَلَمَّا جَاءَ دَوْرُ الْخُطُوبَةِ، قَالَتِ ابْنَةُ «مُعَاوِيَةَ»:

ـ لَنْ أَرْضَى بِـ «عَبْدِ اللهِ» مَا لَمْ يُفَارِقْ زَوْجَتَهُ «أُرَيْنِبَ».

فَفَعَلَ «عَبْدُ اللهِ» مَا طَلَبَتِ ابْنَةُ «مُعَاوِيَةَ»، وَقَدْ كَانَ ذَلِكَ بِإِيحَاءٍ مِنْ أَبِيهَا.

وَقَضَى «عَبْـدُ اللهِ» أَيَّامًا فِي انْتِظَارِ جَوَابِ «مُعَاوِيَةَ» بِالْإِيجَابِ، وَطَالَ انْتِظَارُهُ عَلَى غَيْرِ جَدْوَى، ثُمَّ جَاءَهُ الرَّفْضُ صَفْعَةً أَشَدَّ وَأَقْوَى، وَأَدْرَكَ أَنَّهُ وَقَعَ ضَحِيَّةَ مُؤَامَرَةٍ، وَنَدِمَ عَلَى مَا فَرَطَ مِنْهُ، كَمَا جَافَاهُ «مُعَاوِيَةُ» بَعْدَ ذَلِكَ وَقَطَعَ عَنْهُ كُلَّ عَطَاءٍ وَرِفْدٍ!

ثُمَّ أَرْسَـلَ «مُعَاوِيَةُ» «أَبَا الدَّرْدَاءِ» إِلَى الْعِـرَاقِ لِيَخْطُبَ «أُرَيْنِبَ» إِلَى «يَزِيدَ»، وَكَانَ «الْحُسَيْنُ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فِي الْعِرَاقِ، فَجَاءَهُ «أَبُو الدَّرْدَاءِ» زَائِـرًا، وَذَكَرَ لَهُ الْغَرَضَ مِنْ قُدُومِهِ إِلَى الْعِرَاقِ، فَطَلَبَ إِلَيْهِ «الْحُسَـيْنُ» رَضِيَ اللهُ عَنْـهُ أَنْ يَذْكُرَهُ عِنْدَ «أُرَيْنِبَ»؛ لِأَنَّهُ فِيهَـا رَاغِبٌ، وَدَخَلَ «أَبُو الدَّرْدَاءِ» عَلَى «أُرَيْنِبَ» وَعَرَضَ عَلَيْهَا الْخَاطِبَيْنِ، وَأَثْنَى عَلَى «الْحُسَيْنِ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، فَرَضِيَتْ «أُرَيْنِبُ» بِـ«الْحُسَيْنِ» وَرَفَضَتْ «يَزِيدَ».

وَتَمَّ زَوَاجُ «الْحُسَيْنِ» مِنْ «أُرَيْنِبَ»، وَاشْتَدَّ غَضَبُ «مُعَاوِيَةَ» وَحَنَقُهُ عَلَى «الْحُسَـيْنِ»؛ فَقَدْ طَاشَ سَهْمُهُ وَضَلَّ سَعْيُهُ، وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى، وَأَخَذَ قَلْبُ «يَزِيدَ» يَزْدَادُ اضْطِرَامًا، وَيَغْلِي غَيْظًا مِنَ «الْحُسَيْنِ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

وَبَعْدَ أَنْ سَـاءَ حَالُ «ابْنِ سَـلَّامٍ» قَصَدَ الْعِرَاقَ، وَجَاءَ إِلَى «الْحُسَيْنِ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وَذَكَـرَ لَهُ أَنَّهُ قَدْ تَرَكَ عِنْدَ «أُرَيْنِـبَ» بَعْضَ الْمَالِ، وَهُوَ يَخْجَلُ مِنَ الطَّلَبِ لِسُـوءِ فِعْلِهِ مَعَهَا، وَبَكَى بَيْنَ يَدَيِ «الْحُسَيْنِ» ذَاكِرًا

أَيَّامَهُ السَّعِيدَةَ مَعَهَا، وَهَنَاءَ الْحَيَاةِ فِي كَنَفِهَا، فَرَقَّ قَلْبُ «الْحُسَيْنِ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لِحَالِ «عَبْدِ اللهِ»، وَكَتَمَ فِي نَفْسِهِ أَمْرًا، ثُمَّ دَخَلَ عَلَى «أُرَيْنِبَ» وَحَدَّثَهَا حَتَّى اسْتَوْثَقَ مِنْ حُبِّهَا لِـ «عَبْدِ اللهِ»، ثُمَّ جَمَعَهُمَا لِيَقْبِضَ «عَبْدُ اللهِ» مَالَهُ عِنْدَ «أُرَيْنِبَ»، فَلَمَّا الْتَقَيَا تَبَاكَيَا وَتَنَاجَيَا، فَقَالَ الْإِمَامُ «الْحُسَيْنُ»:

- أُشْهِدُ اللهَ أَنَّهَا طَالِقٌ ثَلَاثًا، اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنِّي لَمْ أَسْتَنْكِحْهَا رَغْبَةً فِي مَالِهَا وَلَا جَمَالِهَا، وَلَكِنِّي أَرَدْتُ إِحْلَالَهَا لِبَعْلِهَا.

وَعَادَتْ «أُرَيْنِبُ» إِلَى «عَبْدِ اللهِ»، وَجَزَى اللهُ «الْحُسَيْنَ» مَعْدِنَ الْفَضْلِ وَالْوَفَاءِ خَيْرًا، وَبَاءَ الْمُفْتَرِي بِإِثْمِهِ وَمَكْرِهِ.

وَمَرِضَ «مُعَاوِيَةُ» وَاشْتَدَّ بِهِ الْوَجَعُ، فَنَادَى ابْنَهُ «يَزِيدَ» وَأَوْصَاهُ، وَكَانَ مِمَّا قَالَهُ:

- ... وَلَسْتُ أَخْشَى عَلَيْكَ إِلَّا مِنْ أَرْبَعَةِ رِجَالٍ، فَإِنَّهُمْ لَا يُبَايِعُونَكَ، وَيُنَازِعُونَكَ فِي هَذَا الْأَمْرِ، أَوَّلُهُمْ «عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ أَبِي بَكْرٍ» فَإِنَّهُ صَاحِبُ دُنْيَا، فَمُدَّهُ بِدُنْيَاهُ وَدَعْهُ وَمَا يُرِيدُ فَضُرُّهُ لَكَ لَا عَلَيْكَ.

وَالثَّانِي «عَبْدُ اللهِ بْنُ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ» فَإِنَّهُ صَاحِبُ قُرْآنٍ وَمِحْرَابٍ، وَقَدْ تَخَلَّى عَنِ الدُّنْيَا وَرَغِبَ فِي الْآخِرَةِ، وَلَا أَظُنُّهُ يُنَازِعُكَ فِي هَذَا الْأَمْرِ وَلَا يُرِيدُهُ.

وَالثَّالِثُ «عَبْدُ اللهِ بْنُ الزُّبَيْرِ» سَيُرَاوِغُكَ مُرَاوَغَةَ الثَّعْلَبِ، وَيَجْثُو لَكَ جَثْوَةَ الْأَسَدِ، فَإِنْ حَارَبَكَ فَحَارِبْهُ، وَإِنْ سَالَمَكَ فَسَالِمْهُ، وَإِنْ أَشَارَ

عَلَيْكَ فَاقْبَلْ مِنْهُ مَشُورَتَهُ.

وَالرَّابِعُ «الْحُسَيْنُ بْنُ عَلِيٍّ» فَإِنَّ النَّاسَ تَدْعُوهُ حَتَّى يَخْرُجَ عَلَيْكَ، فَإِنْ ظَفِرْتَ بِهِ فَاحْفَظْ قَرَابَتَهُ مِنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وَمَاتَ «مُعَاوِيَةُ» وَخَلَفَهُ «يَزِيدُ» ابْنُهُ، فَأَرْسَلَ إِلَى وَالِيهِ عَلَى الْمَدِينَةِ يَطْلُبُ مِنْهُ أَنْ يَقْسِرَ «ابْنَ الزُّبَيْرِ» وَ«ابْنَ عُمَرَ» وَ«الْحُسَيْنَ» عَلَى الْبَيْعَةِ قَسْرًا، وَيُجْبِرَهُمْ عَلَيْهَا جَبْرًا.

فَاسْتَدْعَى «الْوَلِيدُ بْنُ عُتْبَةَ» «الْحُسَيْنَ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَ«ابْنَ الزُّبَيْرِ» فِي سَاعَةٍ مُتَأَخِّرَةٍ مِنَ اللَّيْلِ، وَأَدْرَكَ الْإِمَامُ بِثَاقِبِ نَظَرِهِ أَبْعَادَ هَذَا الِاسْتِدْعَاءِ غَيْرِ الْمُتَوَقَّعِ، فَقَالَ:

- أَرَى أَنَّ «مُعَاوِيَةَ» قَدْ هَلَكَ، فَبَعَثَ إِلَيْنَا لِيَأْخُذَنَا بِالْبَيْعَةِ قَبْلَ أَنْ يَفْشُوَ فِي النَّاسِ الْخَبَرُ.

ثُمَّ جَمَعَ بَعْضَ إِخْوَانِهِ وَسَارَ بِهِمْ حَتَّى بَلَغَ دَارَ «الْوَلِيدِ بْنِ عُتْبَةَ»، وَاسْتَبْقَاهُمْ عِنْدَ الْبَابِ، وَقَالَ لَهُمْ:

- إِنِّي دَاخِلٌ فَإِنْ دَعَوْتُكُمْ أَوْ سَمِعْتُمْ صَوْتَهُ قَدْ عَلَا، فَاقْتَحِمُوا عَلَيَّ بِأَجْمَعِكُمْ، وَإِلَّا فَلَا تَبْرَحُوا حَتَّى أَخْرُجَ إِلَيْكُمْ.

ثُمَّ دَخَلَ.. وَبَعْدَ جِدَالٍ مَعَ «الْوَلِيدِ» قَالَ «الْحُسَيْنُ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ:

- إِنَّ مِثْلِي لَا يُبَايِعُ سِرًّا، وَلَا أَرَاكَ تَجْتَزِئُ بِهَا مِنِّي سِرًّا دُونَ أَنْ تُظْهِرَهَا عَلَى رُؤُوسِ النَّاسِ عَلَانِيَةً.

فَانْصَاعَ «الْوَلِيدُ» لِرَغْبَةِ «الْحُسَيْنِ»، كَمَا كَانَ تَصَرُّفُهُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فِي غَايَةِ الْبَرَاعَةِ وَالْحَذَرِ، وَدَلِيلًا بَيِّنًا عَلَى حُنْكَةٍ وَدِرَايَةٍ.

دَخَلَ «الْحُسَيْنُ» دَارَهُ يُفَكِّرُ وَيُدَبِّرُ أَمْرَهُ، وَأَهَمَّهُ فِكْرُهُ فَمَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُبَايِعَ لِـ«يَزِيدَ»، وَلَوْ بَايَعَ لَهُ لَأَقَرَّ الْفِسْقَ وَالْفُجُورَ، وَثَبَّتَ دَعَائِمَ الظُّلْمِ وَالطُّغْيَانِ، وَمَكَّنَ لِلْبَاطِلِ.

فَبَيَّتَ النِّيَّةَ عَلَى الْخُرُوجِ إِلَى «مَكَّةَ» بِأَهْلِهِ أَجْمَعِينَ، وَأَمَرَهُمْ بِالتَّأَهُّبِ لِلرَّحِيلِ، وَأَنْ لَا يَطْلُعَ عَلَيْهِ فَجْرُ الْيَوْمِ التَّالِي إِلَّا وَهُوَ فِي الطَّرِيقِ، ثُمَّ دَخَلَ قَبْرَ الرَّسُولِ «صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ» مُوَدِّعًا قَبْلَ الرَّحِيلِ، فَبَانَ فِي وَجْهِهِ الْأَسَى الْعَمِيقُ، وَغَامَتْ عَيْنَاهُ بِالدُّمُوعِ، وَقَالَ وَهُوَ يَشْرَقُ بِعَبَرَاتِهِ:

- بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللهِ، لَقَدْ خَرَجْتُ مِنْ جِوَارِكَ كَرْهًا، وَفُرِّقَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ، وأُخِذْتُ قَهْرًا أَنْ أُبَايِعَ «يَزِيدَ» شَارِبَ الْخُمُورِ وَرَاكِبَ الْفُجُورِ، وَإِنْ فَعَلْتُ كَفَرْتُ وَإِنْ أَبَيْتُ قُتِلْتُ، فَهَا أَنَا خَارِجٌ مِنْ جِوَارِكَ كَرْهًا... فَعَلَيْكَ السَّلَامُ مِنِّي يَا رَسُولَ اللهِ.

وَهَاجَرَ «الْحُسَيْنُ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مِنْ مَدِينَةِ جَدِّهِ، فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَائِلًا:

- رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ، وَيُرَدِّدُ:

إِذَا الْمَرْءُ لَا يَحْمِي بَنِيهِ وَعِرْضَهُ

وَعِتْرَتَهُ كَانَ اللَّئِيمَ الْمُسَبَّبَا

وَمِنْ دُونِ مَـا يَبْغِي «يَزِيـدُ» بِنَا غَدًا

نَخُوضُ بِحَارَ الدَّمِ شَـرْقًا وَمَغْـرِبَا

وَنَضْـرِبُ ضَرْبًا كَالْحَرِيقِ مُقَـدَّمًا

إِذَا مَـا رَآهُ ضَيْغَمٌ فَـرَّ مَـهْـرَبَا

وَمَضَى فِي طَرِيقِهِ حَتَّى لَاحَتْ لَهُ أَرْبَاضُ «مَكَّةَ»، فَنَظَرَ إِلَى السَّـمَاءِ، وَقَالَ:

ـ اللَّهُمَّ خُذْ لِي بِحَقِّي، وَقَرَّ عَيْنِي، رَبِّ اهْدِنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ.

وَدَخَلَ الْحَرَمَ الْآمِنَ.

***

وَوَقَعَ «مُسْلِمُ بْنُ عَقِيلٍ» فِي قَبْضَةِ «عُبَيْدِ اللهِ بْنِ زِيَادٍ» بَعْدَ أَنْ تَخَلَّى عَنْهُ أَكْثَـرُ أَهْلِ الْكُوفَةِ رَغْبًا وَرَهَبًا، وَلَقِيَ ـ رَضِـيَ اللهُ عَنْهُ ـ مَصْرَعَهُ بَعْدَ أَنْ أُمِّنَ، وَمَضَى شَهِيدًا.

وَيَذْكُرُ التَّارِيخُ أَنَّ «مُسْـلِمَ بْنَ عَقِيلٍ» عِنْدَمَـا أُخِذَ إِلَى مَصْرَعِهِ بَكَى، فَظَنَّ بَعْضُهُمْ أَنَّهُ يَبْكِي مِنَ الْمَوْتِ، فَقَالَ لِلسَّائِلِ:

ـ أَمَا وَاللهِ لَسْـتُ أَبْكِي عَلَى نَفْسِـي، وَلَكِنْ أَبْكِي عَلَى «الْحُسَيْنِ» وَآلِ «الْحُسَيْنِ»؛ إِنَّهُ قَدْ خَرَجَ إِلَيْكُمُ الْيَوْمَ أَوْ أَمْسِ مِنْ مَكَّةَ.

وَأَخَذَ يُرَدِّدُ:

جَـــزَى اللهُ عَنَّا قَوْمَنَا شَرَّ مَا جَـــزَى

شِـــــرَارَ الْمَـوَالِي بَلْ أَعَـــقَّ وَأَظْلَمَا

هُـــمُ مَنَعُـــونَا حَقَّـــــنَا وَتَظَـاهَرُوا

عَلَيْنَـــا وَرَامُـوا أَنْ نَـــــذِلَّ وَنُرْغَـمَا

أَغَـــــارُوا عَلَيْنَـــا يَسْفِكُونَ دِمَـــاءَنَا

وَلَمْ يَرْقُبُـــوا فِينَـا ذِمَـــــامًا وَلَا دَمَـا

فَنَحْنُ بَنُـــو «الْمُخْتَـــارِ» لَا خَلْقَ مِثْلَنَا

نَبِيٌّ أَبَـــــتْ أَرْكَـــــانُهُ أَنْ تُهَـدَّمَـــا

وَرَفَعَ عَيْنَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ قَبْلَ أَنْ يُغْلِقَهُمَا إِلَى الْأَبَدِ، وَقَالَ:

- اللَّهُمَّ احْكُمْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمٍ غَرُّونَا وَخَذَلُونَا.

***

وَانْطَلَقَ «الْحُسَـــيْنُ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مِنْ مَكَّةَ مَعَ أَهْلِهِ وَمَوَالِيهِ، بَعْدَ أَنْ جَاءَهُ كِتَابُ «مُسْلِمِ بْنِ عَقِيلٍ» يَدْعُوهُ فِيهِ إِلَى الْكُوفَةِ، وَلَقَدْ رَفَضَ «رَضِيَ اللهُ عَنْـــهُ» أَنْ يَقْبَلَ مِنْ نَاصِحٍ قَوْلًا أَوْ رَأْيًا أَوْ مَشُـــورَةً، وَمَا أَكْثَرَ مَا جَاءَهُ النَّاصِحُونَ يَدْعُونَهُ إِلَى الْبَقَـــاءِ فِي «مَكَّةَ» وَعَدَمِ الرُّكُونِ إِلَى دَعَوَاتِ أَهْلِ الْكُوفَةِ.

وَإِنَّ الصُّورَةَ الَّتِي تُرْسَـــمُ فِي ذِهْنِ الْإِنْسَـــانِ مِنْ خِلَالِ ذَلِكَ تَدُلُّ عَلَى أَيِّ مَدًى وَصَلَ النَّاسُ ـ أُنَاسُ ذَلِكَ الْعَصْرِ ـ فِي اتِّقَاءِ السُّـــلْطَانِ وَمُدَاهَنَةِ

الْحُكَّامِ وَمُمَالَأَةِ الْوُلَاةِ، وَتَدُلُّ أَيْضًا عَلَى تَصَوُّرِ «الْحُسَيْنِ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لِنِهَايَتِهِ الَّتِي يُرِيدُ أَنْ يُفَجِّرَ مِنْ خِلَالِهَا الثَّوْرَةَ فِي سَبِيلِ الْحَقِّ وَالْعَدْلِ عَلَى كُلِّ طَاغِيَةٍ مُسْتَبِدٍّ ظَالِمٍ.

وَلَمَّا كَانَ فِي بَعْضِ الطَّرِيقِ، جَاءَهُ النَّذِيرُ بِاسْتِشْـــهَادِ «مُسْلِمٍ» وَتَخَاذُلِ أَهْلِ الْكُوفَةِ عَنْ نُصْرَتِهِ، فَقَالَ:

- إِنَّا للهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ.

وَعِنْدَهَـــا أَيْضًا أَعْلَنَ أَمَامَ الْمَلَأِ: مَنْ أَرَادَ أَنْ يَعُودَ إِلَى «مَكَّةَ» فَهُوَ حُرٌّ، وَلَسْنَا نُجْبِرُ أَحَدًا عَلَى السَّيْرِ مَعَنَا، وَلَيْسَ عَلَيْهِ مِنْ ذِمَامِي شَيْءٌ.

وَمَضَى «الْحُسَيْنُ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فِي طَرِيقِهِ حَتَّى الْتَقَى بِطَلِيعَةِ جَيْشِ «ابْنِ زِيَادٍ» الَّذِي ابْتَعَثَهُ لِصَدِّ «الْحُسَـــيْنِ» عَنْ غَايَتِهِ، وَكَانُوا أَلْفَ فَارِسٍ قَائِدُهُمُ «الْحُرُّ بْنُ يَزِيدَ التَّمِيمِيُّ».

وَقَالَ «الْحُرُّ» لِلْإِمَامِ «الْحُسَيْنِ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ:

- إِنِّي لَمْ أُومَرْ بِقِتَالِكَ، وَإِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ لَا أُفَارِقَكَ حَتَّى أُقْدِمَكَ الْكُوفَةَ عَلَى «ابْنِ زِيَادٍ»، فَإِذَا أَبَيْتَ فَخُذْ طَرِيقًا لَا يُقْدِمُكَ الْكُوفَةَ وَلَا يَرُدُّكَ إِلَى الْمَدِينَةِ، وَاكْتُبْ أَنْتَ إِلَى «يَزِيدَ» وَأَكْتُبُ أَنَا إِلَى «ابْنِ زِيَادٍ» إِنْ شِـــئْتَ، فَلَعَلَّ اللهَ يَأْتِي بِأَمْرٍ يَرْزُقُنِي فِيهِ الْعَافِيَةَ مِنْ أَنْ أُبْتَلَى بِشَيْءٍ مِنْ أَمْرِكَ.

وَقَالَ أَيْضًا:

- يَا «حُسَيْنُ» إِنِّي أُذَكِّرُكَ اللهَ فِي نَفْسِكَ، فَإِنِّي أَشْهَدُ لَئِنْ قَاتَلْتَ لَتُقْتَلَنَّ.

فَقَالَ «الْحُسَيْنُ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ:

- أَفَبِالْمَوْتِ تُخَوِّفُنِي؟!

وَتَمَثَّلَ بِهَذَيْنِ الْبَيْتَيْنِ:

سَـأَمْضِي وَمَا بِالْمَوْتِ عَـارٌ عَلَى الْفَتَى

إِذَا مَا نَـوَى حَقًّا وَجَـاهَدَ مُسْلِمَا

وَآسَى الرِّجَـالَ الصَّالِحِينَ بِنَفْسِـهِ

وَفَـارَقَ خَـوْفًا أَنْ يَعِيـشَ وَيُرْغَمَا

فَلَمَّا سَـمِعَ «الْحُرُّ» مِنْهُ ذَلِكَ تَنَحَّى عَنْهُ، وَجَعَلَ يَسِيرُ بِأَصْحَابِهِ نَاحِيَةً عَنْهُ، فَلَمَّا كَانَ اللَّيْلُ أَمَرَ «الْحُسَيْنُ» فِتْيَانَهُ أَنْ يَسْتَقُوا مِنَ الْمَاءِ كِفَايَتَهُمْ، ثُمَّ سَرَى حَتَّى خَفَقَ، وَاسْتَيْقَظَ وَهُوَ يَقُولُ:

- إِنَّا للهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ.

فَأَقْبَلَ عَلَيْهِ وَلَدُهُ «عَلِيٌّ» الْأَكْبَرُ وَقَالَ:

- يَا أَبَتِ، لِمَ اسْتَرْجَعْتَ؟ لَا أَرَاكَ اللهُ مَكْرُوهًا.

فَقَالَ «رَضِيَ اللهُ عَنْهُ»:

- يَا وَلَدِي خَفَقْتُ خَفْقَةً، فَرَأَيْتُ فَارِسًـا يَقُولُ: الْقَوْمُ يَسِيرُونَ وَالْمَنَايَا تَسِيرُ بِهِمْ.

فَقَالَ «عَلِيٌّ»:

- يَا أَبَتِ أَلَسْنَا عَلَى الْحَقِّ؟!

فَقَالَ «الْحُسَيْنُ»:

- بَلَى، نَحْنُ وَاللهِ عَلَى الْحَقِّ.

فَقَالَ «عَلِيٌّ»:

- إِذَنْ وَاللهِ لَا نُبَالِي.

***

وَخَضَعَ «عُمَرُ بْنُ سَعْدٍ» لِطَلَبِ «ابْنِ زِيَادٍ» وَإِغْرَاءَاتِهِ، وَتَوَلَّى قِيَادَةَ الْجَيْشِ الَّذِي أُرْسِلَ مَدَدًا لِـ«الْحُرِّ بْنِ يَزِيدَ التَّمِيمِيِّ»؛ كَيْ يُصَفِّيَ «الْحُسَيْنَ» وَآلَهُ.

وَأَرْسَلَ «ابْنُ زِيَادٍ» كِتَابًا إِلَى «الْحُرِّ» يَقُولُ فِيهِ:

- «أَمَّا بَعْدُ فَجَعْجِعْ بِـ «الْحُسَيْنَ» حِينَ يَبْلُغُكَ كِتَابِي وَيَقْدَمُ عَلَيْكَ رَسُولِي، فَلَا تُنْزِلْهُ إِلَّا بِالْعَرَاءِ فِي غَيْرِ حِصْنٍ وَعَلَى غَيْرِ مَاءٍ، وَقَدْ أَمَرْتُ رَسُولِي أَنْ يَلْزَمَكَ لَا يُفَارِقُكَ حَتَّى يَأْتِيَنِي بِإِنْفَاذِكَ أَمْرِي، وَالسَّلَامُ».

وَنَزَلَ «الْحُسَيْنُ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بِـ «كَرْبَلَاءَ»، وَكَأَنَّمَا كَانَتْ أَرْضُهُ تُنَادِيهِ، وَوَصَلَ جَيْشُ «ابْنِ سَعْدٍ» فَنَزَلَ قُبَالَتَهُ.

وَأَرْسَلَ «ابْنُ سَعْدٍ» إِلَى «الْحُسَيْنِ» يَسْأَلُهُ عَنْ سَبَبِ قُدُومِهِ، فَرَدَّ عَلَيْهِ:

- كَتَبَ إِلَيَّ أَهْلُ مِصْرِكُمْ هَذَا أَنْ أَقْدَمَ، فَأَمَّا إِذْ كَرِهُونِي، فَأَنَا أَنْصَرِفُ عَنْهُمْ.

وَاسْتَشَارَ «ابْنُ سَعْدٍ» «عُبَيْدَ اللهِ بْنَ زِيَادٍ» فِي رَدِّ «الْحُسَيْنِ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، فَأَبَى «ابْنُ زِيَادٍ» الْعَافِيَةَ وَالسَّلَامَةَ، وَأَمَرَ «ابْنَ سَعْدٍ» أَنْ يَمْنَعَ الْمَاءَ عَنِ «الْحُسَيْنِ» وَأَهْلِهِ، فَفَعَلَ مَا أَمَرَ بِهِ، فَرَكِبَ «الْحُسَيْنُ» رَاحِلَتَهُ وَاقْتَرَبَ مِنْ جَيْشِ «ابْنِ سَعْدٍ» وَنَادَى فِيهِمْ:

- أَيُّهَا النَّاسُ أَنْصِتُوا إِلَيَّ، انْسِبُونِي مَنْ أَنَا، ثُمَّ رَاجِعُوا نُفُوسَكُمْ: هَلْ يَحِلُّ لَكُمْ قَتْلِي وَأَنَا ابْنُ بِنْتِ نَبِيِّكُمْ؟ وَابْنُ صَفِيِّهِ وَأَوَّلِ الْمُؤْمِنِينَ؟ وَالْمُصَدِّقُ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَبِمَا جَاءَ مِنْ عِنْدِ اللهِ؟ أَلَيْسَ «حَمْزَةُ» سَيِّدُ الشُّهَدَاءِ عَمَّ أَبِي؟ أَوَ لَيْسَ «جَعْفَرٌ» الطَّيَّارُ فِي الْجَنَّةِ عَمِّي؟ أَمَا بَلَغَكُمْ قَوْلُ جَدِّي لِي وَلِأَخِي «الْحَسَنِ»: هَذَانِ سَيِّدَا شَبَابِ أَهْلِ الْجَنَّةِ؟ إِذَا كَرِهْتُمُونِي دَعُونِي أَنْصَرِفْ إِلَى مَا شِئْتُ مِنَ الْأَرْضِ.

فَقِيلَ لَهُ:

- انْزِلْ عَلَى حُكْمِ الْأَمِيرِ «ابْنِ زِيَادٍ»، فَمَا تَرَى إِلَّا مَا تُحِبُّ.

فَقَالَ:

- وَاللهِ لَا أُعْطِي بِيَدِي إِعْطَاءَ الذَّلِيلِ، وَلَا أَفِرُّ فِرَارَ الْعَبِيدِ. ﴿إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾.

وَمَرَّتْ أَيَّامٌ دُونَ أَنْ يَتَلَقَّى فِيهَا «ابْنُ زِيَادٍ» نَبَأً يَشْفِي غَلِيلَ حِقْدِهِ الْأَسْوَدِ، فَأَرْسَلَ إِلَى «ابْنِ سَعْدٍ» يَقُولُ لَهُ:

- أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي لَمْ أَبْعَثْكَ إِلَى «حُسَيْنٍ» لِتَكُفَّ عَنْهُ، وَلَا لِتُطَاوِلَهُ، وَلَا لِتُمَنِّيَهُ السَّلَامَةَ وَالْبَقَاءَ، وَلَا تَقْعُدَ لَهُ عِنْدِي شَافِعًا. اُنْظُرْ: فَإِنْ نَزَلَ «حُسَيْنٌ» وَأَصْحَابُهُ عَلَى الْحُكْمِ وَاسْتَسْلَمُوا، فَابْعَثْ بِهِمْ إِلَيَّ سِلْمًا، وَإِنْ أَبَوْا فَازْحَفْ إِلَيْهِمْ حَتَّى تَقْتُلَهُمْ وَتُمَثِّلَ بِهِمْ! فَإِنَّهُمْ لِذَلِكَ مُسْتَحِقُّونَ!! فَإِنْ قُتِلَ «حُسَيْنٌ» فَوَطِّئِ الْخَيْلَ صَدْرَهُ وَظَهْرَهُ؛ فَإِنَّهُ عَاقٌّ شَاقٌّ قَاطِعٌ ظَلُومٌ!! وَلَيْسَ دَهْرِي فِي هَذَا أَنْ يَضُرَّ بَعْدَ الْمَوْتِ شَيْئًا، وَلَكِنْ عَلَى قَوْلٍ لَوْ قَدْ قَتَلْتَهُ فَعَلْتَ هَذَا بِهِ، وَإِنْ أَنْتَ مَضَيْتَ لِأَمْرِنَا فِيهِ جَزَيْنَاكَ جَزَاءَ السَّامِعِ الْمُطِيعِ، وَإِنْ أَبَيْتَ فَاعْتَزِلْ عَمَلَنَا وَجُنْدَنَا، وَخَلِّ بَيْنَ «شَمِرِ بْنِ ذِي الْجَوْشَنِ» وَبَيْنَ الْعَسْكَرِ، فَإِنَّا قَدْ أَمَّرْنَاهُ. وَالسَّلَامُ.

وَكَانَ «ابْنُ سَعْدٍ» مِمَّنْ يَخْشَوْنَ الْعَزْلَ وَفُقْدَانَ السُّلْطَانِ، وَكَانَ مُتَعَلِّقًا بِالدُّنْيَا إِلَى أَقْصَى حَدٍّ، فَتَفَانَى فِي طَاعَةِ أَوَامِرِ «ابْنِ زِيَادٍ»، وَتَوَلَّى مَعَ «ابْنِ ذِي الْجَوْشَنِ» قِيَادَةَ الْجَيْشِ، وَزَحَفُوا بِاتِّجَاهِ مُخَيَّمِ «الْحُسَيْنِ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

❋❋❋

لَقَدْ كَانَ الْوَقْتُ لَيْلًا، فَطَلَبَ «الْحُسَيْنُ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إِلَيْهِمْ أَنْ يَنْصَرِفُوا هَذِهِ الْعَشِيَّةَ، حَتَّى يُصْبِحُوا فَيَنْظُرُوا مَاذَا يَفْعَلُونَ.

وَلَمَّا أَصْبَحَ الصَّبَاحُ رَكِبَ «الْحُسَيْنُ» دَابَّتَهُ، وَدَعَا بِمُصْحَفٍ فَوَضَعَهُ

أَمَامَهُ، وَرَأَى جَيْشَ «عُمَرَ بْنِ سَــعْدٍ» اللَّجِبَ قَدْ تَأَهَّــبَ لِقِتَالِ الْحَفْنَةِ الْمُصْطَفَاةِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، فَرَفَعَ يَدَيْهِ وَدَعَا:

- اللَّهُــمَّ أَنْتَ ثِقَتِــي فِي كُلِّ كَرْبٍ، وَرَجَائِي فِي كُلِّ شِــدَّةٍ، وَأَنْتَ لِي فِي كُلِّ أَمْــرٍ نَزَلَ بِي ثِقَةً، وَعُدَّةً، كَمْ مِنْ هَمٍّ يَضْعُفُ فِيهِ الْفُؤَادُ، وَتَقِلُّ فِيهِ الْحِيلَةُ، وَيَخْذِلُ فِيهِ الصَّدِيقُ، وَيَشْــمَتُ فِيهِ الْعَدُوُّ أَنْزَلْتَهُ بِي وَشَكَوْتُهُ إِلَيْكَ رَغْبَةً مِنِّي إِلَيْكَ عَنْ سِــوَاكَ، فَفَرَّجْتَهُ وَكَشَــفْتَهُ، فَأَنْتَ وَلِيُّ كُلِّ نِعْمَةٍ، وَصَاحِبُ كُلِّ حَسَنَةٍ، وَمُنْتَهَى كُلِّ رَغْبَةٍ.

وَتَأَجَّجَتِ النِّيــرَانُ الَّتِي أَوْقَدَهَا جَمَاعَةُ الْإِمَامِ «الْحُسَــيْنِ» خَلْفَهُمْ؛ لِيَحْمُــوا ظُهُورَهُمْ، وَاسْــتَعَرَتِ النُّفُوسُ، وَتَحَفَّزَتِ السُّــيُوفُ، وَأَطَلَّ الْمَوْتُ مِنْ ذُؤَابَاتِ الرِّمَاحِ.

وَنَادَى «الْحُسَيْنُ» بِالنَّاسِ قَائِلًا:

- أَيُّهَــا النَّاسُ، اعْلَمُوا أَنَّ الدُّنْيَا دَارُ فَنَاءٍ وَزَوَالٍ، مُتَغَيِّرَةٌ بِأَهْلِهَا مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ.

مَعَاشِرَ النَّاسِ، عَرَفْتُمْ شَرَائِعَ الْإِسْــلَامِ، وَقَرَأْتُمُ الْقُرْآنَ، وَعَلِمْتُمْ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ الْمَلِكِ الدَّيَّانِ، وَوَثَبْتُمْ عَلَى قَتْلِ وَلَدِهِ ظُلْمًا وَعُدْوَانًا!!

مَعَاشِــرَ النَّاسِ، أَمَا تَرَوْنَ إِلَى مَاءِ الْفُرَاتِ يَمُوجُ كَأَنَّهُ بُطُونُ الْحِيتَانِ، يَشْــرَبُهُ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى وَالْكِلَابُ وَالْخَنَازِيرُ، وَآلُ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَمُوتُونَ عَطَشًا؟!

فَأَجَابَهُ الطُّغَاةُ:

- أَقْصِرْ عَنْ هَذَا الْكَلَامِ... فَلَنْ تَذُوقَ الْمَاءَ وَلَا أَحَدٌ مِنْ أَصْحَابِكَ، بَلْ تَذُوقُوا الْمَوْتَ غُصَّةً.

فَعَادَ «رَضِيَ اللهُ عَنْهُ» إِلَى أَهْلِهِ وَقَالَ:

- إِنَّ الْقَوْمَ قَدِ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنْسَاهُمْ ذِكْرَ اللهِ، وَأُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ، أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ.

وَأَنْشَأَ يُرَدِّدُ:

تَعَدَّيْتُمُ يَا شَرَّ قَوْمٍ بِبَغْيِكُمْ
وَخَالَفْتُمُ فِينَا النَّبِيَّ مُحَمَّدَا

أَمَا كَانَ خَيْرُ الْخَلْقِ أَوْصَاكُمُ بِنَا؟
أَمَا كَانَ جَدِّي خَيْرُ خَلْقِ اللهِ أَحْمَدَا؟

أَمَا كَانَتِ الزَّهْرَاءُ أُمِّي وَوَالِدِي
عَلِيًّا أَخَا خَيْرِ الْأَنَامِ مُسَدَّدَا؟

لُعِنْتُمْ وَأُخْزِيتُمْ بِمَا قَدْ جَنَيْتُمُ
سَتَصْلُونَ نَارًا حَرُّهَا قَدْ تَوَقَّدَا

وَرَاجَعَ «الْحُرُّ بْنُ يَزِيدَ التَّمِيمِيُّ» نَفْسَهُ، وَأَدْرَكَ أَنَّهُ فِي وُقُوفِهِ إِلَى جَانِبِ الظُّلْمِ سَيَقَعُ فِي خُسْرَانٍ مُبِينٍ، فَأَعْلَنَهَا صَيْحَةً مُدَوِّيَةً تَنْطِقُ بِالْحَقِّ، وَانْحَازَ إِلَى فِئَةِ الْإِمَامِ، وَقَالَ:

- إِنِّي وَاللهِ أُخَيِّرُ نَفْسِي بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، وَوَاللهِ لَا أَخْتَارُ عَلَى الْجَنَّةِ شَيْئًا وَلَوْ قُطِّعْتُ وَحُرِّقْتُ.

وَقَالَ لِـ«الْحُسَيْنِ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ:

- إِنِّي قَدْ جِئْتُكَ تَائِبًا مِمَّا كَانَ مِنِّي إِلَى رَبِّي، وَمُوَاسِيًا لَكَ بِنَفْسِي حَتَّى أَمُوتَ بَيْنَ يَدَيْكَ.

ثُمَّ أَوْتَرَ «ابْنُ سَعْدٍ» قَوْسَهُ وَرَمَى، وَقَالَ:

- اشْهَدُوا أَنِّي أَوَّلُ مَنْ رَمَى!

وَبَدَأَ الْفُرْسَانُ مِنَ الطَّرَفَيْنِ بِالْمُبَارَزَةِ، وَرَاحَ الْفُرْسَانُ مِنْ جَيْشِ «ابْنِ سَعْدٍ» يَتَسَاقَطُونَ وَاحِدًا تِلْوَ الْآخَرِ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنْهُمْ:

- يَا حَمْقَى... أَتَدْرُونَ مَنْ تُقَاتِلُونَ؟! قَوْمًا مُسْتَمِيتِينَ... لَا يَبْرُزَنَّ لَهُمْ مِنْكُمْ أَحَدٌ، فَإِنَّهُمْ قَلِيلٌ، وَاللهِ لَوْ لَمْ تَرْمُوهُمْ إِلَّا بِالْحِجَارَةِ لَقَتَلْتُمُوهُمْ!

عِنْدَئِذٍ تَوَقَّفَ فُرْسَانُ جَيْشِ «ابْنِ سَعْدٍ» عَنِ الْمُبَارَزَةِ، وَتَلَاحَمُوا مَعَ الْفِئَةِ الْقَلِيلَةِ الْمُؤْمِنَةِ، فَاسْتَعَرَ الْقِتَالُ فِي صُفُوفِ أَصْحَابِ «الْحُسَيْنِ» الَّذِينَ لَمْ يَكُونُوا لِيَزِيدُوا عَنِ اثْنَيْنِ وَسَبْعِينَ: اثْنَيْنِ وَثَلَاثِينَ فَارِسًا، وَأَرْبَعِينَ رَاجِلًا.

سَقَطَ «عَبْدُ اللهِ بْنُ عُمَيْرٍ»، وَ«مُسْلِمُ بْنُ عَوْسَجَةَ»، وَ«زُهَيْرُ بْنُ الْقَيْنِ» وَ«حَبِيبُ بْنُ مُظَاهِرٍ»، وَكُلُّهُمْ كَانَ يَحْمِي «الْحُسَيْنَ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ؛ حَتَّى لَا تَنَالَهُ السُّيُوفُ وَالرِّمَاحُ.

وَأَدْرَكَتْهُمُ الصَّلَاةُ، فَصَلَّى «الْحُسَيْنُ» بِمَنْ بَقِيَ مِنْ أَصْحَابِهِ صَلَاةَ الْخَوْفِ، فَلَمَّا انْتَهَى قَالَ:

ـ هَذِهِ الْجَنَّةُ قَدْ فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا، وَاتَّصَلَتْ أَنْهَارُهَا، وَأَيْنَعَتْ ثِمَارُهَا، وَزُيِّنَتْ قُصُورُهَا.

وَهَذَا رَسُولُ اللهِ وَالشُّهَدَاءُ الَّذِينَ قُتِلُوا مَعَهُ، وَأَبِي وَأُمِّي يَتَوَقَّعُونَ قُدُومَكُمْ عَلَيْهِمْ، وَيَتَبَاشَرُونَ بِكُمْ، وَهُمْ مُشْتَاقُونَ إِلَيْكُمْ، فَحَامُوا عَنْ دِينِكُمْ، وَذُبُّوا عَنْ حَرَمِ رَسُولِ اللهِ وَعَنْ إِمَامِكُمْ وَابْنِ نَبِيِّكُمْ، فَقَدِ امْتَحَنَكُمُ اللهُ بِنَا، فَدَافِعُوا بَارَكَ اللهُ فِيكُمْ عَنَّا.

فَضَجَّ الْقَوْمُ بِالْبُكَاءِ وَالنَّحِيبِ، وَعَاهَدُوا اللهَ تَعَالَى وَرَسُولَهُ وَابْنَ بِنْتِهِ أَنْ لَا يَنَالَهُ مَكْرُوهٌ وَفِيهِمْ عِرْقٌ يَنْبِضُ بِالْحَيَاةِ.

ثُمَّ أَخَذَ الْقَتْلُ يَسْتَعِرُ فِي آلِ الْبَيْتِ، فَكَانَ أَوَّلَ قَتِيلٍ مِنْهُمْ هُوَ «عَلِيٌّ الْأَكْبَرُ» ابْنُ الْإِمَامِ «الْحُسَيْنِ»، ثُمَّ «عَبْدُ اللهِ بْنُ مُسْلِمِ بْنِ عَقِيلٍ»، ثُمَّ «الْقَاسِمُ بْنُ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ».

وَكَانَ «الْقَاسِمُ بْنُ الْحَسَنِ» غُلَامًا جَمِيلًا، بَرَزَ إِلَى الْمَيْدَانِ وَفِي يَدِهِ السَّيْفُ، وَعَلَيْهِ قَمِيصٌ وَإِزَارٌ، فَرَآهُ رَجُلٌ قُدَّ قَلْبُهُ مِنْ صَخْرٍ، فَشَدَّ عَلَيْهِ، فَمَا وَلَّى حَتَّى ضَرَبَ رَأْسَهُ بِالسَّيْفِ، فَوَقَعَ الْغُلَامُ لِوَجْهِهِ فَصَرَخَ:

ـ يَا عَمَّاهُ...

وَانْجَلَى الْغُبَارُ عَنِ «الْحُسَيْنِ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَهُوَ إِزَاءَ الْغُلَامِ، وَالْغُلَامُ يَفْحَصُ بِرِجْلَيْهِ مِنَ النَّزْعِ، وَ«الْحُسَيْنُ» يَقُولُ:

- بُعْدًا لِقَوْمٍ قَتَلُوكَ، عَزَّ وَاللهِ عَلَى عَمِّكَ أَنْ تَدْعُوَهُ فَلَا يُجِيبَكَ، وَلَا يَنْفَعَكَ، صَوْتٌ وَاللهِ كَثُرَ وَاتِرُهُ وَقَلَّ نَاصِرُهُ.

نَظَرَ «الْحُسَيْنُ» فَرَأَى أَهْلَ بَيْتِهِ صَرْعَى، وَأَصْحَابَهُ قَتْلَى؛ قُطِّعَتْ رُؤُوسُهُمْ وَأُلْقِيَتْ إِلَيْهِ، فَرَاحَ يُرَاقِبُهُمْ وَهُوَ وَالِهٌ حَزِينٌ، وَأَحَسَّ بِالظَّمَإِ يُضْنِيهِ، فَأَرَادَ أَنْ يَشْرَبَ قَبْلَ أَنْ يَلْقَى مَصْرَعَهُ، فَرَكِبَ وَدَنَا مِنَ الْمَاءِ لِيَشْرَبَ، فَرَمَاهُ رَجُلٌ بِسَهْمٍ فَوَقَعَ فِي فَمِهِ، ثُمَّ انْتَزَعَ «الْحُسَيْنُ» السَّهْمَ بِكَفَّيْهِ، فَامْتَلَأَتَا دَمًا، فَقَالَ:

- اللَّهُمَّ إِنِّي أَشْكُو إِلَيْكَ مَا يُفْعَلُ بِابْنِ بِنْتِ نَبِيِّكَ.

وَاسْتَسْلَمَ «الْحُسَيْنُ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لِقَدَرِهِ، فَوَدَّعَ إِخْوَتَهُ وَبَنَاتِهِ، فَرَفَعَتْ «سُكَيْنَةُ» صَوْتَهَا بِالْبُكَاءِ وَالنَّحِيبِ، فَضَمَّهَا إِلَى صَدْرِهِ وَقَالَ لَهَا:

سَيَطُولُ بُعْدِي يَا «سُكَيْنَةُ» فَاعْلَمِي
مِنْكِ الْبُكَاءَ إِذَا الْحِمَامُ أَتَانِي
لَا تُحْزِنِي قَلْبِي بِدَمْعِكِ حَسْرَةً
مَا دَامَ مِنِّي الرُّوحُ فِي جُثْمَانِ

وَانْطَلَقَ نَحْوَ الْأَعْدَاءِ صَارِخًا فِي وَجْهِهِمْ:

ـ وَيْحَكُمْ عَلَامَ تُقَاتِلُونِي؟! عَلَى حَقٍّ تَرَكْتُهُ؟! أَمْ عَلَى سُـنَّةٍ غَيَّرْتُهَا؟! أَمْ عَلَى شَرِيعَةٍ بَدَّلْتُهَا؟!

وَأَخَذَ الْقَوْمُ يَفِرُّونَ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ اتِّقَاءً لِسَـيْفِهِ، وَبَعْضُهُمْ كَيْ لَا يُسْأَلَ عَنْ دَمِهِ، وَكَانَ أَجْرَأَهُمْ عَلَى اللهِ «شَمِرُ بْنُ ذِي الْجَوْشَنِ» الَّذِي صَرَخَ فِي أَصْحَابِهِ:

ـ وَيْحَكُمْ! مَاذَا تَنْتَظِرُونَ بِالرَّجُلِ؟! اقْتُلُوهُ ثَكِلَتْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ.

وَحَمَلُـوا عَلَيْهِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، فَضُرِبَتْ كَفُّهُ الْيُسْـرَى، وَضُرِبَ عَلَى عَاتِقِهِ، فَانْصَرَفُوا عَنْهُ وَهُوَ يَنُوءُ وَيُكَبِّرُ، ثُمَّ هَمَّ لِيَقُومَ وَيُقَاتِلَ، فَلَمْ يَقْدِرْ، فَنَادَى:

ـ وَا جَدَّاهُ وَا مُحَمَّدَاهُ، وَا أَبَتَاهُ، وَا عَلِيَّاهُ، وَا أَخَاهُ وَا حَسَـنَاهُ، وَا غُرْبَتَاهُ، وَا عَطَشَاهُ، وَا غَوْثَاهُ، وَا قِلَّةَ نَاصِرَاهُ، أُقْتَلُ مَظْلُومًا وَجَدِّي الْمُصْطَفَى، وَأُذْبَحُ عَطْشَـانَ وَأَبِي عَلِيٌّ الْمُرْتَضَى، وَأُتْرَكُ مَهْتُـوكًا وَأُمِّي فَاطِمَةُ الزَّهْرَاءُ؟!

وَأَرَادَ «شَبَثُ بْنُ رِبْعِيٍّ» أَنْ يَجْتَزَّ رَأْسَ «الْحُسَيْنِ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، فَلَمَّا جَاءَهُ، رَمَقَهُ «الْحُسَيْنُ» بِطَرْفِهِ، فَأَطْرَقَ «شَبَثٌ» خِزْيًا، وَرَمَى السَّيْفَ مِنْ يَدِهِ وَوَلَّى هَارِبًا، فَقَابَلَهُ «سِنَانُ بْنُ أَنَسٍ»، وَقَالَ لَهُ:

ـ ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ وَعَدِمَكَ قَوْمُكَ، لِمَ رَجَعْتَ عَنْ قَتْلِهِ؟

فَقَالَ «شَبَثٌ»:

- يَا وَيْلَكَ أَنْتَ، إِنَّهُ فَتَحَ عَيْنَيْهِ فِي وَجْهِي، فَأَشْبَهَتَا عَيْنَيْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، فَاسْتَحْيَيْتُ أَنْ أَقْتُلَ شَبِيهًا لِرَسُولِ اللهِ.

فَذَهَبَ «سِنَانٌ» إِلَيْهِ وَاحْتَزَّ رَأْسَهُ، وَسَالَتْ دِمَاءُ «الْحُسَيْنِ» زَكِيَّةً؛ لِتُزَلْزِلَ مُلْكَ «بَنِي أُمَيَّةَ» وَتُقَوِّضَ أَرْكَانَهُ، وَلَقَدْ كَانَ «الْحُسَيْنُ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مَيِّتًا أَقْوَى مِنْهُ حَيًّا!

***

وَتَبَادَرَ رِجَالُ «ابْنِ سَعْدٍ» إِلَى نَهْبِ النِّسَاءِ، فَدَخَلُوا الْخَيْمَةَ فَأَخَذُوا مَا كَانَ فِيهَا، وَأَخَذُوا الْقِنَاعَ عَنْ رَأْسِ «زَيْنَبَ»، وَأَرَادَ بَعْضُهُمْ أَنْ يُجْهِزَ عَلَى «عَلِيٍّ» الْأَصْغَرِ بْنِ الْحُسَيْنِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَكَانَ مَرِيضًا طَرِيحَ الْفِرَاشِ، فَاحْتَضَنَتْهُ عَمَّتُهُ «زَيْنَبُ» وَحَمَتْهُ بِنَفْسِهَا، فَلَمْ يَقْتَرِبُوا مِنْهَا.

وَحُمِلَ رَأْسُ «الْحُسَيْنِ» إِلَى «ابْنِ زِيَادٍ» فِي الْكُوفَةِ، وَاسْتِيقَ النِّسَاءُ فِي الْمَوْكِبِ الْحَزِينِ.

وَرَاحَ «ابْنُ زِيَادٍ» يَنْكُتُ بِقَضِيبٍ بَيْنَ ثَنِيَّتَيْ رَأْسِ «الْحُسَيْنُ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، فَقَامَ «زَيْدُ بْنُ أَرْقَمَ» غَاضِبًا وَقَالَ لِـ «ابْنِ زِيَادٍ»:

- اعْلُ بِهَذَا الْقَضِيبِ عَنْ هَاتَيْنِ الثَّنِيَّتَيْنِ، فَوَالَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ لَقَدْ رَأَيْتُ شَفَتَيِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ عَلَى هَاتَيْنِ الشَّفَتَيْنِ يُقَبِّلُهُمَا.

وَانْفَجَرَ بَاكِيًا وَغَادَرَ الْمَكَانَ.

وَدَخَلَ رَكْبُ السَّبَايَا إِلَى دِمَشْقَ، وَ«عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ» مَغْلُولٌ بِغُلٍّ إِلَى عُنُقِهِ، وَقَدْ رُفِعَ رَأْسُ «الْحُسَيْنِ» عَلَى رُمْحٍ، وَتَتَابَعَتِ الرُّؤُوسُ، وَصَاحَتْ «أُمُّ كُلْثُومٍ» بَاكِيَةً مُنْتَحِبَةً:

- وَا مُحَمَّدَاهُ وَا جَدَّاهُ، وَا عَلِيَّاهُ وَا أَبَتَاهُ، وَا حَسَنَاهُ، وَا حُسَيْنَاهُ، وَا عَقِيلَاهُ، وَا عَبَّاسَاهُ، وَا بُعْدَ سَفَرَاهُ، وَا سُوءَ صَبَاحَاهُ.

وَأُدْخِلُوا عَلَى «يَزِيدَ»، وَأَبْدَى كُلٌّ مَا فِي نَفْسِهِ مِنْ حِقْدٍ وَضَغِينَةٍ عَلَى آلِ الْبَيْتِ. وَتَكَلَّمَتْ «زَيْنَبُ» فَأَفْحَمَتْ، وَتَكَلَّمَ «عَلِيٌّ» الْأَصْغَرُ فَنَطَقَ بِالْحِكْمَةِ وَأَخْرَسَ الْأَفْوَاهَ، أَفْوَاهَ الْبَاطِلِ وَالظُّلْمِ.

وَلَقَدْ كَانَتْ أُمْنِيَّةُ الْمَفْجُوعِينَ أَنْ يَكُونَ مُسْتَقَرُّهُمْ عِنْدَ جَدِّهِمْ فِي الْمَدِينَةِ، فَجُهِّزُوا بِمَا يُصْلِحُهُمْ وَمَضَوْا إِلَى غَايَتِهِمْ.

وَعِنْدَمَا ظَهَرَتْ لَهُمْ أَرْبَاضُ يَثْرِبَ بَعَثَ «عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ» رَسُولًا إِلَى أَهْلِ الْمَدِينَةِ يُخْبِرُهُمْ، فَخَرَجُوا وَقَدْ لَبِسُوا السَّوَادَ، وَلَاحَ عَلَى وُجُوهِهِمُ الْحُزْنُ الْعَمِيقُ، وَرَانَ عَلَى الْمَدِينَةِ الْوُجُومُ.

وَكَانَ لِسَانُ حَالِ أَهْلِ الْبَيْتِ يُرَدِّدُ:

مَاذَا تَقُولُونَ إِنْ قَالَ النَّبِيُّ لَكُمْ

مَاذَا فَعَلْتُمْ وَأَنْتُمْ آخِرُ الْأُمَمِ

بِعِـــتْرَتِي وَبِأَهْـلِي بَعْـــــدَ مُفْتَقَـــدِي

مِنْهُمْ أُسَـــارَى وَمِنْهُمْ ضُرِّجُوا بِدَمِ؟!

وَدَخَلَـــتْ «أُمُّ كُلْثُومٍ» عَلَى قَبْرِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَـــلَّمَ بَاكِيَةً تَقُولُ:

ـ السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا جَدَّاهُ، إِنِّي نَاعِيَةٌ إِلَيْكَ وَلَدَكَ «الْحُسَيْنَ».

❊❊❊

الْحُرُّ بْنُ يَزِيدَ التَّمِيمِيُّ

قَالَ اللهُ تَعَالَى:

﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ﴾.

***

وَجَاءَ فِي كِتَابِ (أَبُو الشُّهَدَاءِ «الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ») لِلْأُسْتَاذِ عَبَّاسِ الْعَقَّادِ ص١٣٠ قَوْلُهُ:

«... وَلَيْسَ فِي نَوْعِ الْإِنْسَانِ صِفَاتٌ عُلْوِيَّاتٌ أَنْبَلُ وَلَا أَلْزَمُ لَهُ مِنَ الْإِيمَانِ وَالْفِدَاءِ وَالْإِيثَارِ، وَيَقَظَةِ الضَّمِيرِ، وَتَعْظِيمِ الْحَقِّ، وَرِعَايَةِ

الْوَاجِبِ، وَالْجَلَدِ فِي الْمِحْنَةِ، وَالْأَنَفَةِ مِنَ الضَّيْمِ، وَالشَّجَاعَةِ فِي وَجْهِ الْمَوْتِ الْمَحْتُومِ.. وَهِيَ ـ وَمَثِيلَاتٌ لَهَا مِنْ طِرَازِهَا ـ هِيَ الَّتِي تَجَلَّتْ فِي حَوَادِثِ (كَرْبَلَاءَ) مُنْذُ نَزَلَ بِهَا رَكْبُ «الْحُسَيْنِ».. وَلَمْ تَجْتَمِعْ كُلُّهَا، وَلَا تَجَلَّتْ قَطُّ فِي مَوْطِنٍ مِنَ الْمَوَاطِنِ تَجَلِّيَهَا فِي تِلْكَ الْحَوَادِثِ، وَقَدْ شَاءَ الْقَدَرُ أَنْ تَكُونَ فِي جَانِبٍ مِنْهَا أَشْرَفَ مَا يَشْرُفُ بِهِ أَبْنَاءُ آدَمَ؛ لِأَنَّهَا فِي الْجَانِبِ الْآخَرِ مِنْهَا أَخْزَى مَا يُخْزَى بِهِ مَخْلُوقٌ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ...».

❊❊❊

وَلَئِنْ كَانَتْ لِكُلِّ بَطَلٍ شَهِيدٍ مِنْ أَبْطَالِ (كَرْبَلَاءَ) أُنْشُودَةُ مَوْتٍ وَتَرْنِيمَةُ شَهَادَةٍ، فَلَقَدْ تَجَلَّتْ يَقَظَةُ الضَّمِيرِ عِنْدَ «الْحُرِّ بْنِ يَزِيدَ التَّمِيمِيِّ» فِي أَسْمَى صُوَرِهَا، وَأَعْظَمِهَا إِشْرَاقًا وَبَهَاءً وَسَنَاءً، كَانَتْ يَقَظَةُ الضَّمِيرِ عِنْدَهُ صَلَاةَ اسْتِغْفَارٍ خَشَعَتْ فِيهَا كُلُّ جَوَارِحِهِ، وَذَابَ فِيهَا كِيَانُهُ الْمَادِّيُّ، وَسَمَا إِلَى أَعْلَى عِلِّيِّينَ، فَفَاضَتْ رُوحُهُ آيِبَةً تَائِبَةً، تَشِعُّ بِالْإِيمَانِ الصَّادِقِ، فَهَنِيئًا لَهُ الشَّهَادَةُ، وَتَعْسًا لِمَنْ تَلَوَّثَتْ أَيْدِيهِمْ بِدِمَائِهِ الزَّكِيَّةِ الطَّاهِرَةِ.

وَإِذَا صَحَّ الْقَوْلُ بِأَنَّ لِكُلِّ إِنْسَانٍ نَصِيبًا مِنِ اسْمِهِ، فَإِنَّ «الْحُرَّ بْنَ يَزِيدَ» يَحْمِلُ كُلَّ النَّصِيبِ، فَحُرِّيَّةُ الضَّمِيرِ عِنْدَهُ هِيَ مِشْعَلُهُ الْوَضَّاءُ الَّذِي أَنَارَ لَهُ السَّبِيلَ، وَبَدَّدَ لَهُ كُلَّ ظُلْمَةٍ. كَيْفَ لَا... وَهُوَ الْقَائِلُ:

ـ إِنِّي وَاللهِ أُخَيِّرُ نَفْسِي بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، وَوَاللهِ لَا أَخْتَارُ عَلَى الْجَنَّةِ شَيْئًا وَلَوْ قُطِّعْتُ وَحُرِّقْتُ.

كَانَ «الْحُرُّ بْنُ يَزِيدَ التَّمِيمِيُّ الْيَرْبُوعِيُّ» يُعْتَبَرُ مِنْ أَشْجَعِ الْفُرْسَانِ وَأَعْظَمِ الْمُقَاتِلِينَ فِي قَوْمِهِ «تَمِيمٍ»، وَقَدْ عَرَفَتِ الْكُوفَةُ ـ قَاصِيهَا وَدَانِيهَا ـ تِلْكَ الْمَكَانَةَ لَهُ، وَقُدِّرَتْ لَهُ هَذِهِ الْمَنْزِلَةُ عِنْدَهَا، فَمَا مِنْ عَرَبِيٍّ أَقَامَ فِي الْكُوفَةِ وَاسْتَوْطَنَهَا إِلَّا عَرَفَ هَذَا الْفَضْلَ وَتِلْكَ الْمَكْرُمَةَ، حَتَّى إِذَا مَا ذُكِرَتِ الشَّجَاعَةُ وَالْفُرُوسِيَّةُ ذُكِرَ اسْمُ «الْحُرِّ» مَقْرُونًا بِهَا.

وَلَمْ تَكُنِ الشَّجَاعَةُ وَالْجُرْأَةُ وَحْدَهَا مِيزَةَ «الْحُرِّ» وَعُنْوَانَ شَخْصِيَّتِهِ؛ فَقَدْ كَانَ يَتَمَتَّعُ إِلَى جَانِبِهَا بِصِفَاتٍ خُلُقِيَّةٍ عَدِيدَةٍ أَهَّلَتْهُ لِتَبَوُّءِ مَرْكَزِ الْقِيَادَةِ وَالرِّيَادَةِ.

❊❊❊

... وَسَمِعَ «الْحُسَيْنُ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ رَجُلًا يُكَبِّرُ، فَقَالَ لَهُ:

ـ مِمَّ كَبَّرْتَ؟

فَقَالَ:

ـ رَأَيْتُ النَّخِيلَةَ.

فَقَالَ رَجُلَانِ مِنْ أَصْحَابِهِ:

ـ إِنَّ هَذَا الْمَكَانَ لَمْ يَرَ أَحَدٌ مِنْهُ نَخِيلَةً.

فَقَالَ «الْحُسَيْنُ»:

ـ فَمَاذَا تَرَيَانِهِ رَأَى؟

فَقَالُوا:

- هَذِهِ خَيْلٌ قَدْ أَقْبَلَتْ.

فَسَأَلَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ:

- أَمَا لَنَا مَلْجَأٌ نَجْعَلُهُ فِي ظُهُورِنَا، وَنَسْتَقْبِلُ الْقَوْمَ مِنْ وَجْهٍ وَاحِدٍ؟

قَالُوا:

- بَلَى... «ذُو حَسَمٍ».

فَأَخَذَ ذَاتَ الْيَسَارِ إِلَيْهَا فَنَزَلَ، وَأَمَرَ بِأَبْنِيَتِهِ فَضُرِبَتْ، وَجَاءَ الْقَوْمُ وَهُمْ فِي أَلْفِ فَارِسٍ مَعَ «الْحُرِّ بْنِ يَزِيدَ»، وَهُمْ مُقَدِّمَةُ الْجَيْشِ الَّذِينَ بَعَثَهُمُ «ابْنُ زِيَادٍ» بِقِيَادَةِ «الْحُصَيْنِ بْنِ نُمَيْرٍ».

وَكَانَ «رَضِيَ اللهُ عَنْهُ» قَدْ تَلَقَّى قَبْلَ ذَلِكَ نَبَأَ مَصْرَعِ ابْنِ عَمِّهِ «مُسْلِمِ بْنِ عَقِيلٍ» وَ«هَانِئِ بْنِ عُرْوَةَ» وَرَسُولِهِ إِلَى الْكُوفَةِ «قَيْسِ بْنِ مُسْهِرٍ»، فَأَعْذَرَ مَنْ يُرِيدُ مِنْ أَصْحَابِهِ أَنْ يَعُودَ إِلَى أَهْلِهِ مُؤْثِرًا السَّلَامَةَ، وَمَضَى هُوَ وَمَنْ بَقِيَ مَعَهُ فِي طَرِيقِهِمْ، رَاضِيَ النَّفْسِ، لَا تُدَاخِلُهُ ذَرَّةٌ مِنْ شَكٍّ فِي مَصِيرِهِ، وَفِي مَا هُوَ سَائِرٌ إِلَيْهِ، حَتَّى كَانَ لِقَاؤُهُ مَعَ طَلِيعَةِ جَيْشِ «ابْنِ زِيَادٍ».

وَفِي نَحْوِ الظَّهِيرَةِ وَقَفَ جَيْشُ «الْحُرِّ» أَمَامَ «الْحُسَيْنِ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، فَهَبَّ أَصْحَابُ «الْحُسَيْنِ» وَفِي أَيْدِيهِمُ السُّيُوفُ، فَاقْتَرَبَ «الْحُرُّ» مِنَ «الْحُسَيْنِ» وَقَالَ:

- يَا «أَبَا عَبْدِ اللهِ» اسْقِنَا الْمَاءَ.

فَقَالَ «رَضِيَ اللهُ عَنْهُ» لِأَصْحَابِهِ:

- اسْقُوا الْقَوْمَ وَأَرْوُوا خَيْلَهُمْ.

كَمَا اقْتَرَبَ مِنْ رَجُلٍ مِنْهُمْ وَقَالَ لَهُ فِي رِقَّةٍ:

- يَا ابْنَ الْأَخِ... أَنْخِ الْجَمَلَ وَافْتَحِ الرِّوَايَةَ وَاشْرَبْ، وَاسْقِ رَاحِلَتَكَ.

وَدَخَلَ وَقْتُ الظُّهْـرِ، فَأَمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِهِ فَأَذَّنَ، ثُمَّ خَرَجَ فِي إِزَارٍ وَنَعْلَيْنِ وَقَالَ:

- أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَنْ رَأَى سُلْطَانًا جَائِرًا مُسْتَحِلًّا لِحُرُمِ اللهِ، نَاكِثًا لِعَهْدِ اللهِ، مُخَالِفًا لِسُنَّةِ رَسُولِهِ، يَعْمَلُ فِي عِبَادِ اللهِ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ، فَلَمْ يُغَيِّرْ عَلَيْهِ بِفِعْلٍ وَلَا قَوْلٍ، كَانَ حَقًّا عَلَى اللهِ أَنْ يُدْخِلَهُ مُدْخَلَهُ». أَلَا وَإِنَّ هَؤُلَاءِ قَدْ لَزِمُوا طَاعَةَ الشَّيْطَانِ، وَتَرَكُوا طَاعَةَ الرَّحْمَنِ، وَأَظْهَرُوا الْفَسَادَ، وَعَطَّلُوا الْحُدُودَ وَاسْتَأْثَرُوا بِالْفَيْءِ، وَأَحَلُّوا حَرَامَ اللهِ وَحَرَّمُوا حَلَالَهُ، وَأَنَا أَحَقُّ مَنْ غَيَّرَ...

وَقَدْ أَتَتْنِي كُتُبُكُمْ، وَقَدِمَتْ عَلَيَّ رُسُـلُكُمْ بِبَيْعَتِكُمْ أَنَّكُمْ لَا تُسْلِمُونِي وَلَا تَخْذُلُونِي، فَإِنْ تَمَّمْتُمْ عَلَيَّ بَيْعَتَكُمْ تُصِيبُوا رُشْـدَكُمْ، فَأَنَا «الْحُسَيْنُ ابْنُ عَلِيٍّ» وَابْنُ «فَاطِمَةَ» بِنْتِ رَسُـولِ اللهِ، نَفْسِي مَعَ أَنْفُسِكُمْ، وَأَهْلِي مَعَ أَهْلِيكُمْ، فَلَكُمْ فِيَّ أُسْوَةٌ، وَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَنَقَضْتُمْ عَهْدَكُمْ، وَخَلَعْتُمْ بَيْعَتِي مِنْ أَعْنَاقِكُـمْ، فَلَعَمْرِي مَا هِيَ لَكُمْ بِنُكْرٍ، لَقَـدْ فَعَلْتُمُوهَا بِأَبِي مِنْ قَبْلُ وَأَخِي وَابْنِ عَمِّي «مُسْلِمٍ»، وَالْمَغْرُورُ مَنِ اغْتَرَّ بِكُمْ، فَحَظَّكُمْ أَخْطَأْتُمْ، وَنَصِيبَكُمْ ضَيَّعْتُمْ، ﴿ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ﴾.

كَانَ «الْحُرُّ» يَسْتَمِعُ إِلَى كَلَامِ «الْحُسَيْنِ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فِي إِصْغَاءٍ وَمَيْلٍ.

ثُمَّ الْتَفَتَ إِلَيْهِ «الْحُسَيْنُ» وَقَالَ لَهُ:

- هَلْ تُرِيدُ أَنْ تُصَلِّيَ بِأَصْحَابِكَ؟

فَقَالَ «الْحُرُّ»:

- لَا... وَلَكِنْ صَلِّ أَنْتَ وَنَحْنُ نُصَلِّي وَرَاءَكَ.

فَوَقَفَ «الحُرُّ» مَعَ أَصْحَابِهِ خَلْفَ «الْحُسَيْنِ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يُؤَدُّونَ الصَّلَاةَ.

فَلَمَّا انْتَهَتْ، قَالَ «الحُرُّ» لِـ«الْحُسَيْنِ»:

- إِنَّا لَا نَدْرِي مَا هَذِهِ الْكُتُبُ...وَلَا مَنْ كَتَبَهَا.

فَأَحْضَرَ «الْحُسَيْنُ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ خُرْجَيْنِ مَمْلُوءَيْنِ كُتُبًا وَنَثَرَهَا بَيْنَ يَدَيْهِ، وَقَرَأَ مِنْهَا طَائِفَةً.

فَقَالَ «الحُرُّ»:

- لَسْنَا مِنْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَتَبُوا إِلَيْكَ فِي شَيْءٍ، وَقَدْ أُمِرْنَا إِذَا نَحْنُ لَقِينَاكَ أَلَّا نُفَارِقَكَ حَتَّى نُقْدِمَكَ عَلَى «عُبَيْدِ اللهِ بْنِ زِيَادٍ».

فَقَالَ «الْحُسَيْنُ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ :

- الْمَوْتُ أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ.

ثُمَّ قَالَ لِأَصْحَابِهِ:

- ارْكَبُوا.

فَرَكِبُوا، وَرَكِبَ النِّسَاءُ، فَلَمَّا أَرَادَ الِانْصِرَافَ، حَالَ الْقَوْمُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ بُغْيَتِهِ، فَقَالَ لِـ «الْحُرِّ»:

- ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ... مَاذَا تُرِيدُ؟

فَثَارَتْ حَمِيَّةُ «الْحُرِّ» وَقَالَ:

- أَمَا وَاللهِ لَوْ غَيْرُكَ يَقُولُهَا مِنَ الْعَرَبِ، وَهُوَ عَلَى مِثْلِ الْحَالِ الَّتِي أَنْتَ عَلَيْهَا لَأَقْتَصَّنَّ مِنْهُ، وَلَمَا تَرَكْتُ أُمَّهُ، وَلَكِنْ... لَا سَبِيلَ إِلَى ذِكْرِ أُمِّكَ إِلَّا بِأَحْسَنِ مَا نَقْدِرُ عَلَيْهِ.

وَثَارَ رِجَالُ الطَّرَفَيْنِ، وَامْتَدَّتْ أَيْدِيهِمْ إِلَى مَقَابِضِ سُيُوفِهِمْ، فَأَدْرَكَ «الْحُرُّ» مَغَبَّةَ الْأَمْرِ، فَقَالَ لِـ«الْحُسَيْنِ»:

- إِنِّي لَمْ أُومَرْ بِقِتَالِكَ، وَإِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ لَا أُفَارِقَكَ حَتَّى أُقْدِمَكَ الْكُوفَةَ عَلَى «ابْنِ زِيَادٍ»، فَإِذَا أَبَيْتَ فَخُذْ طَرِيقًا لَا يُقْدِمُكَ الْكُوفَةَ وَلَا يَرُدُّكَ إِلَى الْمَدِينَةِ، وَاكْتُبْ أَنْتَ إِلَى «يَزِيدَ» وَأَكْتُبُ أَنَا إِلَى «ابْنِ زِيَادٍ» إِنْ شِئْتَ، فَلَعَلَّ اللهَ أَنْ يَأْتِيَ بِأَمْرٍ يَرْزُقُنِي فِيهِ الْعَافِيَةُ مِنْ أَنْ أُبْتَلَى بِشَيْءٍ مِنْ أَمْرِكَ.

كَانَ «الْحُرُّ» يَقُولُ ذَلِكَ، وَيَعْرِضُ تِلْكَ الْعُرُوضَ، أَوْ يُنَفِّذُ الْأَوَامِرَ الَّتِي يَحْمِلُهَا، بِدَافِعٍ مِنْ (حُسْنِ النِّيَّةِ) الَّتِي مَلَكَتْ عَلَيْهِ كُلَّ إِحْسَاسِهِ وَتَفْكِيرِهِ، وَ(طِيبَةٍ) تَحَكَّمَتْ فِيهِ إِلَى أَبْعَدِ الْحُدُودِ وَأَقْصَاهَا، وَ(عَفْوِيَّةٍ) فِي تَقْدِيرِ الْعَوَاقِبِ، وَلَا يَظُنُّ أَبَدًا أَنَّ الْإِجْرَامَ سَيَبْلُغُ بِـ «ابْنِ زِيَادٍ» وَأَعْوَانِهِ

حَدًّا يَجْعَلُهُمْ يُرِيقُونَ دَمَ السِّبْطِ الْكَرِيمِ «الْحُسَيْنِ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، دُونَ وَازِعٍ مِنْ خُلُقٍ أَوْ دِينٍ أَوْ إِنْسَانِيَّةٍ.

أَخَذَ «الْحُسَيْنُ» يَسَارَ الطَّرِيقِ عَنِ «الْعُذَيْبِ» وَ«الْقَادِسِيَّةِ»، وَ«الْحُرُّ» يَمْشِي بِإِزَائِهِ يُسَايِرُهُ وَيُحَدِّثُهُ، وَمِمَّا قَالَهُ:

- يَا «حُسَيْنُ» إِنِّي أُذَكِّرُكَ اللهَ فِي نَفْسِكَ، فَإِنِّي أَشْهَدُ لَئِنْ قَاتَلْتَ لَتُقْتَلَنَّ.

كَانَ «الْحُرُّ» شَفِيقًا بِهِ، يَتَصَوَّرُ الِاسْتِسْلَامَ أَهْوَنَ مِنَ الْقِتَالِ؛ فَفِيهِ النَّجَاةُ مِنَ الْمَوْتِ.

فَرَدَّ «الْحُسَيْنُ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ:

- أَفَبِالْمَوْتِ تُخَوِّفُنِي؟ وَلَكِنْ أَقُولُ كَمَا قَالَ أَخُو الْأَوْسِ لِابْنِ عَمِّهِ، وَقَدْ لَقِيَهُ وَهُوَ يُرِيدُ نُصْرَةَ رَسُولِ اللهِ، فَقَالَ:

- أَيْنَ تَذْهَبُ فَإِنَّكَ مَقْتُولٌ؟!

فَقَالَ:

سَأَمْضِي وَمَا بِالْمَوْتِ عَارٌ عَلَى الْفَتَى
إِذَا مَا نَوَى حَقًّا وَجَاهَدَ مُسْلِمَا
وَآسَى الرِّجَالَ الصَّالِحِينَ بِنَفْسِهِ
وَفَارَقَ خَوْفًا أَنْ يَعِيشَ وَيُرْغَمَا

فَلَمَّا سَمِعَ «الْحُرُّ» مِنْهُ ذَلِكَ تَنَحَّى عَنْهُ، وَجَعَلَ يَسِيرُ بِأَصْحَابِهِ نَاحِيَةً

عَنْـهُ، وَبَيْنَمَا هُمْ فِي سَـيْرِهِمْ أَقْبَلَ أَرْبَعَةُ نَفَرٍ مِـنَ الْكُوفَةِ عَلَى رَوَاحِلِهِمْ يَخِبُّونَ يَقْصِدُونَ «الْحُسَيْنَ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وَدَلِيلُهُمْ يُنْشِدُ:

يَا نَاقَـتِي لَا تَـذْعَرِي مِنْ زَجْـرِي
وَشَمِّـرِي قَبْلَ طُلُـوعِ الْفَجْـرِ
بِخَـيْرِ رُكْـبَانٍ وَخَـيْرِ سَفَـرِ
حَـتَّى تَحِـلِّي بِكَثِـيرِ الْفَخْـرِ
الْمَاجِـدِ الْحُـرِّ رَحِـيبِ الصَّدْرِ
أَثَـابَـهُ اللهُ بِخَـيْرِ أَجْـرِ
ابْـنِ أَمِـيرِ الْمُـؤْمِنِـينَ الطُّهْـرِ
وَابْنِ الشَّـفِيعِ مِنْ عَـذَابِ الْحَشْـرِ
يَا مَـالِكَ النَّفْـعِ مَعًـا وَالضُّـرِّ
أَيِّـدْ حُسَـيْنًا سَـيِّدِي بِالنَّصْـرِ
عَـلَى اللَّعِينَـيْنِ سَـلِيـلَيْ صَخْرٍ
وَابْـنِ زِيَـادٍ الْعُهْـرِ بْـنِ الْعُهْرِ

فَأَرَادَ «الْحُرُّ» أَنْ يَحُولَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ «الْحُسَيْنِ»، فَقَالَ لَهُ «الْحُسَيْنُ»:

- أَلَمْ تَكُنْ قَدْ عَاهَدْتَنِي أَنْ لَا تَتَعَـرَّضَ لِأَحَدٍ مِنْ أَصْحَابِي، فَإِنْ كُنْتَ عَلَى مَا بَيْنِي وَبَيْنَكَ وَإِلَّا نَازَلْتُكَ فِي مَيْدَانِ الْحَرْبِ.

فَكَفَّ عَنْهُمُ «الْحُرُّ»، فَانْضَمُّوا إِلَى رَكْبِ «الْحُسَيْنِ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

وَثَـارَ النَّقْعُ مِنْ بَعِيدٍ، ثُمَّ تَكَشَّـفَ عَنْ رَاكِبٍ عَلَى نَجِيـبٍ لَهُ وَعَلَيْهِ السِّلَاحُ، مُتَنَكِّبٍ قَوْسًا مُقْبِلٍ مِنَ الْكُوفَةِ، فَوَقَفُوا جَمِيعًا يَنْتَظِرُونَهُ، فَلَمَّا انْتَهَى إِلَيْهِمْ سَلَّمَ عَلَى «الْحُرِّ» وَأَصْحَابِهِ، وَلَمْ يُسَلِّمْ عَلَى «الْحُسَيْنِ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَأَصْحَابِهِ، ثُمَّ دَفَعَ إِلَى «الْحُرِّ» كِتَابًا مِن «ابْنِ زِيَادٍ».. جَاءَ فِيهِ:

ـ «أَمَّا بَعْدُ فَجَعْجِعْ[1] بِـ«الْحُسَـيْنِ» حِينَ يَبْلُغُكَ كِتَابِي وَيَقْدَمُ عَلَيْكَ رَسُولِي، فَلَا تُنْزِلْهُ إِلَّا بِالْعَرَاءِ فِي غَيْرِ حِصْنٍ وَعَلَى غَيْرِ مَاءٍ، وَقَدْ أَمَرْتُ رَسُولِي أَنْ يَلْزَمَكَ لَا يُفَارِقُكَ حَتَّى يَأْتِيَنِي بِإِنْفَاذِكَ أَمْرِي، وَالسَّلَامُ».

وَكَانَ «ابْنُ زِيَادٍ» قَدْ عَلِمَ مُسَـايَرَةَ «الْحُرِّ» لِـ «الْحُسَـيْنِ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وَمُلَاطَفَتَهُ لَهُ وَغَيْرَتَهُ عَلَيْهِ، فَشَكَّ فِي أَمْرِهِ، وَلِهَذَا أَرْسَلَ كِتَابَهُ الْآنِفَ الذِّكْرِ لِيُؤَكِّدَ بِهِ أَوَامِرَهُ السَّابِقَةَ، وَلِيَكُونَ رَسُولُهُ الَّذِي حَمَلَ الْكِتَابَ عَيْنًا وَجَاسُوسًـا عَلَى «الْحُرِّ»؛ كَيْ يَنْقُلَ بَعْدَ ذَلِكَ مَا يَرَى وَيَسْـمَعُ إِلَى «ابْنِ زِيَادٍ».

الْتَفَتَ «الْحُرُّ» إِلَى «الْحُسَيْنِ» وَقَالَ:

ـ هَذَا كِتَابُ «عُبَيْدِ اللهِ بْنِ زِيَادٍ» يَأْمُرُنِي فِيهِ أَنْ أُجَعْجِعَ بِكُمْ فِي الْمَكَانِ الَّذِي يَأْتِينِي فِيهِ كِتَابُهُ. وَهَذَا رَسُولُهُ وَقَدْ أَمَرَهُ أَنْ لَا يُفَارِقَنِي حَتَّى أُنَفِّذَ رَأْيَهُ وَأَمْرَهُ.

---

(١) جَعْجَعَ بِالْمَكَانِ: أَقَامَ فِيهِ عَلَى غَيْرِ طُمَأْنِينَةٍ.

وَأَخَذَ «الْحُرُّ» الْقَوْمَ بِالنُّزُولِ فِي ذَلِكَ الْمَكَانِ عَلَى غَيْرِ مَاءٍ وَلَا فِي قَرْيَةٍ، فَقَالُوا:

ـ دَعْنَا نَنْزِلْ فِي هَذِهِ الْقَرْيَةِ أَوْ تِلْكَ...

فَقَالَ «الْحُرُّ»:

ـ لَا وَاللهِ مَا أَسْتَطِيعُ ذَلِكَ، وَهَذَا رَجُلٌ قَدْ بُعِثَ عَلَيْنَا عَيْنًا.

❊❊❊

وَوَصَلَ «عُمَرُ بْنُ سَعْدٍ» بِجَيْشِهِ، فَانْضَمَّ إِلَيْهِ «الْحُرُّ بْنُ يَزِيدَ»، وَنَزَلَ قُبَالَةَ «الْحُسَيْنِ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وَأَخَذَ يُرَاسِلُهُ مُسْتَفْسِرًا عَنْ سَبَبِ مَجِيئِهِ ـ وَكَأَنَّهُ يَجْهَلُ ذَلِكَ ـ، ثُمَّ إِنَّهُ كَتَبَ إِلَى «ابْنِ زِيَادٍ» كِتَابًا يَعْرِضُ فِيهِ أَقْوَالَ «الْحُسَيْنِ»، فَجَاءَهُ الرَّدُّ:

ـ «أَمَّا بَعْدُ، فَقَدْ بَلَغَنِي كِتَابُكَ، وَفَهِمْتُ مَا ذَكَرْتَ، فَاعْرِضْ عَلَى «الْحُسَيْنِ» أَنْ يُبَايِعَ «يَزِيدَ بْنَ مُعَاوِيَةَ» هُوَ وَجَمِيعُ أَصْحَابِهِ، فَإِنْ أَطَاعَ وَإِلَّا فَحُلْ بَيْنَهُ وَأَصْحَابِهِ وَبَيْنَ الْمَاءِ، وَلَا يَذُوقُوا مِنْهُ قَطْرَةً، كَمَا صُنِعَ بِالنَّقِيِّ الزَّكِيِّ الْمَظْلُومِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ»!

وَلَمَّا خَشِيَ «ابْنُ زِيَادٍ» أَنْ يَتَبَاطَأَ «ابْنُ سَعْدٍ» أَوْ يَتَلَكَّأَ، أَتْبَعَهُ «شَمِرَ ابْنَ ذِي الْجَوْشَنِ»؛ لِيَكُونَ أَضْمَنَ فِي تَنْفِيذِ الْمُهِمَّةِ، وَقَدْ عُهِدَ فِيهِ فَظَاظَةُ الْقَلْبِ، وَغِلْظَةَ الطَّبْعِ وَشِدَّةُ الْعَدَاوَةِ لِآلِ الْبَيْتِ.

وَتَكَأْكَأَ الشَّيْطَانُ بِجُنْدِهِ حَوْلَ الْفِئَةِ الْمُؤْمِنَةِ الطَّاهِرَةِ، وَأَحَاطُوا بِهَا مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، وَضَيَّقُوا عَلَيْهَا الْخِنَاقَ، وَسَدُّوا عَلَيْهَا الْمَنَافِذَ إِلَّا سَبِيلًا وَاحِدًا لَا قُدْرَةَ لَهُمْ عَلَيْهِ، وَلَا سُلْطَانَ لِبَأْسِهِمْ وَجَبَرُوتِهِمْ بِجَانِبِهِ، ذَلِكُمْ سَبِيلُ اللهِ وَطَرِيقُ الْجَنَّةِ.

وَزَحَفَ جَيْشُ «ابْنِ سَعْدٍ» إِلَى «الْحُسَيْنِ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، فَالْتَفَتَ «الْحُرُّ بْنُ يَزِيدَ» إِلَيْهِ وَقَدْ أَذْهَلَتْهُ الْمُفَاجَأَةُ؛ فَقَدْ كَانَ لَا يَتَوَقَّعُ أَبَدًا أَنْ تَطِيشَ عُقُولُ الْقَوْمِ فَيُقَاتِلُوا ابْنَ بِنْتِ نَبِيِّهِمْ، ثُمَّ قَالَ لِـ«ابْنِ سَعْدٍ»:

ـ أَصْلَحَكَ اللهُ، أَمُقَاتِلٌ أَنْتَ هَذَا الرَّجُلَ؟

فَقَالَ «ابْنُ سَعْدٍ»:

ـ إِي وَاللهِ، قِتَالًا أَيْسَرُهُ أَنْ تَسْقُطَ الرُّؤُوسُ، وَتَطِيحَ الْأَيْدِي!

فَقَالَ «الْحُرُّ»:

ـ أَفَمَا لَكُمْ فِي وَاحِدَةٍ مِنَ الْخِصَالِ الَّتِي عَرَضَ عَلَيْكُمْ رِضًا؟

فَلَمْ يُجِيبُوهُ بِشَيْءٍ، وَاسْتَمَرُّوا عَلَى سَدِّ آذَانِهِمْ وَصَرْفِهَا عَنِ الِاسْتِمَاعِ.

ثُمَّ وَقَفَ «الْحُرُّ» يُفَكِّرُ قَلِيلًا فِي أَمْرِهِ، إِنَّهُ يَعْلَمُ أَنَّ «الْحُسَيْنَ» مَعَ الْحَقِّ، وَأَنَّ الدُّنْيَا مَعَ «ابْنِ زِيَادٍ»، وَبَلَغَتْ ثَوْرَةُ الضَّمِيرِ عِنْدَ «الْحُرِّ» أَوْجَهَا، فَالْتَمَعَتْ بِهَا عَيْنَاهُ، وَزَالَتْ عَنْهُمَا الْغِشَاوَةُ، وَأَخَذَ يَدْنُو مِنْ جَانِبِ «الْحُسَيْنِ» قَلِيلًا، فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ مِنْ قَوْمِهِ:

ـ مَا تُرِيدُ يَا «ابْنَ يَزِيدَ»؟ أَتُرِيدُ أَنْ تَحْمِلَ؟

فَسَكَتَ وَلَمْ يُجِبْ بِشَيْءٍ، وَظَلَّ يَتَقَدَّمُ، فَقَالَ لَهُ الرَّجُلُ:

- وَاللهِ إِنَّ أَمْرَكَ لَمُرِيبٌ، وَاللهِ مَا رَأَيْتُ مِنْكَ فِي مَوْقِفٍ قَطُّ مِثْلَ شَيْءٍ أَرَاهُ الْآنَ، وَلَوْ قِيلَ لِي: مَنْ أَشْجَعُ أَهْلِ الْكُوفَةِ رَجُلًا؟ مَا عَدَوْتُكَ، فَمَا هَذَا الَّذِي أَرَى مِنْكَ؟!

قَالَ الرَّجُلُ ذَلِكَ وَهُوَ يَظُنُّ أَنَّ «الْحُرَّ» يُرِيدُ أَنْ يَفِرَّ مِنَ الْمَيْدَانِ لِيَنْجُوَ بِنَفْسِهِ، وَأَنَّهُ قَدْ خَافَ الْقَتْلَ وَخَشِيَ الْمَوْتَ، وَمَا عَلِمَ أَبَدًا مَا يَجُولُ فِي نَفْسِ «الْحُرِّ» مِنْ ثَوْرَةِ الضَّمِيرِ.

فَقَالَ «الْحُرُّ»:

- إِنِّي وَاللهِ أُخَيِّرُ نَفْسِي بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، وَوَاللهِ لَا أَخْتَارُ عَلَى الْجَنَّةِ شَيْئًا وَلَوْ قُطِّعْتُ وَحُرِّقْتُ.

ثُمَّ ضَرَبَ فَرَسَهُ وَلَحِقَ بِـ «الْحُسَيْنِ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، فَلَمَّا اقْتَرَبَ مِنْهُ، قَالَ:

- جَعَلَنِي اللهُ فِدَاكَ يَا ابْنَ رَسُولِ اللهِ، أَنَا صَاحِبُكَ الَّذِي حَبَسْتُكَ عَنِ الرُّجُوعِ، وَسَايَرْتُكَ فِي الطَّرِيقِ، وَجَعْجَعْتُ بِكَ فِي هَذَا الْمَكَانِ، وَاللهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ مَا ظَنَنْتُ أَنَّ الْقَوْمَ يَرُدُّونَ عَلَيْكَ مَا عَرَضْتَ عَلَيْهِمْ أَبَدًا، وَلَا يَبْلُغُونَ مِنْكَ هَذِهِ الْمَنْزِلَةَ، فَقُلْتُ فِي نَفْسِي لَا أُبَالِي أَنْ أُطِيعَ الْقَوْمَ فِي بَعْضِ أَمْرِهِمْ، وَلَا يَرَوْنَ أَنِّي خَرَجْتُ مِنْ طَاعَتِهِمْ، وَأَمَّا هُمْ فَسَيَقْبَلُونَ مِنْ «حُسَيْنٍ» هَذِهِ الْخِصَالَ الَّتِي يَعْرِضُ عَلَيْهِمْ، وَوَاللهِ لَوْ

ظَنَنْتُ أَنَّهُمْ لَا يَقْبَلُونَهَا مِنْكَ مَا رَكِبْتُهَا مِنْكَ، وَإِنِّي قَدْ جِئْتُكَ تَائِبًا مِمَّا كَانَ مِنِّي إِلَى رَبِّي، وَمُوَاسِيًا لَكَ بِنَفْسِي، حَتَّى أَمُوتَ بَيْنَ يَدَيْكَ، أَفَتَرَى ذَلِكَ لِي تَوْبَةً؟

فَقَالَ «الْحُسَيْنُ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ:

- نَعَمْ، يَتُوبُ اللهُ عَلَيْكَ وَيَغْفِرُ لَكَ، انْزِلْ.

فَقَالَ «الْحُرُّ»:

- أَنَا لَكَ فَارِسًا خَيْرٌ مِنِّي رَاجِلًا، أُقَاتِلُهُمْ عَلَى فَرَسِي سَاعَةً، وَإِلَى النُّزُولِ مَا يَصِيرُ آخِرُ أَمْرِي.

وَأَخَذَ «الْحُرُّ» يُنَادِي النَّاسَ وَيُكَلِّمُهُمْ، مُحَاوِلًا إِقْنَاعَهُمْ وَرَدَّهُمْ، وَلَكِنْ أَنَّى تَسْمَعُ آذَانٌ صُمَّتْ عَنْ نِدَاءِ الْحَقِّ، وَأَصَاخَتْ لِنِدَاءِ الشَّيْطَانِ.

وَكَانَ مِمَّا قَالَهُ:

- «... يَا أَهْلَ الْكُوفَةِ لِأُمِّكُمُ الْهَبَلُ وَالْعِبَرُ إِذْ دَعَوْتُمُوهُ حَتَّى إِذَا أَتَاكُمْ أَسْلَمْتُمُوهُ، وَزَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ قَاتِلُو أَنْفُسِكُمْ دُونَهُ، ثُمَّ عَدَوْتُمْ عَلَيْهِ لِتَقْتُلُوهُ، أَمْسَكْتُمْ بِنَفْسِهِ وَأَخَذْتُمْ بِكَظْمِهِ، وَأَحَطْتُمْ بِهِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، فَمَنَعْتُمُوهُ التَّوَجُّهَ فِي بِلَادِ اللهِ الْعَرِيضَةِ؛ حَتَّى يَأْمَنَ وَيَأْمَنَ أَهْلُ بَيْتِهِ، وَأَصْبَحَ فِي أَيْدِيكُمْ كَالْأَسِيرِ لَا يَمْلِكُ لِنَفْسِهِ نَفْعًا وَلَا يَدْفَعُ ضُرًّا، وَحَلَأْتُمُوهُ وَنِسَاءَهُ وَأَصْبِيَتَهُ وَأَصْحَابَهُ عَنْ مَاءِ الْفُرَاتِ الْجَارِي الَّذِي يَشْرَبُهُ الْيَهُودِيُّ وَالْمَجُوسِيُّ، وَتَتَمَرَّغُ فِيهِ خَنَازِيرُ السَّوَادِ وَكِلَابُهُ،

وَهَا هُمْ قَدْ صَرَعَهُمُ الْعَطَشُ، بِئْسَ مَا خَلَفْتُمْ «مُحَمَّدًا» فِي ذُرِّيَّتِهِ، لَا أَسْقَاكُمُ اللهُ يَوْمَ الظَّمَإِ إِنْ لَمْ تَتُوبُوا وَتَنْزِعُوا عَمَّا أَنْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ يَوْمِكُمْ هَذَا فِي سَاعَتِكُمْ هَذِهِ».

كَانَ «الْحُرُّ» يَشْتَدُّ فِي تَقْرِيعِ أَهْلِ الْكُوفَةِ الَّذِينَ بَايَعُوا «الْحُسَيْنَ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَدَعَوْهُ إِلَيْهِمْ لِيَقْدَمَ عَلَيْهِمْ، فَإِذَا بِهِمْ بَيْنَ عَشِيَّةٍ وَضُحَاهَا يَنْكُثُونَ الْعَهْدَ وَيَخْلِفُونَ الْوَعْدَ.

وَكَانَ الرَّدُّ مِنْ جَانِبِ «ابْنِ سَعْدٍ» سَهْمًا أَطْلَقَهُ بِاتِّجَاهِ «الْحُسَيْنِ» وَأَصْحَابِهِ، وَهُوَ يَقُولُ:

- اشْهَدُوا أَنِّي أَوَّلُ مَنْ رَمَى.

وَحَمَلَتْ عَلَى «الْحُرِّ» رَجَّالَةُ الْقَوْمِ تَرْمِيهِ بِالنَّبْلِ، فَأَقْبَلَ حَتَّى وَقَفَ أَمَامَ «الْحُسَيْنِ»، وَسَكَنَتِ الْأَلْسُنُ لِتَتَكَلَّمَ السُّيُوفُ، وَلِيُحَاوِلَ الْبَاطِلُ أَنْ يُزْهِقَ الْحَقَّ، وَلَكِنْ أَنَّى لَهُ ذَلِكَ ﴿إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾.

وَرَاحَ رِجَالُ «الْحُسَيْنِ» وَفُرْسَانُهُ يَتَصَدَّوْنَ لِلْمَوْتِ؛ كُلُّهُمْ يَفْتَدِي الْإِمَامَ بِنَفْسِهِ، وَأَخَذَتِ الْأَرْوَاحُ الطَّاهِرَةُ الْبَرِيئَةُ تَلْقَى رَبَّهَا رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً الْوَاحِدَةُ تِلْوَ الْأُخْرَى.

وَقَالَ «الْحُرُّ» لِـ «الْحُسَيْنِ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ:

- السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا «أَبَا عَبْدِ اللهِ»، صَلَّى عَلَيْكَ اللهُ وَعَلَى أَهْلِ بَيْتِكَ، وَعَرَّفَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ فِي جَنَّتِهِ.

وَتَقَــدَّمَ لِيُقَاتِلَ وَيُقْتَــلَ.. لِيَخُوضَ الْمَعْمَعَةَ حَيْــثُ تَتَطَايَرُ الرُّؤُوسُ وَتَتَهَاوَى الْأَجْسَادُ.

وَمَا هِيَ إِلَّا جَوْلَاتٌ قَلِيلَةٌ حَتَّى سَــقَطَ «الْحُرُّ» مُضَرَّجًا بِالدَّمِ، وَجَادَ بِأَنْفَاسِهِ الْأَخِيرَةِ، وَلَحِقَ بِالشُّهَدَاءِ وَالصِّدِّيقِينَ، وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا.

***